



3 1761 06839344 6







في	المسامرة	صفحة
الذهب واستخراجه	المتون	٦٩٣
بلاد سنغامبيا	الحادية والستون	٦٩٦
الزباء وجذية الابرش وقصير ويهس	الثانية والستون	٧٠٥
الرفيق	الثالثة والستون	٧١٢
السودان بافريقيا	الرابعة والستون	٧٢٣
العرب المجاهلية	الخامسة والستون	٧٣٤
الوضوء والتيمم	السادسة والستون	٧٤٥
مملكة اشانتي	السابعة والستون	٧٤٨



في	المسامرة	صفحة
الاروق والصلوة	السادسة والثلاثون	٥٠٦
السكر	السابعة والثلاثون	٥٠٩
الميسر والانصاب والازلام	الثامنة والثلاثون	٥١٢
حكاية المصري الغريب	التاسعة والثلاثون	٥١٧
المحار	الاربعون	٥٢٩
الودّاع	الحادية والاربعون	٥٢٨
اللؤلؤ	الثانية والاربعون	٥٤٠
الدينار	الثالثة والاربعون	٥٥٢
دود الخشب وغيره	الرابعة والاربعون	٥٧٠
دود الفز	الخامسة والاربعون	٥٧٦
ابو دقيق	السادسة والاربعون	٥٨١
الخل	السابعة والاربعون	٥٨٦
المحشرات	الثامنة والاربعون	٦٠١
النمل	التاسعة والاربعون	٦١٩
الانسان والحيتان	الخمسون	٦٢٠
دعوة انس	الحادية والخمسون	٦٢٤
ذم الدنيا ومدحها	الثانية والخمسون	٦٤٤
حكاية يعقوب	الثالثة والخمسون	٦٥١
كلب البحر والديبورة	الرابعة والخمسون	٦٥٨
النوء والفرق	الخامسة والخمسون	٦٦٤
الوحدة	السادسة والخمسون	٦٧١
السود	السابعة والخمسون	٦٧٦
الفيل	الثامنة والخمسون	٦٨١
المخلص	التاسعة والخمسون	٦٩٠

فهرس

الجزء الثاني

من كتاب

علم الدين

في	المسامرة	صفحة
التيارات	السابعة والعشرون	٢٩٧
النظارات	الثامنة والعشرون	٤٤١
العادات	التاسعة والعشرون	٤٤٥
القهوة	الثلاثون	٤٥١
الحشيش	الحادية والثلاثون	٤٥٦
يوم العطلة	الثانية والثلاثون	٤٦٤
مرسيليا	الثالثة والثلاثون	٤٦٨
شذرات	الرابعة والثلاثون	٤٧٢
كتاب علم الدين	الخامسة والثلاثون	٤٩٨

والتصدي للنهي عنها لعلمهم بان ذلك يغري الاهلين بهم ويوقع
 العداوة والبغضاء فيما بينهم فلماذا اخبروا السكوت عن ذلك
 وما ذكرناه من احوال هذه البلاد واهلها ليس الا القليل
 النادر بالنسبة لما لم نذكره فان عجائب افريقية وغرائبها اكثر من ان
 تحصر وفيها للسائحين كلام كثير يطول تتبعه وفيها من انواع
 الحيوان والنبات والاحجار ما لا يوجد في غيرها من الجهات فهي
 مخزن العجائب ومعدن الغرائب وكل بقعة منها تحتاج الى مجلدات
 متعددة فضلاً عما لم يصل اليه احد من الامم المتقدمة ففيها جزء
 عظيم متسع لم ينكشف لنا الى الان امره ولم تعلم حقيقته وما ذكره
 عنه السائحون في كتبهم انما هو بالنقل والرواية لا بالمعاينة
 والدراسة وفي افريقيا انهار عظيمة كالنيل معظمها لا يدرى الى الان
 منبعه وغالب ما قالوه فيها انما هو بالظن والتخمين لا بالقطع
 واليقين

فلندع الكلام الان في هذا المعنى ونسمع من يعقوب بقية
 حديثه وما جرى له الى ان صار معنا وهل رجع الى بلده ورأى
 اخيه ام كيف كان حاله بعد خلاصه من يد هولاء السودان

اعتراهم فيها من الامراض الكثيرة ففكان في كل سنة يموت قدر
النصف ممن يرسل اليها من العسكر وغيرهم واتخذ الانكليز بها
ظرفاً كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين احوالها
فلم ينجح الا القليل منها في بعض الجهات دون بعض وكذلك
جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والاناث جمعوا فيها كثيراً
من اهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لان من
تربى منهم ولم يمت في عهد قريب اثر الإقامة بين من تربى عندهم
على الإقامة بين اهله في بلده لكرهتهم له وتبرئهم منه وعلمه انه اذا
اتي اليهم مقتوه واحقروه وان تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه

وكما فعلت دولة الانكليز معهم كذلك فعل الفرنسيين
والفلمنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الامم مواضعها وانتقلوا
من موضع رأوا فيه كثرة الامراض الى موضع ظنوا فيه جودة الهواء
فخاب امل الجميع وتحققوا عدم النجاح ولذلك قل توارد الاوربيين
اليها وصار المتوطنون بها من الاغراب هم المتناسلون بينهم وبين
الافريقيين او الذين هاجروا اليهم من الامريكيين او اهل جزائر
المحيط

وبالجملة فجميع التجار التقيين هناك اخلاط متجمعون ومن
شدة اخلاطهم باهل البلاد وطول زمن اجتماعهم ببعضهم كادت
تقارب طباعهم ونشابه اخلاقهم وانما بقي في الاغراب بعض عاداتهم
واخلاقهم الاصلية مع عدم التعرض لدم عادات اهل البلاد

المقصود لهم من الاقامة في تلك الجهات انما هو التكسب بالتجارة في ما يستخرج من ارضها من المعادن وسائر مواد التجارة وارسال ذلك الى الممالك الاوروبية واستبداله بما يرد منها الى البلاد فلا يشتغلون الا بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات اذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك فان هذه البلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للاغراب من الافرنج فيها بسبب ذلك من العلل المخرطة والامراض المهلكة لا يتأني للدول الاوروبية ان تبعث هذه البلاد بكثير من الناس والاجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية فلذلك ترى المقيمين منهم هناك يخنارون السكوت على هذه الاحوال والاقصار على التكسب والتجارة والبيع والشراء والاخذ والاعطاء وقد اسست دولة الانكليز عدة مواضع للتجارة في مواقع مختلفة من هذه السواحل في امتداد قدره الف وستمائة ميل انكليزي بين (سانت ماريا) (على مدينة نهر جنبي) و(كارا) (مدينة جهة رأس عشم الخير) ونقلت الى هذه المواضع مقداراً كافياً من العسكر وغيرهم اقامتهم بها وقبل ان تضع الحكومة يدها على هذه المواضع كانت ادارة امورها موكولة لشركة تعرف بالشركة الافريقية وقد بذل كل من تلك الشركة ودولة الانكليز جهده في استدامة السكنى بهذه الجهات ولكن لم يطب لاهل اوروبا العيش بها لما

اليه به الأ الخادم الأكبر وهو كبير الخدم المعروفين في مصر
بالاغوات

ومن العادة عندهم ان اخت الملك لها ان تحب من الرجال
من اعجبتهما صورته سواء كان اميراً او حقيراً فاذا علم به الملك
هياً لها باحسن هيئة ووجه به اليها فاقام معها فان ماتت قبله المحق
نفسه بها ما لم يكن من ذوي النسب

فقال الشيخ ان ادنى ما ذكرت يدل على توحش هولاء القوم
وجهم وخشونة طبعهم وقلة عقولهم وكيف يكونون كذلك الى
الآن مع وجود الانكليز والفرنسيين وباقي الاوروبيين بسواحل
تلك الجهة افيجتهدون في ابطال بيع الرقيق واسره ولا يلتفتون
الى ابطال هذه العادات الفظيعة والرسوم الشنيعة مع ان اغناءهم
بها اهم والزم من اشتغالهم بابطال بيع الرقيق اذ لو فرض منع بيعه
بالكلية على زعم الرأفة به مع بقاء العداوة بين هولاء الطوائف
المتوحشة لم يكن لمن يقع في أسرهم من بعضهم غير القتل ولا شك
ان الاسترقاق والبيع اخف منه

فقال الانكليزي ان طائفتنا وطائفة الفرنسيين وسائر الافرنج
المقيمين بين اهل تلك الجهات لا يتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم
في اجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجر عليهم من عداوة الاهلين
وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين في تلك
الجهات من الامم الاوروبية لا يعينهم تغيير شي من ذلك اذ

ومن عادة ملوكهم ان يكون عدد نساء الواحد منهم لا يتقص
 ولا يزيد عن ثلاثة الاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين لاعتقادهم ان
 لهذا العدد سراً مخصوصاً به وهذه النساء يقيم معه في بيته ست
 منهن وباقيهن يقمن في الخارج فبعضهن يقمن في محلتين خاصتين
 بهن تقفل عليهن ويرسل لهن ما يلزم من الزاد والنفقة والبعض
 منهن يكون في مبان مخصوصة في ضواحي المدينة فاذا جاء موسم
 من المواسم اجتمعن حوله كلهن او بعضهن على حسب رغبته ولا
 يكلمن الامرا ولا يكلمونهن الا بواسطة تراجمه وهم رجال كهول
 من المشوهين

فاذا مررن بطريق بقصد نزهة او غيرها يتقدمن عدة اطفال
 بايديهم سياط بضربون بها كل من رآه في طريقهم لا يفرقون بين
 كبير وصغير وجليل وحقير فلذلك ترى الناس متى شعروا بهم
 انزعجوا وتحووا عن طريقهم وزاحموا بعضهم وربما وقع بعضهم على
 بعض من الزحام فيحصل من ذلك للناس اذى كثير وتعب كبير
 ومن العادة عندهم ان لا ينظر اليهن في مدة مرورهن احد من
 الناس بل يغطي كل احد وجهه بيده

ولا احترام الملك واكرامه لهن كان ما يصرف عليهن مصاريف
 جسيمة لان ما كلهن ومشاربهن وسائر لوازمهن مثل ما يكون للملك
 واذا اريد اخبار الملك بامر من الامور المهمة وهو عندهن فلا يصل

التكليف والعقاب وجميعهم يقتلون يوم موته إلا اثنين أو ثلاثة هم
 امناء اسراره مدة حياته فهؤلاء يستبقونهم ويذبحون سائرهم
 قال وسمعت ان ماتم الملك المنوفي قبل ملك ذلك الوقت يتكرر
 كل اسبوع الى ثلاثة اشهر يذبح في كل اسبوع نحو مائتي أسير
 ويحرق فيه من البارود نحو عشرين برميلاً واشهر هذه الماتم
 واعظها ماتم والدة الملك عند موتها وقد كانت وليت نيابة تخت
 السلطنة في مدة حرب جرت بين الاشانتين وجيرانهم الفتين
 وقد احصي من قتل فيها من قبل الملك خاصة فكان ثلاثة
 الاف نفس منهم الفان من الاسراء الذين استولوا عليهم من جيش
 العدو وما أحرق من البارود من قبله خمسة وعشرين برميلاً
 ومن قبل كل واحد من الحكام والامراء عشرة انفس وعشرين
 برميلاً واتى من كل بلدة من البلاد عشرة أعبد وبرميلان من
 البارود

واما مقابر ملوكهم فهي في محل مخصوص يعرف عندهم باسم
 (بن تما) حتى لو مات احد ملوكهم او اعيانهم بعيداً عن ذلك
 المحل ولو في الحرب تحفظوا عليه الى ان يدفنه فيه بعد عمل الماتم
 المعتادة عندهم بما فيها من المخازي والفضائح وانواع القبايح وفيه
 يدفن الذهب المعد لهم وفي تجاه المحل المدفون فيه عظيم قدر كبير
 قد اعدوه لاجتماع دماء القتلى والقرايين فيه ولا يتقطع ذلك بل
 تراهم يواظبون عليه لاجل بل ثرية الملوك بدماء القتلى دائماً

عدة ولولا ما هم بصدده من الحرب لعمل لها ثمان مآتم في الاخير
 منها يضرب الملك السلاح بيده ومن عادتهم انهم بعد انقضاء مدة
 المحزنة تقوم اقرب النساء من الميت وتطوف حول البلد ثلاثة ايام
 لا تذوق فيها طعاماً ولا شرباً غير النبيذ فتشرب منه ما شاءت
 فتندب فضائل الميت ومناقبه وتمدح من اهدوا الهدايا واعطوا
 العطايا ومن عادة تلك الجهة انهم اذا مات ملكهم اعدوا مآتم كل
 من مات من اعيانهم وامرائهم مدة ملكه من ابتداء سلطته ايام مدته
 وجددوا ما تقدم من القرابين وغيرها فيحصل حيثئذ من الاحوال
 الشنيعة والاهوال الفظيعة ما يضيق عنه البيان ويعجز عن وصفه
 اللسان وعند خروج روح الملك يقوم في الحال ابنه او اخوه او
 ابن اخيه او جميعهم معاً فيخرجون كلهم او بعضهم يطوفون في البلد
 فكل من عثروا به قتلوه لا يفرقون بين عبد وحر ومأمور وأمير
 وكبير وصغير ولا لوم عليهم في ذلك ولا عتاب ولا دية ولا حساب
 فتختفي الامراء في منازلها وربما ترسل عبيدها في الطرق والحارات
 لعلمهم يقتلون فيكونون فداء لهم ويستمر الحال على ذلك مدة
 يومين

ومن يقتل في هذا اليوم بعض خواص الملك وهم مائة رجل
 من الارقا وغيرهم يعاهدونه على الثبات في خدمته والموت يوم
 موته فيميزهم عن غيرهم باطواق من ذهب يضعونها في اعناقهم وقد
 يكون فيهم بعض اقارب الملك فيتكفل لهم بمؤنتهم ويرفع عنهم

الجلادين يتنازعون في تعيين من يقدم منهم على غيره وكان المنتخب
 لان يكون اول مذبح ينظر اليهم نظر عدم الاكترت والمبالاة
 مع ما كان يعاينه من المدية النافذة من شذقيه ثم اخذ احد
 الجلادين سيفه بيده وقطع به يد واحد من المعدين للقتل وهم
 ثلاثة عشر رجلاً كما تقدم ثم انهم طرحوه على الارض وذبحوه ثم
 اخذوا في ذبح الباقي الا ان هذا السائح لفضاعة الحال لم يمكنه
 الصبر حتى يشاهد ما يحصل بعد ذلك فقام وانصرف الى بيته
 فبلغه انهم بعد ذبح من تقدم قربوا قرباناً اخر من النساء في
 الصحراء التي دفنت فيها المتوفاة ومن عقائدهم الفاسدة انه يجب
 عند دفن مثل هذه المتوفاة ان يبل ثرى القبر بدم رجل حر
 فلذلك تراهم اذا ارادوا الدفن ابتداءً اولاً بتصفيف رؤس المذبحين
 في داخل القبر امام عميد العائلة فيتحايل العبد على اصطياذ رجل
 من الاحرار يبلون تراب القبر بدمه وذلك انهم يدعون الحاضرين
 لمساعدتهم في وضع النعش وفي خلال ذلك يتوارى احدهم في
 داخل القبر فيثب على واحد من الذين نزلوا للمساعدة ويضربه
 بسكين اعدّها لذلك فيقع على الارض فيتركونه ويهبلون عليه
 التراب فلما رجعوا من دفنها اقاموا في عمل الماتم بارتكاب الماتم
 وشرب الخمر وضرب الطبل والزمر والرقص وضرب البنادق
 وفي كل ليلة تحضر الروساء والامراء ومن تأخر منهم أرسل نائباً
 عنه مصحوباً بهدية من النبيذ والروم واستمروا على هذه الحال اياماً

ينفلق في ايدي الضاربين اما لعدم متانتها او لزيادة العيار ولما
فرغوا من ذلك تفرغوا جميعاً لشرب النبيذ فكان كل من اخذ منهم
كأساً اراق على الارض منه جزء وذلك عادتهم في تلك الجهات
كأنهم سمعوا قول الشاعر

شربنا واهرقنا على الارض فضلة

وللارض من كأس الكرام نصيبُ

وبعد ذلك كله حضر كل من له قرابة الى المتوفاة من النساء
وصرن يرقصن وسط الجمع فكانت هياتهن في الجملة اجمل من
غيرها لان ملابسهن كانت من الحرير الاصفر ومع كل واحدة
منهن سكين من فضة قد علقتهما في عنقها بسلسلة من فضة كذلك
إلا ان اثنتين منهن كان معهما شي من فضة كالزمار وبأيدي
جواربهن شمسيات تظلهن بها من الشمس مدة الرقص قال ولم
يكن رقصهن كرقص غيرهن بل كانت الواحدة منهن تعصب
وسطها بشيء من حرير فتاتي الى الرجل فيأخذ ذراعها على كتفيه
وترقص وهي كذلك

وقبل ذبح القربان بعث كل من (كاتشي كوفي) والملك
الى بعض هذه النسوة بشيء من الخمر والمخرفان ثم ضربت الطبول
اعلاماً بجلول الوقت لذبح القربان فقام الرؤساء وصاروا يقلبون
اولئك المساكين المحنوم عليهم بالذبح ولم يعلم السائح ما المراد من
ذلك لان المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة قال وإنما نظرت فرأيت

سود ذو شعر فكانت هيأتهم كصورة الدب واشنع وكان محلهم جهة شمال الملك وحوهم الناس وكانت النساء اللاتي تقدم ذكرهن يدرن في الميدان ويعنين كما سبق وكان يفرق على الحاضرين شي كثير من النبيذ والروم وقد ارتفع من اصوات الطبل والزمر وصياح العبيد وغيرهم ما يزعج النفوس ويصدع الرؤس وبينما هم كذلك واذا بالبارود قد اطلق من جهة الملك ثم من سائر الجهات واستمروا على ذلك نحو ساعة وكان العسكر واقفين بمحلاتهم لا يفارقونها والرؤساء يتواثبون خلف بعضهم في وسط ذلك الميدان ولم اشارات مزعجة وافعال فظيعة وعبدهم تعدو خلفهم حاملة للبارق يذكرون اسماء ساداتهم ويعلنون بمناقبهم وشهرتهم وبعض العبيد كان يأتي الى سيده بعد ان يضرب بندقيته فيأخذها من يده وبينما هم كذلك واذا بعجوز ناشرة الشعر كانها خرجت من قبر يقولون انها كبيرة المقدسين فدخلت وسط الرجال وصارت تجري من هنا الى هنا وهم يضربون حولها البندق من كل جهة ومن عادتهم في تعبيرات البنادق ان تكون على قدر درجة الضارب وكان غالب البنادق مربوطاً بجبال وكانت الامراء لا تضرب الا وعبدها خلفها كما تقدم اذ كان يحصل اغناء من شدة ضرب البارود فيدركه عبده عند ذلك ومن طيشهم وخفة عقولهم كان بعضهم يأتي الى ذلك السائح فيضرب بندقيته خلف اذنه ويضحك منه حين كان يراه ينزعج لما كان يراه من ان كثيراً من البنادق

ملايس الحرب فتضرب لكل منهم نوبة نار وتدق له آلات الموسيقى
الخاصة بهم وكل من حضر انضم الى من سبق حتى اذا حضر الملك
بموكبه احاطت العامة به فحالت العساكر بينه وبينهم لاجل مرور
الموكب فاول من مر (كاشتي كوفي) وعائلته فكانوا جميعاً يعلنون
بفضائله ومدائحهم وهو يتمايل من جهة الى اخرى كالسكران وكان
يظهر على وجهه الفرح والظاهر ان ذلك لوجود القرابين المعدة
لامه فكانت غرابة حالته مناسبة لغرابة الحادثة واما المأخوذون
للقربان فهم وان كانوا في حالة ذل وهوان تراهم ينظرون للملك
غير مباينين به ولا مخفلين بابهته مع انه كان في قم كل واحد منهم
سكين داخله من جهة نافذة من الجهة الاخرى وكان الناس
يكثرون من سبهم ولعنهم كأن ما هم فيه لا يكفهم ثم جاء من
بعد (كاشتي كوفي) جميع الرساء وكانت هياتهم في هذا الموكب
غيرها في الموكب الاول لانهم كانوا في الاول بهيئة من يخرج
للمقاتلة والكفاح واما في هذا الموكب فكان عليهم ملابس الزينة
والافراح على عكس ما تقتضيه الحالة الراهنة وكان عليهم تائم منها
ما هو مصفح بالفضة ومنها ما هو مصفح بالذهب وكان مع الملك من
الروسا من ليس لهم بابن الملكة المتوفاة الفة وارتباط وكانت خيامهم
في الميدان المذكور على شكل نصف دائرة سعتها نحو ميل على
وجه التقريب والعساكر في النصف الاخر وكانت القرابين من
الادميين في ذلك اليوم ثلاثة عشر ومعهم الجلاذون عليهم لبد

عشرون كماكا ومن طرف الملك اربعة ومن طرف اخي الملك اثنان ومن طرف الامراء ثمانية عشر فكان المجموع ما ذكر وهو يقرب من اثني عشر برميلاً

وهذا القدر من البارود قليل بالنسبة لها على مقتضى عادتهم وإنما اقتصروا عليه لان الملك لما هو بصدده من الحرب كان قد امر بعدم الاسراف في البارود . ولما جاء وقت الزوال توجه السائح المذكور الى جهة يقال لها (عسافوا) فوجد الطيور تحوم في الجو على جثث القتلى الذين ذبحوا فتنزل وتنش لحومهم ووجد هناك حلقات من البنات منهن من يرقصن ومنهن من يندبن ويعددن فضائل المتوفاة ويولولن علي فقدها . قال فكانت اصواتهن حيثنذ تسع على بعد عظيم ووجد قوماً اخرين حاملين للاقشة التي اهديت اليها في اشكال مختلفة منها ما هو على شكل الصليب ومنها ما شكله مخروطي ومنها ما هو كروي وغير ذلك وكانت النساء الحاملات للاقشة ترى من بعد في هيئة الشياطين لان صدورهن واذرعتهن وشعورهن كانت ملوثة بدم القرايين ومن فاتها ذلك لوثت نفسها بطين احمر تشبهاً بمن لوثت نفسها بدم القرايين فكان لاجتماع كل من الطبل والمزامير والبكاء والوعويل صورة هائلة وراى السيفين يرون وقتاً فوقتاً ومعهم من حكم عليه بالقتل فكان يرى على هولاء الناس هيئة فظيعة وعلى من اخذ للقتل ذهول وحالة شنيعة وكانت روساء العساكر تاتي من كل جهة وعليها

ومن عادة الأثباتيين انهم اذا مات احدهم يضربون له باروداً على قدر مقامه اعلماً بموته فاذا سمعت عبده ذلك فروا الى الغابات والمغارات فاخفوا فيها الى ان تخرج جنازته ويدفن ومن بقي منهم ممن لم يشعر بموته توخذ منهم القرابين التي تذج على تربته يوم موته وتكون على قدر ايسار الميت واعساره ومن عاداتهم ايضاً في موتاهم ان الميت اذا مات اجلسوه على كرسي واسندوه حتى يكون كما يجلس الحي وابقوه كذلك الى ان تظهر له رائحة وعند ذلك يدفنونه في منزله ويضعون عنده شيئاً من الذهب والاولاني والملابس الثمينة

ثم قال الانكليزي للشيخ ان اردت زيادة الايضاح ذكرت لك يوم موت الملكة ام (كاتشي كوفي) على حسب ما وصفه ذلك السائح وذلك انها حين خرجت روحها بادر الملك الى بنت من حاشيتها فقتلها بيده وحكمة ذلك على زعمهم ان تجد المتوفاة من يخدمها حين يضعونها في قبرها الى ان ياتوا لها بالقربان الكبير ثم جاءت من طرف احبة العائلة واتباعها والمنتمين اليها هدايا كثيرة من الاشربة والذهب وثياب الحرير وارسل الملك بهدية اعظم من الجميع لكونه هو الوارث للمملكة المذكورة فبعث بشي من الذهب والاقمشة الفاخرة الا ان هذا السائح لم يعرف مقدارها وانما قدر البارود الذي ورد وتلف في ذلك اليوم باربعة واربعين كائاً فقال ان ما ورد من طرف ولدها (كاتشي كوفي)

في مقابره ورجع في موكبه ومعهم روساؤه وامراؤه واتباعهم وعليهم
 ملابس الحرب والآله وامام كل واحد منهم شعلة من نار فكانت
 البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الاعلام وقد
 تقدمهم جماعة قد غلت ايديهم وعليهم المحرس وحولهم رجال تغني
 بانغام حماسية وفي عصر ثاني يوم اعادوا ذلك الموكب بعينه فوقف
 الملك في الميدان الكبير وحوله الطبول وارباب الموسيقى فامر
 بقتل اولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والالات
 تضرب بانغام عجيبة كأنها تقول التتل التتل وكان امامه اناء من
 خشب ملاّن نبيذاً وكلهما قطع راس رقص له ثم في اخر هذا
 اليوم دخل الملك سرايته

فعند ذلك آمن كل من كان خائفاً منه على نفسه من الامراء
 وغيرهم فخرجوا من مكائهم وصاروا يطوفون في ازقة المدينة فرحين
 بالخلاص مما حصل في اليوم الماضي وان كانوا غير آمنين مما يحصل
 في الاثني قال السامع المذكور وقد اعتق ذلك ان اجترتني حتى
 كان سببها اني اطلت الجلوس مع الملك بالامس وكان الوقت
 شديد الحر فلما رجعت الى بيتي لم اجد فيه ماءً ولم يمكنني ان ارسل
 احداً من خدمني لشراء ما يلزمي من السوق خوفاً من ان يوخذ
 فيقتل كغيره ولم يكن في السوق احد من الناس خوفاً من القتل
 واستمر الذبح كل يوم على نحو ما تقدم الى ان انتهت ايام ذلك
 الموسم المشؤم

واحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة
 ووضعوها على حافة القبر وبعد ذلك اتوا بجميع المذنبين والمتهمين
 بعدم الرضى عن الملك فكان كل من اتى منهم ذبحوه على تلك
 العظام حتى سالت الدماء الى القبر وفي هذه الليلة دارت سيافة
 الملك حول المدينة فكل من وقع بصرم عليه احضروه الى الملك
 فيذبح وكان السبب في هذا القتل والتربان على زعمهم هو ان الملك
 وقتئذ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك
 على حسب عادتهم في ذلك يرى من الواجب قبل الخروج الى
 القتال ان يخرج عظام امه وبعض اقاربه من قبورهم ويفعل بها
 ما ذكر لاعتماده انه اذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت
 ارفاح مقدسهم مساعدة له على اعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا
 الامر قد يتخلص منه ناس كثير ممن يرغب الملك في قتله وكان
 من عادتهم في ذلك العيد كباقي الاعياد ان يحضروه الى تلك
 المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضروا فكانت
 المدينة يومئذ خالية ليس بها الا الملك وعائلته واصحاب سره ولما
 دخلت عليه اظهر لي الانبساط من حصول الامن عندي وامر لي
 بالجلوس فجلست فرأى مني اني قد استقلت ما حوله من الروساء
 فلم يكلمني في ذلك وكان يظهر عليه اثر القلق وعدم الاستقرار ثم قام
 ودخل بيته فلما قرب المساء ابتدء بالذبح كما حصل بالامس
 فلما مضى جزء من الليل امر الملك بوضع عظام والدته واهله

من الاثنانين لان لم عيداً قد قرب ولم يبقَ عليه سوى يومين
 فاذا سمعت صوت طبل فاعلم انه علامة على الموت فاحذر من
 الملك ولا تقربه فهذا شي في امكانك فان فعلت ذلك فلا تخشَ
 من شي فقبلت نصيخته وشكرته ثم انصرف فلما مضى يومان سمعت
 صوت طبل فصرت اتفكر في هذه الاحوال وادبر حيلة للخلاص
 من تلك الاهوال فلم اشعر الاّ ورسول الملك قد حضر يدعوني
 اليه فحصل لي من ذلك رعب شديد لاني كنت اسمع ان من
 عادته انه اذا اراد البطش باحد من الروساء والامراء ارسل اليه
 من يدعوه باي حيلة فاذا حضر ودخل من باب السراية وثب
 عليه جماعة من العبيد مرتصدة لدخوله فاوثقتة والقتة الى الارض
 واخنلقوا له تهمة يتهمون بها وأروه انهم ما فعلوا به ما فعلوه الاّ
 بسببها ثم ضربوه بسكين في مقتلته فيموت ويبتني امره

فتوجهت الى الملك فرايت بعض الضباط الملازمين له
 يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبايديهم سكاكين واسلحة
 فارسل احدهم الى احد الامراء ليخبره ان يحضر عند قبر امه ثم ركب
 الملك وتوجه الى القبر بعد ان امرني بالخروج من باب غير الذي
 دخلت منه ولم اعلم سر ذلك فلما وصل الى القبر امر باخراج عظم
 امه واخوته من قبورهم فاخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمنشف
 من حرير وغمسوها في الروم وهو نوع من المسكر ثم نشفوها ثانياً كل
 ذلك بغاية الاحترام والتوقير ثم قلبوها فوق تراب من ذهب

يشتمل على ذكر فضائل الملك وعطاياه ومناقبه ومناقب ابائه
 واجداده فاذا انتهوا من ذلك مرت كل طائفة امام الملك مرة
 ثانية متشكرة له على احسانه وانعامه داعية له بالبقاء الى امثال
 عامه ثم بعد ذلك ينشر ما استحدث من القوانين التي يراد اتباعها
 والعمل بموجبها وينصرف الناس الى جهاتهم

وقد قدر بعض السياحين ما يعطيه الملك من العطايا في
 كل من هذه الاعياد والمواسم فبلغ (بيريجوين) اعني تسعة الاف
 فرنك وستمئة فرنك ولسكان (اهتا) ثلاثة اسابيع الاول يسمى اداي
 يكثر فيه بيعهم وشراؤهم واخذهم وعطاؤهم حتى انهم يسمونه اسبوع
 الخير والثاني لا يبيعون فيه ولا يشترون ولا يشتغلون بشيء
 ويسمونه اسبوع الشر لاعتقادهم ان اعمالهم لا تنجح فيه والثالث يسمونه
 اديم او الاسبوع الطيب الصغير ويكون فيه بعض التجارة والعمل
 لكنه دون الاول

وقد وصف هوتشيزون الساحح في رحلته كيفية تقرب
 القرابين من الادميين في موسم (اداي) المذكور عند اهل الجهة
 المذكورة فقال كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى (اداي)
 وكان في شهر يناير الافرنجي وكان لي فيهم رجل اعرفه فدخل
 عليّ فزليت منه ان مراده ان يخبرني بشيء في سره فاخرجت من
 كان عندي من المخدم فقال اليّ وقال لي ايها الرجل احترس
 على نفسك وعيالك فان ملك الموت قد سل سيفه لتقتل كثير

طبل عندهم كبير ثم ياتون بذلك الى باب سراية الملك ويضربون
 بها اعلاماً بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك
 او غيرها صاح باعلى صوته فتقوم البلدة على ساقيها وتهرع السوقة
 من اسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك الى
 صبح يوم العيد فيركب الملك ويذهب الى المعبد ومعه خرفان
 القربان فيذبحونها وياخذون دمها فيلوثون به تحت السلطنة زعماء
 منهم ان ذلك يكون سبباً في حفظ المملكة مدة السنة وفي هذا
 اليوم تاتي جميع الطوائف التي تقدم ذكرها فتصطف في ميدان
 السراية ثم تترجم جميع الامراء وروساء الطوائف امام الملك ويقبلون
 الارض بين يديه تحية له يقابلها بهز راسه كانه جواب تحيتهم وخلف
 كل واحد منهم جماعة من العبيد بايديهم السلاح يلعبون به
 العاباً مختلفة وبعد ذلك يقوم الملك عن تخنه ويدخل سرايته فتاتي
 خدمه وينكسون التخت ثم يخرج بعد برهة متبهاً بهيئة الابهة
 والامارة فيعيدون له التخت كما كان فيجلس عليه وعند ذلك
 يجدون في ضرب الآلات ودق الطبول ورفع الاصوات وتاتي
 التراجمه وبايديهم عصي من ذهب فيامرهم بتفريق الهدايا على رؤساء
 العساكر ومن حضر من الامراء والاكابر كل هدية عبارة عن راس
 من الضان وزجاجة من النبيذ يشرب في الحال وعشراكيات من
 ذهب (كل اكية عبارة عن ستة فرنكات) فاذا فرغوا من تفريق
 الهدايا قام جماعة من الرجال نحو الخمسة او الستة يترنمون بكلام

فيذجونها فيها ويلوثون بدمها تحت الملك وابواب محاله الخاصة
 به واما باقي الابواب والشبايك ونحو ذلك حتى كراسي اعضاء
 المملكة فيلوثونها بمخلوط مركب من البيض ونبذ النخل فاذا تم
 مولد الاستحمام عاد الملك الى مدينته ويسبقه الروساء والامراء ولا
 يدخلها في هذا اليوم غير اعيانهم واكابرهم ويدخل الملك في موكب
 يتقدمه قسيس وخلفه اطفال بايديهم آنية بها ماء مقدس عندهم
 يرشون به على الامراء ثم من خلفهم ثلاثة خرفان بيض لتذبح عند
 باب حجرة الملك التي ينام فيها ثم خلفها الملك ويكون ملبسه في
 هذا اليوم ثياباً بيضاء وخلف الملك جميع نسائه وحاشيته وحوهن
 العساكر من كل جهة ولم غير ما ذكر عيد يسمى (اداي) يتكرر
 في السنة الواحدة عدة مرات بعضها عيد كبير وبعضها عيد صغير
 ويحسبون بها سنتهم واولها يقع في اول شهر اكتوبر ولا يعرف
 لذلك سبب ويقول اهل تلك البلاد ان اول سنتهم يكون اذا
 تساقط ثمر شجر معروف عندهم تسقط ثمرته بعد تفتح ازهاره بعشرين
 يوماً ودائماً يكون العيد الكبير عندهم يوم الاحد والعيد الصغير يوم
 الاربعاء وبين كل عيدين كبيرين ستة اسابيع وكذلك بين كل
 عيدين صغيرين فيكون بين كل عيد والذي يليه ثلاثة اسابيع
 اعني واحداً وعشرين يوماً

وعاداتهم في كل عيد من تلك الاعياد الاربعة ان يعملوا به
 قبله بيوم فياخذون الزامير ويعلقون ججام القتلى وعظامها على

والخضرة وغيرها موجودة في قدر من نحاس موجود بمعبدهم
ويتخفظون عليه لزعيم ان ذلك يكون حرزاً لهم وسبباً في زيادة
سطوتهم ونصرهم على اعدائهم وفي هذا اليوم يذبح كل من الامراء
والاعيان بعض عبيده على اول خط من خطوط حرث زراعة
النبات الموسوم باسمه هذا الموسم وهو الذي يقال له بلغتهم (اينام)
كما تقدم ومن كان فقيراً يأخذ رأساً من ررؤس المذبوحين ويضعها
في اول خط من حرث ارضه وفي مثل هذا اليوم من كل سنة
تسبك حلي الذهب الخاصة بالملك في صور غير صورها التي
كانت عليها وتاكل عائلة الملك اول اكلة من محصول زراعة
العام الماضي بعد مضي عشرة ايام من يوم عيدهم ولا ياكلونها الا في
ميدانهم ثم يركب الملك في ثاني يوم قبل طلوع الشمس ومعه اتباعه
وروساء جيوشه فيذهب الى بلدة هناك يقال لها (سرازو) ليغتسل
في نهر بها يسمى (داه) ومن عاداتهم في ذلك اليوم ان الملك اذا
خرج الى ذلك النهر تبعه جميع اهل المدينة حتى تصير خالية من
سكانها وفي ثاني يوم يمضي الملك الى بركة في الجنوب الشرقي من
البلد ليغتسل فيها فيحيط به العسكر من كل جهة وينزل الملك
فيغتسل وياخذ من الماء ويرش على جميع حليه وسلاحه وامتعته
فاذا اغتسل نزل من معه من الامراء وفعلوا مثل فعله ولا يذبحون
هناك في هذا اليوم الا عنزاً ونعجة ويغمسون في ذلك النهر نحو
عشرين رأساً من الضأن ياخذونها معهم الى السراية عند عودهم

ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الاصوات فتختلط بدوي الطبول
والبنادق فيكون مجموع ذلك امرأهائلاً وخطباً مزعجاً لا تكاد
تبلغه العبارة ولا ترى في ازقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير
سكران على الارض مطروح ومزمل بقاذورات تهرغ فيها كالحيون
المدبوح ومن عف عليه الذباب ومن تشتمه او تلحسه الكلاب
ومن يمشي فيقع على الارض او على غيره من امثاله وهو معجب بامر
راض بحاله ويستمر على ذلك الى اخر النهار ثم ينقطع الشرب
وتجتمع روساء العساكر وكبراء القبائل الذين كانوا اتوا من خارج
البلد فينضم رئيس كل فرقة الى فرقته وكبير كل قبيلة الى قبيلته
ويصطفون صفوفاً على حسب رتبهم ويضربون طبولهم ويهرون
امام سراية الملك ويطوفون في البلد ويدخلون حاراتها حارة حارة
للتعبيد على اهلها ثم يجتمعون ثانياً ويقفون كما كانوا اولاً فياتي
الملك ووزراؤه محمولين على اعناق العبيد في محامل مثل
التختران فيهرون من وسط البلد بين هولاء الجموع وعند ذلك
يكون قد تم عيدهم وفي اليوم التالي لذلك يتفرغ الملك وارباب
دولته الى اشغال الحكومة ويرجع القبائل الى اوطانهم ومن العادة
عندهم ان يعين مقدار من العبيد المذنبين الذين حصلت منهم
الجنايات والجرائم مدة الحول الى هذا اليوم فيذبحونهم في جهات
متعددة من البلدة او غيرها وبعض من يقتل من العبيد كما ذكر
يوخذ ما يسيل من دمهم ويضاف الى بعض اشياء من الحشيش

اليوم الذي يليه يحضر الملك بعض الزوال في ميدان المدينة فيتلقى
الامراء وروساء العسكر فياتيه كل منهم بزيه وزينته وموكبه الذي
جاء به فيجدون السيفين واصحاب المشاعل واقفين في جانب
الميدان فرقاً كل فرقة نحو مائة رجل ومعهم حجاجم من قتل من
امراء الاعداء وروسائهم وروؤس من قتل من المذنين من قديم
الزمان الى الان وقد حشوها من السعتر او نحوه لئلا يتأذى الملك
ومن معه برمجها وبايديهم سكاكين يضربون عليها ويتكلمون بكلمات
فضيحة ويفعلون افعالاً مزعجة شنيعة وتدور الفرق الموجودة في
ذلك الميدان فرقة فرقة وامام كل منها ما يختص بها من الات اللهب
كالطبل والزمر فتطوف كل منها بجميع الخيام الموجودة وكلما
اتمت طائفة منها دورة اتت طائفة غيرها ففعلت فعلها ودارت مثلها
وهكذا الى اخر النهار وتكون الامراء مدة مرور هذه الفرق مكبة على
فعل المنكر وسيء الاعمال وضرب البارود فاذا جاء الليل او قدوا
المشاعل واكثروا من ضرب البارود ودق الطبول حتى يكون لهم في
البلد ضجة وترتفع لهم في ارجائها اصوات مختلفة مزعجة فلا تخلو حارة من
حاراتها ولا طريق من طرقاتها عن مثل ذلك الى ان يتتصف الليل
فينصرف الملك الى سرايته فاذا طلع النهار امر بالخمور فتملأ بها
حياض متفرقة في البلد ويباح الشرب منها لكل احد فلا يبقى في
البلد احد من كبير او صغير ذكر او انثى حر او عبد غني او فقير
الا شرب منها حتى سكر. وقد تحصل عليها مزاجات عظيمة

وبعض الايام عندهم سعيد يتيمينون به وبعضها نحس يتشأمون
 منه وذلك بحسب ما وقع فيها لاسلافهم من الخير والشر وقد يكون
 في بعض الاشهر السعد اكثر من النحس وبعضها على العكس
 وعربان الغرب يعملون لهم تمائم يبيعونها عليهم باسعار غالية
 ويعتقدون انها تقيم من سلاح العدو فتعقد يده عنهم وتمنع رصاصه
 ونبله منهم وتسدد نبالهم لنخره واسلحتهم لصدره وتقيم من الامراض
 والعايات والاسواء والافات فتراهم لهذا الاعتقاد يتحمون الحروب
 من غير خوف ولا فزع بخلاف اعدائهم لما يعلمه عدوهم من وجود
 هذه التمائم عندهم ولم اعياد غير ما ذكر اشهرها عيد يقال له بلغتهم
 (انيام) وهو في الاصل اسم لنبات معروف عندهم يغرس في شهر
 ديسمبر الا فرنجي ويطيب حصاده في شهر سبتمبر فيعملون لهم عند
 حصده عيداً يمتد الى اخر شهر حصاده ويحضر جميع الامراء وقواد
 الجيوش وروساء العسكر ومن العادة عندهم ان لا يعاقب احد
 من الامراء على جناية قبل هذا العيد فلذلك يحضره جميع الامراء
 امنين مطمئنين ولا يواخذ في ايام هذا العيد احد من الناس على
 ذنب فعله من سرقة او زنا او غير ذلك فترى فيه كل احد يعمل
 ما بدا له من كل ما تدعوه نفسه اليه من الشهوات والاغراض
 واللذات فاذا كان اليوم الخامس من شهر سبتمبر حضر جميع القبائل
 مع كبارهم واهل البلاد مع امرائهم في هيات متنوعة وهم يضربون
 الطبول والمزامير فيكون لهم موكب عظيم يمتد الى اخر النهار وفي

اشياء كالاوئان تخصصها لهم مشائخهم فيقدسونها ويعبدونها فمنها صور من خشب او قطع مركبة من مواد مختلفة خالية من التصوير فيثبتونها في داخل منازلهم وتقدم لها العائلات الذور في الاعياد والمواسم وكثير من الحيوانات عندهم يعتبر اعتبار المقدس كالضبع عند اهالي آكارا والصقر في جميع البلاد لانها لا يبقيان الرم التي تنشأ عنها العفونة وحدث الامراض حتى ان من يقتل ضبعاً يغرم غرامة عظيمة فان كان قاتله من الاوروبيين كلف بدفع صندوق وثوب من القماش يلف فيه رأس الضبع ويوضع في الصندوق ويدفن والتمساح ايضاً في جهات متعددة يعتبر اعتبار المقدسين حتى ان من الدراويش من يريه في بعض البرك ومتى اظهر راسه من الماء اعطوه من الذور ما ياكله ولذا تراهم اذا نادوه ظهر لهم ونظر اليهم وليس لاعياد المقدسين عند الاثباتي يوم معين وانما يتكون اشغالهم اياماً من بعض الاسابيع يلبسون فيها الابيض من الثياب ويحبنون شرب نبيذ النخل وبعضهم يمتنع في هذه الايام من اكل لحم الثور وذلك دأبهم في يوم مولدهم وهو اليوم الثاني من الاسبوع الذي يتكون فيه العمل وان كانت الاعياد مختلفة عندهم فعيد المقدس لعائلة الملك يوم الخميس وعيد مقدس الوزير يوم الجمعة ويوم السبت هو يوم مولد الملك يجلس فيه وفي يوم مقدسه على دكة صغيرة امام تحتته وفي هذه الايام يمتنع الناس عن اكل لحم الثور لانه مقدس عائلة الملك وكذا الحمام

بهم ويسألونهم عن كل ما سئخ لهم كالذين يفحون الكتاب او
 يضربون الودع او يقيسون الاثر ولهم براعة في التقاط اخبار الناس
 وتبصير احوالهم ويعرفون حيلاً كثيرة يعلمون بها كيف اخذت
 السرقة ومن سرقها وفي اي موضع هي ويعملون لبعض النساء تمائم
 لحب ازواجهن وعدم اطلاعهم على احوالهن واقفالهن ونحو ذلك
 ووظائف الطائفة الاولى وراثية يدخلون فيها بطريق الارث عن
 اسلافهم كما كان عليه كهنة المصريين في الازمان القديمة ولهم ان
 يتزوجوا انا ارادوا وكذلك اموالهم والثانية لا تنضب بعدد معين
 بل هي دائماً في الزيادة على حسب مس المقدسين لهم وتلبسهم بهم
 كحال من نراهم بمصر كالمصروعين الذين يقولون ان الجن متلبسون
 بهم وعندهم بعض نساء يعتقد فيهن المس ولهن معرفة بخواص
 النبات والاعشاب في مداواة الجراح والامراض ولهذا السبب يكون
 الاعتقاد فيهن اكثر ولا حرج عليهن عندهم انا زين قبل الزواج
 او بعده وهؤلاء الناس نذور ومرتبات ياخذونها ممن يعتقدهم
 يرمون نصفها في البحر ويقون لانفسهم النصف الاخر ونذر الملك
 في العادة يكون عشر اواق من الذهب واربعة من العبيد وكثيراً
 ما يهبون للمقدسين اولادهم وهم في بطون امهاتهم وكل عبد دخل
 محل المقدس بقي في خدمته فاذا اراد سيده اخذه دفع عوضاً عنه
 اوقيتين من ذهب واربع شياه من الضأن وفي بعض الجهات اذا
 دخل العبد معبد المقدس بقي عنده فلا يخرج ولكل عائلة منهم

اذا مات لهم امير او ملك ذبحوا على قبره جملة من العبيد والجواري
 ووضعوه معه في حفرته ليقوموا على زعمهم بخدمته ويعتقدون ان
 الرعية اذا ماتوا كانت ارواحهم في حدر وخود للاستراحة مما
 كابدوه في الدنيا ومن كان ذا فطنة منهم وتجربة اعتقدوا ان له
 خاصة الاطلاع على علم الغيب وانه الواسطة الى المقدسين وان
 هولاء المقدسين واسطتهم الى الله ينال بهم الناس ما يطلبونه من
 الله عز وجل وعندهم ان من كثرت ذنوبه او فرط فيما وجب عليه
 كان محروماً بعد موته من ثواب ما عمله من الطاعات والصلوات
 والدعوات محنوماً عليه ان يتيه في ظلمات الغابات وقد تحبب
 روحه الى بيته في بعض الاوقات ومن اوهاهم ان من قصر في
 اعمال المآتم لمن مات من اقاربه فلا تزال ارواحهم تؤذيه وتنقص
 عليه عيشه فلا يزال في عناء ونكد وبلاء وقد اتقسمت مشائخهم الى
 طائفتين

الاولى ملحقة عندهم بالمقدسين فلا يدخلون في امور الدنيا
 ولا يخلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقبضون في محال بعيدة عن
 البلد والعران ويقولون انهم يخاطبون المقدسين ويسالونهم عن
 كل شي ارادوا علمه فاذا اراد احد ان يعلم حال من مات من
 اقاربه ذهب الى احدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها
 عما يريد

والثانية تخلط بالناس في اوقات اجتماعهم وليالي افراحهم فيانسون

الأ بواسطة مقدسين او ملائكة ويقولون ان المولى لما اراد عمارة
 الدنيا خلق فيها ثلاثة رجال بيض وثلاثة سود وخلق لهم ازواجاً
 مثلهم ولعدم حصول النزاع بينهم في الدنيا خلق علبة مقفولة لا يرى
 ما فيها وورقة مخنومة وجعلها على الارض وامر الفريقين ان يخنار
 كل منها ايها اراد وقدم السود في الخيرة فقال اخناروا انتم اولاً
 فطمعوا في العلبة فاخناروها لزعمهم ان في باطنها كل شي ففتحوها
 فلم يجدوا فيها سوى قطعة من ذهب ومثلها من حديد وبعض قطع
 من معادن اخرى لا يعلمون فائدتها ولا خاصتها واخذ البيض
 الورقة فوجدوا فيها علم كل شي فجعل الله سبحانه السودان في
 البراري والقفار وبين غابات الاشجار وانزل البيض بسواحل
 البحر وصار يعلمهم كل ليلة ويلهمهم كيف يصنعون ما يلزم لهم حتى
 علمهم صنعة السفن فعملوها وركبوها وساروا بها في البحر مدة ثم
 رجعوا ببضائع من انواع متعددة وذهبوا بها الى السودان الذين
 كان لهم الخيرة اولاً فباعوها عليهم وجميعهم الى الان يعتقد ان ماوى
 المتدسين والملائكة المترين الغابات والانهر والجبال كما كان
 ذلك في مبدأ الزمان ولم في هولاء المقدسين اعتقاد كبير فمن
 ذلك اعتقادهم انهم اذا توسلوا بهم في امر ساعدوهم فيه واعظم مقدس
 عندهم الان نهر يقال له نهر (تاندو) ومن جملة اعتقادهم ان ملوكهم
 وامراءهم يكونون بعد موتهم مع المتدسين فيتمتعون عندهم بانواع
 الخيرات ويتلذذون باصناف المستلذات ولاعتقادهم ذلك تجدهم

يتعيش من زراعة الارض ومنهم من يتعيش منها معاً ويوجد في
المدن من لهم معرفة بصناعة الصباغة والحياكة ونسيج الحصر وعمل
اواني الفخار وفيهم من له معرفة بعمل السلاح

وعدد رجال العسكرية عندهم يقرب من مائة وخمسين ألفاً
واموال الحكومة ترد اليها من عدة جهات

الجهة الاولى ما يرد من غرامات المذنبين وتركات الاموات

الثانية ما يرد من تجار الرقيق عند بيعه بالسواحل وهو

مقدار من الذهب يؤخذ على ما يباع منه

الثالثة ما يرد من معدن البضائع صادرة او واردة

الرابعة ما يرد من صيادي الفيلة

الخامسة ما يرد من معدن الذهب بناحية (سوكو)

السادسة الذهب المجمع بالغسيل والتصفية على ما تقدم

السابعة ما يرد من كل من اراد بيع حلي الذهب والفضة

الثامنة ما يرد من الخراج المقرر على بعض الجهات فمنهم من

يدفعه ذهباً او فضة ومنهم من يدفعه عبيداً او بهائم ومنهم من يدفعه

ثياباً واما اعتقاداتهم ومذاهبهم في دياناتهم فمختلفة منها ما هو موافق

لما ذكره يعقوب ومنها ما يخالفه ومنهم طائفة تقول ان طمع من

تقدم من ابائهم كان سبياً في بعدهم عن حب الله لهم وعدم طمع

سلف البيض هو الذي كان سبياً في قريتهم منه وجهه لهم فلذلك

يقولون ان اكثر نعمه خاصة بهم وما يصل منها الى السود لا يكون

من راس كوري على بعد اربعة اميال منها
 الرابع طريق (خوابتي) وهو اخذ من الجنوب الشرقي الى
 الشمال الشرقي ويمر بعدة مدن وبلاد يتوصل منها الى (اكار)
 ومواطن الانكليز وغيرهم من الاوروبيين القاطنين بهذه النواحي
 وهذه الطرق الاربعة تسلكها اهل اثناتي عند الذهاب الى الساحل
 لشراء البارود والبنديق وجميع البضائع الاوروبية واما الاربعة
 الاخر فمبداها من التخت ثم تاخذ في اتجاهات مختلفة الى داخل ارض
 افريقيا وهذه الاربعة منها اثنان قديمان واثنان حديثان
 والملك الان مجتهد في فتحها لسهولة العبور منها بتسخير العبيد
 في قطع اشجارها ونقل احجارها وهناك طرق اخرى توصل من
 التخت الى ما جاوره من البلاد ومنها الى المدن الشامية والى بلاد
 الساحل ومواطن الاوروبيين ولكن في كل سنة يتلف كثير من
 هذه الطرق وتحمى اثارها بسبب الرياح والامطار وفيضان الانهر
 والخلجان والجمائر وقد يتعدى ذلك الى الطرق الكبيرة ايضا وهبئة
 الارض من جهة الساحل ترى كحصن من اشجار وخضرة وذلك
 في جهة الشرق والغرب واما من جهة الجنوب والشمال فهي بقاع
 مستوية في بعض جهاتها او غابات صغيرة والارض فيما حول نهر
 قولتا جبلية وفيها غابات قليلة ويوجد حول التخت مدن كبيرة
 كثيرة الاهالي بعضها على بعد يوم وبعضها على اكثر ومنها ما اهله
 قريب من ستين الفا ومنهم من يتعيش من الصيد ومنهم من

القبائل المنتشرة في جهات سواحل الذهب خاضعة لوامره قد
انضمت الى حكمه بعد حرب حصلت بينهم اخيراً فصار الجميع
مملكة واحدة تختها مدينة (كوماسي) فمنها بجهة الجنوب قبيلة
(دينكيرا) وجبال (طوفيل) وقبائل (وصاً) وامندا . وعوفين .
وتوزكا)

ومنها بجهة الشرق على شاطئ نهر (قولنا) قبائل (غوفان)
وبابوزو . وبناريوبتن . ودعجورا . وبودوي . وعكيا .
وعكواهو . وعكيم . واكوبيم . ودعكامبويه)
وفي الوسط قبائل (سوكو . وتليا . وكودنزا . وماسي .
وعاسين . وفانتي . وعهنتا) وكلها تحت حكم ملك (اشانتي)
وهذه المملكة على اتساعها منقسمة الى ثمانية طرق تمر من مدنها
الشهيرة كل طريق يسمى باسم الملك الذي انشئ في مدته او باسم
المديرية التي هو فيها او القبيلة المار بها

فالطريق الاول يسمى طريق (داعوفين) وهو الموصل الى
الساحل الغربي المجاور لمدينة (ايولونيا) وغيرها
الثاني يسمى طريق (وصاً) وعندها ينقسم الى فرعين احدهما
شرقي والاخر غربي الذي يتوصل به الى راس الثلاثة الشعوب
والى مواطن الاور وباويين بتلك الجهات

الثالث يسمى طريق غسيم وفانتي وينقسم عند بلدة صغيرة
هناك الى قسمين احدهما يتوصل به الى حصن الفلمنك وهو قريب

المسامرة السابعة والستون

مملكة اشانتي

قال الناقل ثم التفت الشيخ الى الانكليزي يرجوه في انجاز ما وعده به في الليل من ذكر عادة السودان في تقريب القربان من نوع الانسان فقال الانكليزي من جملة القبائل المتشرة في سواحل بلاد الذهب قبيلة يقال لها (اشانتي) مقيمة في ارض واسعة بعيدة الحدود يحدّها طولاً من المغرب الى المشرق اربع درجات وهو من (عامان) الى (ولنا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن راس (كورس) الى ولاية (غرفان)

وملك اشانتي هو الحاكم على جميع هذه الارض ومن فيها من غير معارض لامره ولا منازع له في حكمه وجميع حكام القبائل تحت امره ونهيه سواء من يدفع منهم الخراج ومن لا يدفعه فجميع

صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت
 فجاء ابوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على
 فخذي قد نام فقال حبست رسول الله وحبست الناس وليسوا
 على ماء وليس معهم ماء فعاتبني ابوبكر وقال ما شاء الله ان
 يقول فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء
 فانزل الله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة الى قوله
 فان لم تجدوا ماء فتميموا صعيدا طيبا فقال بعض الصحابة ما هي
 باول بركتكم يا آل ابي بكر فهذا سبب نزول هذه الآية



بكلية قائماً على قدم عبوديته فيشرح صدره ويستريح خاطره من
شواغل الدنيا وغوائلها مدة صلاته فيستنير قلبه ويقوى إيمانه
ويضعف عنده حب الشهوات والمفاسد والمعاصي خصوصاً بما
يتكرر على خاطره ويفعل في قلبه مما يتلوه في صلاته من الآيات
القرآنية وما يتبعها من الخواطر العلية والواردات الرحمانية التي
تتحق من قلبه سلطنة القسوة والرعونة والغباوة وتملاه ورعاً وتقوى
واقبالاً على الله وحناناً ورافةً بخلقه ورحمةً لم فهذا شأن الصلاة
الفاضلة والعبادة الكاملة التي تعود على الإنسان بالنفع في الآخرة
والراحة في الدنيا والتقرب إلى الله سبحانه قد سهل لنا بفضل
السبيل إليها حتى لا يحرم العبد منها في وقت من أوقاته وحال
من أحواله ولهذا رأيتني لما لم أجد ماء اتوضأ به تيممت وصليت
لقوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا

فقال برهان هل يعلم أيها الأستاذ لنزول هذه الآية سبب

يذكر

قال الشيخ روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها
قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره
حتى إذا كنا بالبيداء (في مكان بذي الحليفة) انقطع عقد لي فاقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه واقام الناس معه وليسوا
على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق (وهو
ابوها) فقالوا له ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله

المسامرة السادسة والسنون

الوضوء والتيمم

فقال الشيخ ان الله جلت حكمته لم يجعل علينا في الدين من حرج بل خفف عنا وسهل علينا ويسر لنا الطريق لعبادته وجعل لكل حال من الاحوال التي تعترض الانسان عملاً يناسبه فاذا عجز عن الصلاة قائماً صلى قاعداً وان عجز عنها قاعداً صلى مضطجماً وان عجز عنها مضطجماً صلى مستلقياً وان وجد الماء توضأ وان اعوزه الماء تيمم وصلى لكيلا يجرم في وقت من اوقاته من عبادة مولاه والتقرب الى رحمته والدخول في حضرته فان الانسان في كل صلاة من صلواته يخلو مع ربه عز وجل يناجيه بلسان الخشوع ويناديه بكمال التضرع والخضوع ويعرض فيها العبد الكامل في عبادته عن اشغال الدنيا واحوالها ووساوسها واعمالها ويخلي قلبه لربه مقبلاً عليه

يسيرة فكان الشرف في الامة العربية مضجلاً مغموراً في تضاعيف
ما لم من الخيرات الكثيرة والمآثر العلية الشهيرة
قال ناقل الحديث ثم لما طال بهم المجلس ومالت الى الراحة
الانفس سكت الشيخ وقال الانكليزي قد نقل السائحون في كتب
سياحاتهم ان اهل تلك الجهات التي حدث عنها يعقوب كثيراً
من احوال الجهل والتوحش والعادات الشنيعة والاخلاق
الفظيعة ومن اشنعها وافظعها عادة تقريب القرابين من الادميين
ولتجعلها حديثنا في الصباح ان شاء الله تعالى فقد طاب النوم
وهذا برهان قد داخله النعاس فان استحسن الاستاز قمنا لياخذ
كل منا راحته الى الصباح فقال الشيخ لا باس وقام فقاموا
وانصرف كل الى مضجعه فلما اصبح الصباح قاموا وتوجهوا الى
المحطة ونزلوا في احدى العربات وساروا وفي اثناء الطريق لم
يجد الشيخ ماء يتوضأ به فتيم صلى ما حضر من الصلاة وكذلك
فعل ابنه برهان الدين وكانت هذه اول مرة راي فيها يعقوب
التيم وإنما كان يراها يتوضآن فسأل الشيخ في ذلك



النبي صلى الله عليه وسلم امسك اربعاً وفارق سائرهن وكان
 للعرب عناية بامر العيافة والزجر والمراد بذلك الاستدلال على
 حوادث الخير والشرب باحوال يشاهدونها عند نية امر من الامور
 ولهم في ذلك مصادفات غريبة تكاد تجعل الباطل حقاً وقد اشتهر
 بعض القبائل بالمهارة في ذلك قال الشاعر
 خبير بنو لهب فلا تكُ ملغيا

مقالة لهبي اذا الطير ولت

فكانت هذه الاشياء في جاهلية العرب لعدم تفكيرهم في حقائق
 الاشياء وعللها وغاياتها ان لم يكن لهم مرشد الهى يخبرهم بفساد ما
 هم عليه من العقائد والاهوام والمذاهب التي نشأت فيهم بسبب
 الجهل والغفلة والتخيلات لكن العرب بمجودة طباعهم وكرم فطرتهم
 وحسن اخلاقهم كان فيهم عقلاء حلماة حكماء كثيرة استخرجت
 افكارهم اغلب الاداب الانسانية التي ينبغي ان يكون عليها النوع
 الذي شرفه الله بالعلم والنطق والالفة والاجتماع للتعاون في تحصيل
 المنافع التي خلقت له يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعثت
 لاتم مكارم الاخلاق وما اشتهر عنهم من الاشعار والمخطب والمقالات
 في فصل القضايا والخصومات واصلاح ذات البين ولا شاهد
 اصدق واعدل من النطق وحسن الابانة عن الاغراض والمعاني
 المعقولة يظهر ذلك في كلماتهم الوجيزة وامثالهم العزيزة وقد ورد
 الاسلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم اما باعيانها واما بتغييرات

وئيدة وكان الفرزدق يفتخر بذلك ويقول انا ابن محيي الموتى فاذا
 سئل عنه قال جدي احبي المؤودة والله سبحانه يقول ومن احيائها
 فكأنما احبي الناس جميعا واسلم صعصعة وسال النبي صلى الله عليه
 وسلم عن عمله فبشره بقبوله وان له ثوابه ولم يكن وأد البنات
 قديما في العرب ولا عاما لم وما كان عليه العرب ان الرجل اذا
 مات ورث امراته اكبر اولاده فتزوجها كرها وكان لهم في النكاح
 ونسبة الذرية طرق مختلفة اعظمها واشرفها ما عليه دين الاسلام
 من الخطبة وتقدير المهر وعقد التزويج في محفل من الناس والزفاف
 للشهرة واعتبار الكفاءة . الطريقة الثانية ان تتخذ المرأة بيتا ثم
 تتخذ عدداً من الرجال لا يتجاوزهم يكونون اخدانها عشرة فما
 دونها يشتركون فيها والانفاق عليها وربما اجتمعوا اليها يتحدثون
 ويتنادمون على الشراب فاذا جاءت بولد الحتمه بمن يوجد فيه
 شبهة ان كان ظاهراً والّا احضروا بعض القافه ليتامله ويلحقه بمن
 عرف شبهه به وعند ذلك يكون ابناً له . الطريقة الثالثة ان المرأة
 تتخذ بيتا وتصب عليه راية ولا تختص باحد بل يدخل عليها كل
 من اراد وهؤلاء البغايا فان جاءت بولد الحتمه بمن شاءت من
 المشهورين بالعهر وتيان البغايا فلا يقدر على الامتناع من ذلك
 واذا استلحقه رجل قبل ان تلحقه باحد كان ابنه
 وكانت العرب تتجوز من غير حصر فيجمع الرجل في عصمته
 عشر نساء واكثر واسلم غيلان بن سلمة وتحنه عشر نسوة فقال له

الحن وكان لم خرز يستجلبون باستعماله بعض الحوادث كالحب
 والبغض والمرض والبرء وغير ذلك في اشياء كثيرة من جنس
 هذه الخرافات يطول استقصاؤها وقد بقي كثير منها لتناقضها للنساء
 ومن يكون على طباعهن من العامة واهل التنبه منهم يسمون ذلك
 علم الركة نسبة للركة التي يغزل عليها النساء لانهن اذا جلسن
 للغزل ليلاً تفاوضن في هذه الاحاديث ومن اشنع ما كانت عليه
 جاهلية العرب وأد البنات وهو دفنهن حيات كان يحفر الرجل
 حفرة ثم يدي فيها البنت ويطم عليها بالتراب وذلك لاحد سببين
 خوف لحوق العار الذي يكون من جهة العرض وخوف كثرة
 الانفاق خشية الاملاق روي ان صعصعة جد الفرزدق الشاعر
 المشهور وكان ذا مال عظيم خرج يوماً على نجيب الى البادية في
 طلب ناقتين كريمتين ضلنا له فوجد في مسيره بيتا باباه شيخ فنزل
 اليه واستقبله ذلك الشيخ بالتحية والاكرام وجلس يتحدث معه ثم
 ساله عن الناقتين فاخبره بانها عنده ثم جاءت جارية فبشرته
 بوضع زوجته فقال انظري ان كان ذكراً شاركنا في مالنا وان
 كان انثى قتت فوادتها فقال له صعصعة او خيراً من ذلك
 افتديها منك فقال يتحدث العرب عنا اتنا نبيع الأولاد فقال له
 تلك فدية وهي ابنتك فقبل الاعرابي وجعل الفدية الناقتين
 والنجيب فرضي صعصعة بشرطة ان يعود على النجيب الى اهله ثم
 يبعثه واخذ بعد ذلك صعصعة في هذا العمل حتى فدى مائة

اعتقادهم ان من ولد في الليلة القمراء يخننه القمير وذلك انهم يجدونه
 قصير الغرلة ومنها تشاومهم بالعطاس كان الرجل اذا قصد قصداً
 فعطس في وجه انسان رجوع يرى انه لا يصيب خيراً قال الشاعر
 يدح من لم يعتبر ذلك

وخرق اذا وجهت فيه الحاجة

مضيت ولم يجسك عنه العواطس

وما اشتهر عن العرب احاديث الغيلان والسعالى وانها ام
 حية تسكن الفلوات والادوية ورؤس الجبال وانها ربما خالطت
 الناس وحصل بينهم تناكح وتناسل ويذكرون في ذلك احاديث
 كثيرة منها ان عمرو بن يربوع احد مشاهير العرب عثر بامرأة من
 ذلك الجنس فاحبته وتزوجها وولد منها وكانت قالت له اذا رايت
 البرق فاستره عني فاني متى نظرت طرت الى بلاد قومي وتركت
 اولادك فغفل عنها يوماً فمات برقا فطارت والى ذلك يشير ابو
 العلاء المعري حيث يقول

اذا لاح ايماض سترت وجوهها

كافي عمرو والمطبي سعالى

ولم في هذا الباب اشياء كثيرة كخوفهم اذا قتلوا ثعباناً او حية
 ان تقتص منهم الجن فياخذون روثه ويفتنونها على راس المقتول
 ويقولون روثه راث ناعرك بتحزرون بذلك وخوفهم من التعرض
 لبعض الحيوانات الصغار كالقنفاذ واليرابيع لزعيم انها مراكب

الشريف الذي قتل غدراً سبع مرات وطافت حوله عاشت
اولادها قال الشاعر
تظل مقاتل النساء يطأنه

يقلن الا يلقى على المرء مئزر

ومنها ان الصبي اذا نزع اسنانه او ان تبديلها رمى بها الى
الشمس وقال ياشمس ابديني بها احسن منها وذكرته الشعراء في
اشعارها من ذلك قول طرفة

بدلته الشمس من منبتها * بردا ابيض مصقول الاشر
ومنها اعتقادهم ان دماء الملوك والاشراف اذا شربها من عضه
الكلب برىء من داء الكلب قال الشاعر يمدح قومًا من الاشراف
احلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكلب
والكلاب تعثرها حالة هياجية كالجنون فلا تاكل ولا
تشرب فتصير ضئيلة هزيلة سريعة العدو جداً فاذا لقيت في
طريقها حيواناً انساناً او غيره عضته والغالب انه يموت المعضوض
ومن خرافاتهم انهم اذا خافوا على الشخص مس الجن واستهواهم
ايه نجسوه وعلقوا عليه شيئاً من الاقدار وعظام الموتى وخرق الحيف
قالوا ينفع التحجيس الا من العشق ومن مذاهيمه انه اذا طرف انسان
عين الاخر مسح عليها سبعا لذهاب الالم يقول في الاولى احدى
من سبع جاءت من المدينة وفي الثانية اثنتان من سبع جاءت من
المدينة وهكذا الى ان يقول سبع من سبع جن من المدينة ومنها

تعشيراً وانفق لعروة بن الورد الشجاع المشهور احد صعاليك
العرب المضروب بهم المثل في الشدة والجرأة انه خرج في رفقة الى
خير يمتارون فلما دنوا منها نهتوا على عاداتهم فانف عروة من
ذلك وقال

لعمرى لئن عشت من خيفة الردى

نهاق حمير انبي لمزروع

فلا وألت تلك النفوس ولا اتوا

قفولاً الى الاوطان وهي جميع

وقالوا الا انهق لا تضرك خير

وذلك من فعل اليهود ولوع

فتصادف ان عروة رجع لاهله سالماً غانماً لم تشكه شائكة

وجميع من كان معه وعشروا كانوا بين موتى ومرضى ومنها ان

الرجل اذا كان مسافراً فاخطا الطريق قلب ثيابه وصفق بيديه

وحركها كانه يومئ الى انسان يرى انه يهتدي بذلك الى الطريق

قال اعرابي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي

وترمي برحلي نحو كل سبيل

فلا يابلاي ما عرفت جليتي

وايبرت قصداً لم يصب بدليل

ومنها اعتقادهم ان المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد اذا تحظت

عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان باخائها ويغسلون الوجوه
ببولها ويجعلونها مهور نسائم ويتبركون بها في جميع احوالهم فلعل
اوائل العرب حذوا هذا الخذو واتهجوا هذا المسلك

وكان البقر عند قدماء المصريين ايضاً على نحو من هذه
المثابة ومن عادات جاهلية العرب ان الانسان اذا لدغه لادغ
علقوا عليه حلياً وكانوا يعتقدون انه اذا علق عليه حلي الذهب
برىء وانا علق عليه حلي الرصاص مات وكانت طائفة اخرى
منهم تعتقد ان تعليق الحلي على اللديغ لاجل ان يسهر ولا ينام
بسبب قعقعته وكانوا يرون انه اذا نام سرى فيه السم فمات وانا
لم ينم سلم وقيل لبعض العرب ا يكون تعليق الحلي سبباً للسهر
فقال لا ولكنها سنة توارثناها عن اوائلنا ومن خيالهم ان الرجل
اذا بلغت ابله الفأ فقأ عين الفحل كانه يحترز بذلك من اصابة
العين لما له قال شاعرهم في الافتخار بالغناء والتعبير بالقمر مكنياً
بذلك

فقأنا عيوناً من فحول بهازر

واتم برعي الهم اولى واجدر

والبهازر الجمال العظام والهم الغنم الصغار

ومن خرافاتهم انهم اذا ارادوا ان يدخلوا قرية لطلب الميرة
وخافوا وخامتها واصابة وبائها وقفوا خارجها ونهقوا نهيق الحمير
وعلق كل منهم كعب ارنب عوزة وتميمة ويسمون هذا النهيق

ومنها انهم اذا اجذبوا بسبب انجاس المطر عنهم وارادوا
 طلب السقيا من الله جمعوا حزمًا من النباتات التي يبست كالسليح
 والعشور وربطوها باذنان البقر واوقدوا فيها النار واصعدوها في
 الجبال وفرقوا بينها وبين اولادها حتى يكون ضحيج عظيم ومناظر
 هائلة يستجلبون بذلك رحمة الله واستمر ذلك فيهم الى ان تنبه
 كثير اتبع تلك العادة وسماجة ذلك التوسل وكثرت الاشعار فيه
 فمنها قول بعضهم

شفعنا بيقور الى هاطل الحيا

فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا

فعدنا الى رب الحيا فاجارنا

وصير جذب الارض من عنده خصبا

ومنها قول شاعر اخر

لا تدرى رجال خاب سعيهم

يستطرون لدى الاعسار بالعشر

اجاعل انت يقورا مسلعة

وزيعة لك بين الله والمطر

قال عبد الحميد بن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عند

ذكر بعض المذاهب التي كانت عليها العرب قال بعض الاذكياء

كل امة قد اتخذوا في مذاهبها مذاهب ملة اخرى وقد كانت المند

تزعّم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الارض وان لها

ومنها انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الشرب
يزعمون ان الجن تركبه فتصد البقر عن شرب الماء

ومنها الهامة كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يوخذ
بثاره يخرج من راسه طائر يسمى الهامة فلا يزال يصيح على قبره
استقوني استقوني الى ان يوخذ بثاره

وكان لهم في النفس مذاهب فمنهم من زعم انها الدم وان الروح
هو الهواء الذي في باطن جسم الانسان

ومنهم من زعم ان النفس طائر ينشط من جسم الانسان اذا
مات او قتل ولا يزال يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك
يقول شاعرهم

سلط الموت والمنون عليهم * فلم في صدى المقابر هام
وقال ان هذا الطائر يكبر حتى يكون كاللبوم واكثر ما يوجد
في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى حتى قالوا ان الهامة
لا تزال عند وند الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبّر الميت
ومنها الصفر يزعمون ان الانسان اذا جاع عض شرسوفه
الصفر وهو حية تكون في البطن

ومنها ثنية الضربة يزعمون ان الحية تموت لاول ضربة فاذا
ثبتت الضربة عاشت ونحو ذلك من الاوهام الفاسدة والاراء
الكاسدة فلما جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام هجر
العمل بذلك كله وبطل القول به من اصله

المسامرة الخامسة والستون

العرب الجاهلية

فقال الشيخ منشأ هذه العادات القبيحة وامثالها إنما يكون من
الجهالة فلا يزيلها إلا حسن التعليم وانتشار المعارف بين الأمة وقد
كان لامة العرب في الجاهلية كثير من امثال هذه العادات والاهوام
فزالت بما اتشرب بينهم من شريعة الاسلام ببعثة محمد عليه الصلاة
والسلام

فمن عادات العرب في الجاهلية انهم كانوا اذا مات واحد منهم
عقلوا ناقته عند قبره وشدوا عينها حتى تموت يزعمون انه اذا بعث
من قبره ركبها

ومنها انهم كانوا اذا اصاب ناقه احد هم داء العر كوى الناقة
السليمة يظنون ان ذلك يبري المعيبة

تجتمع حوله اقاربه واحبابه ومن يلود به ومعهم التسي والنبال
والات الحرب والقتال ويهبتون صورة محاربة تستمر مدة طويلة ثم
انهم يولونه ظهورهم ويحنون على ركبهم ويذكرون كلاماً معناه انهم
مستعدون لقتال من يطعن في ميتهم او يتفوه في حقه بما لا يليق
به فان كان الميت قتيلاً اعلنوا بانهم مستعدون لاختاره وبعد
ذلك يقومون وياخذون من عبيده بقدر ما يناسب مقامه فيطعمونهم
من احسن ما عندهم ويوضونهم بالقيام بخدمة سيدهم ثم يذبحونهم
ويدفنونهم معه في قبر واحد ويدفنون معهم ما كان لهم في الدنيا
من الفرش والاوزان والثياب وجميع ما كانوا يستعملونه في حياتهم ثم
يضعون عليهم حصيراً ويردون التراب عليها وبعد ذلك يصنعون
على القبر عشة يدقون في احدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون
بها بعض سلاح الميت ان كان ذكراً فان كان انثى وضعوا معها
جميع ثيابها وما كانت تحبه في حياتها وبعد دفن الميت ياتون
بطعام وشراب فيضعونه على قبره ظناً منهم ان ذلك تغذى به
روح الميت ويكررون ذلك حيناً بعد حين الى تمام ستة اشهر من
دفنه

ثم قال يعقوب ولم كثير من امثال هذه العادات الفظيعة
يطول تعدادها

وحسن الحال والغلبة على الامثال والتوسعة في الرزق والمال وان يكون خلفاً ساعياً مساعياً ابيه محباً للخير مانعاً عن نفسه الضيم والظير معيراً لداره مدوحاً في اثاره وان تكون نفسه عفيفة وهمته عالية شريفة ونحو ذلك مما يناسب المقام ثم يسميه ويعطيه لامة او ابيه وينصرف الحاضرون بعد ذلك وان كان المولود انثى عمل لها ايضاً مثل ذلك ولكن يضعها الخطيب على حصير بدل الترس الذي يوضع فيه الولد ويعطيها عصا بدل النشاب ويدعو لها بان تكون حافظة لعرضها امينة على متاع زوجها ماهرة في طبخها وخبزها مقدمة عند زوجها على باقي نساءه معينة له في اشغاله واعماله ونحو ذلك

ومن عادات الكوجاش ان الرجل اذا مات ورثه اولاده الذكور في جميع مختلفاته من نساء ومال فان مات الرجل ولا ذرية له من الذكور كان الوارث له اكبر اخوته فان خشي الفقر على بقية اولاده اعطى لهم في حياته بعض ماله كل على حسبه فان مات ولا وارث له من اولاده واخوته الذكور وله ذرية من البنات كان ميراثه لأكبر اولاد اخيه من الذكور فان مات ولا وارث له من ذكر كان الوارث الحاكم فيمتدّ يلزمه تربية بنات الميت وفي جنازتهم ودفنهم لموتاهم وتجهيزهم لم عادة فظيعة يحافظون عليها ولا يتحولون عنها ذلك انهم بعد ان يغسلوا ميتهم يلبسونه احسن ثيابه وسلاحه ويسندونه الى شي حتى يستوي قائماً على قدميه ثم

المسكروحب النساء فيصرفون في ذلك معظم اوقاتهم ولو ترتب عليه نقص في اوقاتهم

ومن العادات الجارية في بعض الجهات ان الزوج قبل اجتماعه بزوجته يبعث اليها بثلاث هدايا واحدة فواحدة الاولى من خرز مصنوع من زجاج ونحوه والثانية من جنس ما يلبس والثالثة صندوق تضع فيه امتعتها وكذلك اهل الزوجة يهدون الى الزوج عبيدين فاكثر على حسب الثروة واليسار وكذلك يرسلون له كسوة تليق به وسيفاً بمجائله وبعض سهام وشيئاً من ارز ونحوه وطريقتهم في تربية اولادهم ان تربية الذكور على الاباء والامهات على الامهات ولا مزية للبكر عندهم على غيرها في الزواج واذا حملت المرأة وعلم بها الزوج لا يقربها حتى تلد ويصنع للمولود ما سنذكره وهو انه اذا كان المولود ذكراً جمع ابوه عائلته وخدمه بعد مضي يومين من ولادته واخذوا نبالمهم وقسمهم ورامحهم وعصيمهم ودارهم في البلد مظهرين الفرح والطرب مكثرين من الغناء والرقص والطلب والزمر فيجمع عليه احابه واصحابه ومعهم الات الطرب من الطبول والمزامير والنقالات وغيرها فيجتمعون في ميدان واسع وعند ذلك يخرج رجل من بينهم كالخطيب فياخذ الولد من امه ويضعه على ترس بين الحاضرين ويضع في يده قوساً او نشاباً او نحو ذلك ثم يخطب خطبتين يذكر في الاولى سبب اجتماعهم ثم يلتفت نحو المولود مخاطباً له بالخطبة الثانية ويدعوه بطول العمر

يعدن لما كنّ عليه وكان بينهن جماعة منهن يندبن الميت ويذكرن
 فضائله فاستمر الحال على ذلك نحو ساعتين وإذا بعبدین قوبین
 حضرا فاحتملا الميت وربطاه على خشبات من فروع الشجر وطافا
 به نواحي القرية مع الهرولة والسرعة في بكاء ونحيب وحركات
 متنوعة واصوات مفزعة غطت على كل صوت في البلد حتى صار
 لا يسمع غيرها ثم انصرفوا به ليدفنوه فلما وصلوا الى المقابر وضعوه
 على الارض وارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء ثم
 بين فقيهم موضع التربة فاحفروها واسعة على قدر اثنين ثم اتى
 بعنز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم اعطاهم امعاءها واطرافها فطبخوها
 واكل منها مع بعض من حضروا واعطى الحظية شيئا منها واما
 ما بقي من اللحم فقطعه قطعاً صغيرة وفرق منه بيده على جميع
 الحاضرين واتى منه بقية والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا
 ينقطع فلما اكلوا قام ذلك القتيه الى تلك الحظية وقبض على يدها
 وسلمها الى اثنين من العبيد فاوثقوا يديها وجعلوها خلفها وطرحوها
 على الارض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها
 وصار كل منهم يتكىء على الاخر حتى تمشمت عظامها ثم رموا بها
 في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم اتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه
 بجانبها ثم اهلوا التراب عليها وعند ذلك اتقطع البكاء والنحيب
 وتوجه كل منهم الى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء
 وكل سكان هذه البقاع من غير استثناء مغرمون بشرب

مع زوجها لومات في حياتها

قال وقد حضرت جنازة لرجل مات في قرية من القرى وكان شيخ القرية فلما مات ارتفع الصباح من جميع من في البيت من النساء فاجتمع اليهن نساء البلد ورفعن اصواتهن مثلن فكان جزع الحظية من بينهن اعظم وصوتها اعلى من اصوات جميع من في المآتم فكان بالضرورة بكاءؤها في ذلك الوقت على نفسها لاعلى بعلمها لعلمها انها هي التي ستدفن معه وكان باقي النساء وقتئذ مع بكائهن وصياحهن مجتمعات حولها ينظرن اليها من طرف خفي حذراً من فرارها وقد اتفق ان بعض الحظايا في مثل هذه الحال هربت وتخلصت من الدفن مع زوجها فكان محذقات بها لكيلا تتمكن من الهرب وهن مع ذلك يظهرن الاسف على فقدها والتوجع لمصابها ثم ان اقارب الميت حضروا فعزوها في بعلمها وودعوها وداع الموتى وبعد ذلك اتى رجل في هيئة فقيه ومعه بعض اتباعه فوضع يده على الميت كما يفعل الحكيم وقال ان موته طبيعي لا سبب له سوى انتضاء اجله ثم غسله ودهن جسمه بدهن معروف لم يدهنون به موتاهم ثم انه بعد ان دهنه من راسه الى قدمه حوله من مكانه الى حصير مفروش في وسط المنزل والناس حوله ينظرون اليه وحضر النساء فاحطن به وكانت الحظية عند راسه وجميع النساء ناشرات شعورهن بنخن ويصحن ويضربن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وكن في بعض الاحيان يسكتن ثم

عندهم مزيد اجلال وتكريم

ومن الغريب انهم اذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة او بعدها فانها تدفن ومن اوهاهم ان روح الولد الذي يموت تنتقل الى جنة اخيه الذي تلده بعده امه فاذا لم يميت المولود وبلغ او ان الحلم اجتمعوا وعملوا له فرحاً ومهرجائاً فان كان الولد ذكراً اظهر للناس ما عنده من القوة والشجاعة وان كانت انثى تنزين وتجمل وتلبس احسن ما عندها ثم تقوم وترقص بينهم وتبدي زينتها وجمالها وبراعتها في الرقص

وهناك قوم على ساحل نهر السيستوس على بعد اربعين فرسخاً من راس (ميزورادوا)

ومن عاداتهم انهم اذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما اخبر بذلك احد السائحين قال في اثناء عبارة له ان تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممنوع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر ان كانت المخطوبة حرة او القيمة ان كانت امة فتمت اتفقوا على ذلك اخذ الزوج زوجته وذهب بها الى نساءه فتخلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعاً بتهيئة الوليمة وبعد الدخول بها اول ليلة تكون مع سائر نساءه في خدمة المنزل ومن عاداتهم ان من تلد من الزوجات اولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل الا ان هذا التقدم لا يثمر لها الا التندم لانها هي التي تدفن

الزواج تصير الزوجة في ملك الزوج وتصرفه فله بيعها اذا اراد
وتاديبها اذا اساءت وقتلها اذا زنت وللزوج في (اكارا) على من
زنى بزوجه عبد واحد وفي غيرها من الجهات عبدان الى سبعة
فاكثر وفي بعض الجهات اربعة ريات وفي بعضها اثنا عشر وفي
بعضها لا حد لذلك بل المدار على ما تطيب به نفس الزوج فان
كان الزاني معسراً فللزواج بيعه واخذ ثمنه هذا كله اذا لم تشتهر
الزوجة بالزنا فان اشتهرت به وعلم بها زوجها فلا وجه له على
الزاني ولا لوم عندهم على مصاحبة الذكور للاناث غير المحظايا ومن
عادات اهل (اكارا) ان بنت الغني منهم اذا ارادت ان تتزوج
بحيث تبقى على حريتها ولا تكون في اسر الزوج فعلت ما يقال
له زواج المحائط وذلك ان تجري الافراح وسائر رسوم الزواج كأنها
طلبت للزواج بالفعل ومن ذلك الوقت يكون لها ان تعاشر من
تشا وتستبدله بغيره في اي وقت تريد وتتكفل بتربية ما يكون لها
من الاولاد وهذا كثيراً ما يحصل في جهات (اكارا) وهناك
عادة اخرى في غيرها وهي ان تجتمع الشواب والشبان بشاطيء
البحر وينزعون ثيابهم وينزلون في البحر مختلطين مع بعضهم فمن اعجبه
صاحبه خطبه

وعندهم لا يمتنع تزويج الذكر باي انثى الا اذا كانت اخنا
الا انهم يحقرون المرأة العاقر ويحترمون الولود خصوصاً اذا كانت
تلد ذكوراً ومن كثرت اولادها يعمل لها زفاف عظيم ويكون لها

اهل الميت انهم سمعوه وهو يتكلم معها فغلب الوهم عليها فاشند مرضها حتى ماتت

ومشائهم يوافقونهم على ذلك ويصدقونه ويقولون لهم ان الشيطان والملائكة تظهر بين العالم في صورة الادميين او البهائم او غير ذلك ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرك والانهار والجبال والصخور والغابات والاشجار وبيوت النمل وبعض الاحجار المنفردة عن غيرها وما اشبه ذلك ويحترمونها احتراماً عظيماً كاحترام غيرهم من الامم لمقامات الاولياء والصالحين ويعمل لهم مشائهم تماًم وتعويزات على اشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الامراض والعايات وتاخذ منهم في مقابلتها جعلاً عظيماً وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر اهلها للشمس مطلقاً ولا يمشون الا بالليل ومنهم من يعيش طول عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها واهل تلك الارض لا يفرقون بين دين واخر وكل الاديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقدتهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم ولم طرق لا يسلكها الا اولياءهم يميزونها باوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها على جانبي الطريق فاذا راوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقاً بعيداً عنه

واما العادة في الزواج عندهم فمختلفة باختلاف الجهات ففي جهة (اكارا) تخطب البنت من ابها وامها فاذا اتفق الزوج معها زفت الى زوجها من غير نظر الى رضاها وعدمه ومن حين

دون غيرهم فيستبيحون اسر الاغراب وقتلهم وبيعهم واخذ ما لهم
 ويقولون ان كل ما يليقه البحر بالساحل حق لهم لا يشاركم فيه
 غيرهم وانه مرسل منه اليهم فلذلك تراهم يخصونه بنوع عبادة واهل
 هذه الجهات يقدرّون الزمن بتغير القمر ويعدون السنين بتجدد
 الفصول ولا يحفظون التواريخ وكلمهم يجهلون مقدار ما مضى من
 اعمارهم وانما يحفظون بعض الحوادث العظيمة ويتحدثون فيها فاذا
 ذكروا امرا وارادوا ان يعينوا له وقتاً ارخوه بمجاذثة منها فيقولون
 كان كذا عام حادثة كذا وفي طبعهم الميل الى التغيي سواء كانوا
 في حالة سرور او حزن ولا اعتقادهم ان السعادة المعتبرة انما تكون
 في الاخرة تراهم لا يجزعون من الموت ولا يخافون وانما يخافون من
 المرض والالم فان عرض لهم مرض تخلصوا منه بقتلهم لانفسهم ويعدون
 من فعل ذلك بنفسه من اشرافهم والمعتبرين فيما بينهم وربما افردوه
 وحده بقبر مخصوص يضعون معه ما كل كثيرة مما كان يحبه في
 دار الدنيا لا اعتقادهم انه لم يستوفِ زاده منها ومن عاداتهم اذا امر
 احد اعيانهم عبدا من الاهلين بامر خطر قال له العبد افعل
 وعليك الضمان يعني بذلك انه ان مات كان على الامر ان يعطي
 اهله دينه وهي ثمن عبد يدفعه لهم وجميع هذه الامة تقول بان ارواح
 الاموات تتشكل في صور مختلفة وتظهر للاحياء اما لتخويفهم او
 لموانستهم وقد بلغني ان رجلاً اوروبياً كان له جارية مات فادعت
 انها رأتة بعد موته يعنفها ويلومها فمضت من شدة خوفها وادعى

وتعالى ويعتقدون ان جميع افعاله انما تكون بواسطة الملائكة
ويقولون ان الله سبحانه وتعالى وملائكته يظهرون لهم في الرعد
والبرق والصواعق لتخويفهم ويقولون بان الشيطان من الملائكة
وانه اقوام ويتضرعون للتمر ببعض ادعية يتوجهون بها اليه وان
كانوا لا يقولون بعبادة الكواكب وفي الليلة الرابعة عشرة من كل
شهر يكثرون الشرب والرقص وضرب الطبول

ويعترفون بالاخرة ولكن لا يعرفون الجنة ولا النار وانما
يزعمون ان جميع مستلذات الانسان في الدنيا تكون له في الاخرة
فاهل الشجاعة والثروة واليسار في الدنيا هم عندهم اهل النعيم في
الاخرة اما العبيد فلا سعادة لهم الا اذا التحقوا بسادتهم للتعلم في
نعيمهم ولهذا الاعتقاد يدفنون مع اغنيائهم نفائس اموالهم من ذهب
وقماش ونحو ذلك ويعتقدون ان الميت يهدي بعض ما يدفن
معه الى عجوز موكلة بنهر لا بد لكل احد ان يعبره بعد الموت ومن
عادتهم انهم لا يدفنون ميتهم الا بعد اربعة عشر ساعة من موته
يساله فيها اقاربه واحبابه واحدا بعد واحد عن سبب موته
وفراقه لاهله ونحو ذلك فاذا ادلوه في حفرته اجتمع احبابه واقاربه
والقوا عليه التراب لاعتقادهم انهم ان لم يفعلوا به ذلك رجع الميت
الى اهله وآذاهم ومن عادتهم ايضاً انهم يدفنون في بيوتهم من يعز
عليهم فراقه ويضعون بجانبه وعلى قبره بعض ماكولات ومن قبيح
معتقداتهم انهم لا يجب عليهم العدل والانصاف الا لابناء جنسهم

المسامرة الرابعة والستون
السودان بافريقيا

فقال يعقوب جميع طائفة السودان بتلك الاقطار في جهل
عظيم لا علم لهم بشيء ولا وقوف لهم على حقيقة وانما عندهم بعض
عادات وعقائد فاسدة اخذوها عن سبهم خلفاً عن سلف ولم
شغف بكل ما يجدونه من عادات بلادهم كل على حسب بقعته
التي ولد بها طبيعة نشأوا عليها فهم متمسكون بها لا يتحولون عنها
ومن هذا القبيل ما يدعونه من السحر فهو عبارة عن اوهام كاذبة
يدعيها اشخاص معروفون بها عندهم يدخلونها على عقول العامة
وغيرهم بما يوهون به من اقوال واهية وحكايات مخترعة تسير بين
الناس بما ينضم اليها من المبالغات والتهويلات فتزيد بذلك
شهرتهم وثروتهم واهل جهات اكرا يقولون بوجود الخالق سبحانه

يقع على الارض ميتا ويقولون ان مع كل فتيل ملكا فيخافون لو
 نظروا له ان يجذبهم فيموتوا مثله ولهذا متى اطلق احد منهم بندقيته
 انكب على الارض او ادبر او اخفى بمعنى انهم لا يستقرون على
 حالتهم التي كانوا عليها وقت الضرب

فقال الشيخ كثيرا ما كنت اسمع وانا بمصر من ياتي بالرفيق
 ومن سبق لم الإقامة بذلك القطر انه يوجد بتلك النواحي كثير
 من الناس يشتغلون بالسحر وما ذكرته من استصحابهم لتلك الصور
 في حربهم يدل على اشتغالهم بهذا الامر

في طريقهم من الاعشاب والبقول وما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية وما ينهبونه من البلاد التي يبرون بها ولا يستحبون في سفرهم خياماً بل لا وجود لها عندهم فاذا اضطرتهم كثرة الامطار الى الاستتار صنعوا لهم زراعي من اغصان الاشجار وقد يكون لبعض امرائهم شمسيات تسع الواحدة نحو عشرين نفساً وقد يقع في بعض جهات السواحل مناوشات بحرية لاجل استيلاء بعضهم على ما في مراكب البعض او لامور اخرى ولمهارتهم وتمرهم على السباحة في البحر تكون محاربتهم فيه من اعجب ما يرى ومن عاداتهم ان الفرقة الغالبة تعامل المغلوبين بانواع من التعذيب لا تقتصر فيها على فعلها بالاحياء بل تفعله ايضاً برم القتلى كأن ياخذ القاتل فك المقتول معتقداً ان في ذلك طول عذابه او يقطعها قطعاً يرمي بها الى الوحوش وربما يضربون الطبول على رمة المقتول يزعمون ان في ذلك ازعاجه وسلب راحته ومن عاداتهم عند الخروج الى الحرب ان ياخذ كل واحد منهم قطعة ذهب او صورة وجه انسان او وجه حيوان او زبل حيوان يشابه الخنزير يرون ان استحباب ذلك معهم ناصر لهم على اعدائهم وليس لهم في الحرب قانون متظم بل حربهم مع بعضهم هجوم وحملات وقتية تنقضي في زمن يسير وازا اطلقوا بنادقهم اخفى كل منهم خلف اي شي يصادفه حتى يعم بندقيته ويعود ثانياً والهجوم دفعة واحدة نادر بينهم جداً ومن عاداتهم وقت الحرب ان لا ينظروا لقتيلهم حين

بجملها ورجلها بعد جمع حاصلات الزراعة وتسير خفية الى ان تحل
بساحة القبيلة التي تريد غزوها فتحمل عليها ليلاً علي حين غفلة
حملة واحدة فاذا انهزمت اخذت القبيلة الغالبة ما قدرت عليه
سواء كان رجالا او نساء كبارا او اطفالا لا يميزون بين شريف
ووضيع وكبير ورضيع ومن حينئذ يصير الغالب سيدا والمغلوب
عبدا ولم يكن لهم في ذلك قانون يبيع الا مجرد الشهوة والطمع ومن
وقع في يده واحد منهم فهو مخير فيه بين ان يقيه لخدمته وبين
ان يبيعه فمن ظهر عليه علامات الامتثال والاقتياد ابقاه ومن توسم
فيه علامات النفور والضجر من الخدمة باعه في بلاد بعيدة ومن
هنا يعلم ان اقوى الاسباب لاتساع دائرة الاسترقاق انما هو الحرب
وان كان له اسباب اخرى كالتحط والجوع وحلول المصائب
والجنايات وحب التسلط على بلاد الغير والاستيلاء عليها

وغالب اسلحتهم على الهبة القديمة كالقوس والنشاب والنبال
والحرب واما الاسلحة النارية فلا توجد فيهم الا عند سكان
السواحل المختلطين بتجار الاوروبيين وعندهم شي كالبلطة يخرجون
به عند ارادة الحرب يعتقدون انه حرز لهم فيحتمونه ولا يملفون
به كذبا وعادتهم عند الحرب ان يتستروا بجلود بعض حيوانات
كالتمور والسباع ونحوها او بجلود زرقاء او بيضاء

وذخيرتهم اذا ارادوا السفر للحرب او غيره قليل من الدقيق
ياخذونه معهم وتارة لا ياخذون شيئا ويعتمدون على ما يجذونه

الأوروبيين وغيرهم من القسوة والجفاء ما يضرب به المثل فتراهم اذا
 مرض رقيق لم مرضاً اوجب عدم بيعه او تقدم في السن لا ينتظرونه
 حتى يقضي الله عليه بل يقتلونه فان وقعت في يدهم جارية ذات
 اولاد رموا باولادها الى الوحوش تتخلى الام من الرضاع ويبيعوها
 واسباب الاسترقاق عندهم في العادة هي الحرب والتحط وسداد
 الدين والجنايات ومن عاداتهم ان الرجل الحر ان اسر في الحرب
 صار رقيقاً وهناك نوعان من الحرب عند الافريقيين الاول يكون
 بعد الاعلان من الطرفين قبل الخروج وربما كان من غير سبب
 موجب له ومن اول وقعة ينتمي بينهم النزاع والغالب منها يضبط
 ما قدر عليه من المغلوبين ويبيعه فان كان في الاسرى ضعيف
 او مريض او ذو عيب قتلوه في الحال حتى لا يتحملوا موته
 وكذلك يفعلون بالروساء ومن كان سبياً في هيجان الفتنة ومن
 يخشى باسهم وفي مثل هذه الوقعات لا يكون عدد القتلى كثيراً
 لانه متى علم احد الفريقين انه مغلوب اتقاد لقرينه او فرمنه ولهذا
 ترى البلد التي تخرب بمثل هذه الوقعة وان انهدمت بيوتها عن
 قريب تعمر وتعود الى احسن ما كانت عليه من اول الامر وايضاً
 فان غاية امنية الغالب الاستحواذ على جملة من الاسرى لاجل
 بيعها واخذ ثمنها فلا حاجة له في طول زمن الحرب وكثرة القتلى
 النوع الثاني يكون خفية لاسباب واهية تقع بين القبائل كشتاق
 ومنازعة في شي من الاشياء ربما كان واهياً فنجتمع القبيلة العادية

فقال يعقوب هذا هو الانصاف والمحق وقد قدر السائحون
في ارض افريقية مقدار من يوجد بها من الارقا على وجه التقريب
فوجد ان الاحرار على قدر الثلث من الارقا وليست معاملة جميع
الارقا على حد واحد فان معاملة السيد للعبد المولود عنده الطف
وارفق من معاملته للعبد المشتري بالثمن واذا اراد السيد بيعه لزمه
المرافعة معه على يد قاضي الجهة ليثبت جنايته ثم يبيعه ويباح للسيد
في زمن القحط بيع عبد وجملة من عبيده لمشتري لوازم مؤتمته وان
كان مديوناً ولم يكن في امكانه دفع الدين تؤخذ عبيده في دينه
والاحرار على العبيد في الحرب مزية وهي ان الاحرار تكون اكثر
سلاحاً واحسن خيلاً فيتأذى لهم بذلك اغتنام الفرصة في حالتي
النجاح والهزيمة بخلاف العبيد فانهم في الغالب مكلفون بحمل
الذخيرة ولم يكن لهم سلاح غير الحربة والنشاب ولهذا تجدهم يقعون
في قبضة الغالب مع السهولة بحيث لو نسبنا من يضبط من الاحرار
في الحرب الى من يضبط من العبيد لكان كسبة واحد الى خمسة
عشر واذا ضبط احد الاحرار افتدته اصحابه او عائلته بخلاف العبد
فلا مخلص له وتجار الرقيق تفضل من تربى في الرق على غيره
وترجمه عليه في الثمن بخلاف من كان حراً وطراً عليه الرق في
عهد قريب لان الاول اعتاد المشقة والتعب والصبر على الجوع
والعطش بخلاف الثاني فانه كان في رفاهية بالنسبة للاول فلا
قدرة له على السفر الطويل في الجبال والادوية ولتجار الرقيق من

عن التميزات الانسانية ألا ترى ان من تعقل منهم وظهرت عليه
 آثار النجابة كيف بلغ به نصيبه من ذلك الدرجة التي يستحقها .
 هذا الشاعر المشهور بعبد بني الحساس رفعه علمه وشعره حتى
 قيل فيه

اشعار عبد بني الحساس قن له

يوم الفخار مقام الاصل والنسب

وهذا نصيب احد شعراء بني امية قد بلغ بعلمه وشعره درجة
 عظيمة يحكى انه دخل مصر في رحلة من رحله وهو على هيئة جميلة
 وشارة عليّة في ملابسه وركابه واتباعه فاطاف به السودان فرحين
 مسرورين برويته فقال اسررتكم قالوا نعم فقال ما يسوءكم من اهل
 جلدتكم اكثر وهذا الامتاز كافور الاخشيدي تولى نيابة ملك
 مصر وكان في التدبير والرزانة وعمل الخير غاية . يحكى انه طرب
 يوماً من السماع فحرك كتفه واستشعر النقص في ذلك فاتخذ تحريك
 كتفه عادة يعاودها الوقت بعد الوقت من ذلك الحين الى ان
 مات يوم من يراه ان ذلك لعلة اصابته وكان في ليلة العيد يخرج
 بعد المغرب ويجلس على سلم الركوب ويبعث الناس بالعطايا الى
 منازل عرف احتياج اهلها بالبحث والتفتيش السري ويستقبل
 الاوراق التي يكتب فيها الوصول ويبقى كذلك حتى يركب الى
 صلاة العيد ويجمع ذلك يبين ان خروج الشيء عن الحسن
 سبه مجاوزة الحد الذي له

اخلاط الناس بعضهم ببعض واشتراكم في تحصيل المنافع وانطلاق
 افكارهم في ذلك فسبب الاسترقاق حرب المعاندين الذين همهم
 الافساد ودأبهم العناد وليس مخصوصاً بامة دون امة بل متى
 استخفت امة من الامم المحاربة والضرب حتى ترجع الى حد الاعتدال
 كان كل من اسر منهم في الرق وكانت ذريتهم ايضاً ارقاء تحت
 ايدي المسلمين وربما كان ذلك سبباً لتأديب قوم آخرين فان
 سبي الذرية والنساء اشد على الانفس من القتل فالاسترقاق
 طرف من الاهانة المقصود بها تاديب الناس ومشيهم تحت قوانين
 جامعة وامامات فعله الامم السودانية فتلك عادة جاهلية بهيمية الاعتماد
 فيها على القوة والتسلط كما هو شان بعض الحيوانات والغرض لهم
 من ذلك حظ الانفس واستفراغ الوسع في الشهوات والاستئثار
 باسم السيادة ومثل ذلك يجب على الناس منعه والاهتمام بالكف
 عنه وبالاطلاع على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء وما
 امر به في حقهم وشدد فيه يعلم ان الاسترقاق على ذلك الوجه من
 الامور المستحسنة في العقول فقد قال عليه الصلوة والسلام ابعاداً
 وتحاشياً عن ادخال الانكسار على انفس الارقاء (لا يقولون احدكم
 عبدي وأمتي ولا يقول الملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي
 وفتاتي وليقل الملوك سيدي وسيدتي فانكم المملوكون والرب الله عز
 وجل) وقد استوجب استحكام الطيش والغباوة في طباع السودان
 فشو الرق فيهم وظهور الاستيلاء عليهم حيث ابعدوا باعمالهم بينهم

الارض خصوصاً في فصل الامطار فلا يمكن ان تطول اقامتهم بها وقد اجرت الحكومة الانكليزية عدة تجارب علم منها ان من يموت من العسكر الاغراب في كل سنة قريب من النصف وهذا في السواحل التي امكن فيها الحصول على اللازم فما بالك بغيرها من الجهات المتباعدة التي لم يتيسر كشفها الى الان

فقال الشيخ ان تفاوت الناس في العقل وجودة النظر في صلاح الامة والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان اوجب استيلاء بعض الناس على بعض وسريان القهر فيما بينهم حتى نشأ من ذلك التميز باسم المحاكم والمحكوم والملوك والمملوك وغاية الامر ان القهر اذا داخله العدل كان قهراً لذيذاً وضعف الشعور به ولم تكن الانفس شديدة الاباء منه لحفاء الذل فيه ولم يكن لشريعة من الشرائع ان تبطل ذلك الامر وتبعث على اهلاكه لما في تركه من الفساد العظيم وكان الاسترقاق فرعاً من فروع ذلك الاصل فمن شريعة ابراهيم عليه السلام ضرب الرق على السارق ولم يزل هذا الامر فيما بين الناس حتى جاء الاسلام فكان الطريق الى الاسترقاق واحداً وذلك ان الاسلام شريعة تامة والدعوة اليه عامة لانه يدور امره على عموم الامن والسلامة في جميع الارض فان امتثل الناس بسبب معرفة الصواب والخير الذي يدعو اليه الاسلام فذلك ما اريد والا هينوا وقهروا حتى يحصل مقصود الاسلام فكان استعمال السيف لحسم الفتن وتسهيل

ذلك موجب لقيام الحرب بينهم فاذا انتصر بعضهم على بعض فلا
 يخلو الحال من وقوع بعض المغلوبين اسرى في ايدي الغالين فاذا
 لم يتصرفوا فيهم بالبيع ويتفعلوا باثمانهم قتلهم والبيع اخف من
 القتل اذ الرقيق اذا انتقل من بلاده خرج عن الحالة الاولى
 والطريقة التوحشية وربما اكتسب بحسن التربية علماً وعقلاً وصار
 بين الذين انتقل اليهم كانه واحد منهم فلو كان حال الرقيق
 عند جميع الناس على الصفة التي يقتضيها دين الاسلام من معاملته
 بالرفق والشفقة واللطف والرقعة لم يكن في الرق ضرر خصوصاً
 ان الرقيق ربما يناله العتق ويلتحق بسائر الاحرار فليس الكلام في
 هذا وانما الذي يجب التنبه له وشدة الاجتهاد في منعه هو ما يجلب
 على ايدي الاورباويين الى جزائر البحر المحيط والامريكا فان اهل
 تلك الجهات لا يفرقون بين الرقيق والداية في سوء المعاملة
 فالرقيق والحميون عندهم بمنزلة واحدة سواء بسواء فكم فرق بين
 معاملته في هذه الجهات ومعاملته عند اهل الجهات الاسلامية
 الذين يكون عندهم الرقيق بمنزلة الولد ويتخذون عتقه والاحسان
 اليه قرية عند الله

وما يزيدنا اسفاً ان هذه الجهات يتعسر تمدنها جداً كما يعلم من
 كتب السائحين اذ لم يترتب على توطن بعض الاوروبيين في
 سواحل افريقية الغربية الى الان نتيجة حسنة لاسيما وهم هناك عرضة
 لامراض شتى بسبب التغيرات الجوية وكثرة الانجزة المتصاعدة من

وهي سنة ١٢٢٨ للهجرة ستين الف راس وبمراكب الفلمنك عشرين
الفاً وبمراكب الدينيرقة والسويد والبرتغال نحو ثمانية عشر الفاً فكان
المجموع نحو ثمانين وتسعين الف راس ما بين ذكر وانثى وهو امر
جار من قديم الزمان الى الان وقد تعرض بعض الدول الغربية
لمنعه وتشددوا في ذلك واقاموا الحرس والمفتشين لابطال تجارته
ومنعه ومع ذلك فلم يمكن منعه بالكلية ولم تنزل تجارته جارية
متداولة وان لم يكن اجراؤها في بعض المواضع او بعض الاحيان
جهرًا جرت خفية وسراً ولم يقطع وروده من جهاته فان اهل
تلك الجهات لفقروهم وتجردهم من المعارف وتوحشهم في الصحاري
المتفرقة والفيافي الموحشة واعنيادهم على استرقاق بعضهم واخطفاف
من عثروا به من جنسهم قد صار عندهم هذا الامر كالجملة
والطبيعة الثابتة ولهذا لم يترتب على منعه الا علوانته والتدقيق
في بيعه فلا يزول ذلك من طبغهم ولا يتحولون عنه الا اذا
انتشرت فيهم العلوم الدينية والاداب التمدنية وتالفت قلوبهم
وزالت الضغائن من بينهم واتى ذلك وقد اتخذوه كالميراث عن
ابائهم فقد مضى على سكان هذه الارض القرون العديدة والازمنة
المديدة وهم على ذلك جيلاً بعد جيل وامة بعد امة نعم قد يقال
ان فعلهم هذا اخف من غيره اذ لا يخفى ان توحشهم وجهلهم وجفاء
طباغهم وكون ملوكهم وامرائهم ونوي الكلمة فيهم نشاوا مثلهم في
حال الجهل والتوحش بمعزل عن الانسانية وحسن الاداب كل

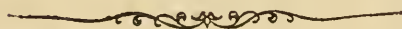
المسامرة الثالثة والستون

الرقيق

قال الانكليزي اذا نظر الانسان في احوال افريقية وما يفعله
اهلها في ضرب الرق على بعضهم من غير نظر الى من يستحق
الاسترقاق ومن لا يستحق وما يقاسيه فيها الارقاء من الذل
والاهانة وما يكلفونه من الاعمال ادركه الاسف والرقعة على هولاء
المساكين المستضعفين ومن قرا كتب السائحين الذين طافوا بتلك
الارض علم ان تجارة الرقيق عامة في جميع جهات افريقية وفي كل
سنة ينقل من اهلها الى جهات الامريكا وجزائر البحر المحيط وبلاد
العرب والترك والعجم عدد كثير وقد اخذت هذه التجارة في الازدياد
والسعة منذ استقل بها الاوروبيون وقد بلغ عدد الرقيق المنقول
بمراكب الانكليز من سواحل ارض الذهب سنة ١٨٢٢ للميلاد

فقال هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى هل
لك في غنمة باردة (فسارت مثلاً فانطلق بيهمس بجاله حتى أقامه
علي فم الغار ثم دفع ابا حنش في الغار فقال ضرباً ابا حنش فقال
بعضهم ان ابا حنش لبطل فقال ابو حنش (مكره اخاك لا بطل)
فارسلمها مثلاً فقتلهم جميعاً فضرب به المثل في ادراك الثار فهذا
حديث بيهمس وبه يفهم قول المتلمس في الايات المتقدمة
نعامة لما صرّح القوم رهطه

تبين في انواعه كيف يلبسُ



ثم انشعب طريقهم فأتى أمه فاخبرها الخبر فقالت فما جاءني بك من بين اخوتك وكانت لا تحبه مثلهم لما يوصف به من الحمق فقال (لو خيرت لاخترت) فذهبت مثلاً يعني لو كان الاخيار لك لاخترت ان اموت ويبقى منهم واحد غيري لكن الامر ليس باختيارك ثم ان امه عطفت عليه ورقت فقال الناس احبته امه فقال (نكل أرامها ولدًا) اي عطفا على ولد فارسلها مثلاً ثم ان امه جعلت تعطيه ثياب اخوته فيلبسها فقال (يا حبذا التراث لولا الذلة) فسارت مثلاً ثم اتى على ذلك ما شاء الله تعالى ثم انه رأى نسوة من قوم يصلحن امرأة منهن يردن ان يهدينها الى بعض قتلة اخيه فجعل يبهس يلبس السراويل مكان القميص والقميص مكان السراويل وقيل كان يغطي راسه ويكشف استه فقلن ما تصنع يا بهيس فقال

البس لكل حالة لبوسها

اما نعيمها واما بوسها

فارسلها مثلاً ثم انه امر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعاماً فجعل يأكل ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فارسلها مثلاً فقالت امه لا يطلب هذا بئرا ابداً فقال (لا تامن الاحق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه اخبر ان اناساً من اشجع في غار يشربون نبيذاً فانطلق للحال له يقال له ابو حنش

فلا تقبلن ضيماً مخافة ميتة

وموتن بها حرّاً وجلدك املسُ

فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه

قصير وخاض الموت بالسيف بهيسُ

نعامة لما صرع القوم رهطه

تبين في اثوابه كيف يلبسُ

فقال الانكليزي اما قوله فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه قصير

فقد فهم ما ذكر من حكاية الزياء واما قوله وخاض الموت بالسيف

بهيس الى اخره فالمرجو بيان المراد منه

قال الشيخ نعامة لقب بهيس المذكور وهو بهيس بن خلف

بن هلال ابن غراب بن ظالم بن فزارة الفزاري وكان سابع سبعة

اخوة فاغار عليهم وهم في ابلهم ناس من اشجع كان بينهم وبينهم حرب

فقتلوا منهم ستة وبقي بهيس وهو اصغرهم وكان يوصف بالحقق

والبله فارادوا قتله ثم قالوا وما تريدون من قتل هذا يحسب

عليكم برجل ولا خير فيه فقال دعوني اتوصل معكم فلما كان من

الغد نزلوا فخرّوا جزوراً في يوم شديد الحر فقالوا اظللوا لحمكم

لا يفسد فقال بهيس (لكن بالاثلاث لحمًا لا يظلل) يريد اخوته

فذهبت مثلاً فلما قال ذلك قالوا انه لمنكر وهو ان يقتلوه ثم

تركوه وظلّوا يشتوون من لحم الجزور وياكلون فقال احدهم ما

اطيب يومنا فقال بهيس (لكن على بلدج قوم عجبني) فارسها مثلاً

ودفعت له أموالاً فسار قصير بما دفعته اليه حتى قدم العراق واتى الى الحيرة وهي بلاد جذيمة متنكراً ودخل على قوم جذيمة وقال لهم جهزوني بصنوف البر والامتعة لعل الله يمكننا من الزباء فنصيب ثارنا فاعطوه حاجته فرجع بذلك الى الزباء فاعجبها ما رأت وسرها وازدادت به ثقة وجهازته ثانية وثالثة فرجع الى بلاده وجمع ثقات رجاله وشجعانهم وهياء لهم الغزائر والسلاح وحمل كل رجلين على بعير في غرارتين وسار يمشي النهار ويسير الليل فلما صار قريباً من مدينة الزباء تقدم فبشرها واعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وسالها ان تخرج فتتظر الى ما جاء به فخرجت فابصرت الابل تكاد قوائمها تسوخ في الارض من ثقل احمالها فقالت يا قصير

ما للجمال مشيهاً وئيداً

اجندلاً بمحملان ام حديداً

فلما توسطت الابل المدينة اناخوها وخرجت الرجال من الغزائر وصاحوا باهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ولم تتمكن الزباء من الهرب فمضت خائماً بيدها وكان فيه السم وقالت بيدي لا بيد قصير فماتت وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام والى هذه القصة يشير المتألمس في قوله من قصيدة له

الم تر ان المرء رهين منية

صريع لعافي الطير او هو يرأس

صادقة وان اخذوا جنبتيك واحاطوا بك من خلفك فاقوم
غادرون بك فسار جذية وقد احاطت به الخيل حتى دخلوا به
علي الزباء فلما صار عندها دعت بالسيف والنطع وامرت بطست
من ذهب كانت قد اعدته له وقالت ان دماء الملوك دواء من
الكلب ثم امرت براهسيه فقطعنا والرواهش عروق اليدين فلما
ضعفت يده سقطنا فطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت
لا تضعوا دم الملك فقال جذية (دعوا دماً ضيعه اهله) واستنزفه
الدم حتى مات هذا ما كان من امر الزباء وتحيلها في اخذ ثار
ابها واما قصير فانه لما احاطت الخيل بجذية وعلم الغدر به نجأ
بنفسه ورجع الى بلاده فتحيل على قتلها فجمع انفه ورحل اليها فلما
رأته قالت ما الذي ارى بك يا قصير ومن جدع انك فقال لها
زعم قوم جذية اني قد غررتك وزينت له المصير اليك وغششته
وما لأتک عليه ففعلوا بي ما ترين فلما رايت ذلك منهم اقبلت
اليك وعرفت اني لا اكون مع احد ائتمل عليه منك فصدفته
واكرمه واصابت عنده من الحزم ما ارادت فلما عرف انها اطمانت
اليه ووثقت به قال لها ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائف وثياباً
وعطراً فابعثني الى العراق لاحمل ما لي واحمل اليك من بزوزها
وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك ارباحاً عظيمة وشيئاً
ما لا غنى للملوك عنه فلم يزل يزين لها ذلك حتى اذنت له

للانشى ومنه سميت الزباء لكثرة شعرها فلما اجلاها جذية من ملك
 ابيها وطردها بذلت الاموال وجعت الرجال فلما استجمع امرها
 عادت الى الجزيرة فاستردتها الى ملكها واستولت عليها وهي معدودة
 في ملوك الطوائف ثم انها قصدت الى الاخذ بنار ابيها والانتقام
 من جذية فلم تجد عندها من القدرة ما يمكنها من ذلك بالقوة
 والحرب فعولت على التدبير والمكيدة فهادنت جذية وكتبت اليه
 تقول . اني لم اجد ملك النساء الا قبيحا في السماع وضعفا في
 السلطان ولا ارى ملكي موضعاً ولا لنفسي كفراً غيرك فاقبل اليّ
 لاتزوج بك واجمع ملكي على ملكك واصل بلادي ببلادك .
 تريد بذلك غدره فلما اتى كتابها اليه طمعت نفسه فيما عرضته عليه
 فجمع اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بتلبية دعوتها واجابة خطبتها
 الا رجلاً فيهم يقال له قصير ابن سعد فخالفهم فيما اشاروا به عليه
 وقال (رأي فاتر وغدر حاضر) والرأي ان تكتب اليها فان
 كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك والا فلا تمكنها من نفسك
 فتقع في حبالها وقد وترتها وقتلت اباه فلم يوافقته جذية فيما اشار
 به عليه وسار اليها في وجوه اصحابه فاخذ علي شاطي « الفرات من
 الجانب الغربي وقبل وصوله اليها استقبلته رسلها بالهدايا والالطاف
 فلما رأى جذية ذلك قال لتصير كيف ترى فقال (خطب يسير
 في خطب كبير) وستلتاك الجيوش فان ساروا امامك فالمرأة

المعامرة الثانية والستون

الزباء وجذبة الابرش

وقصير ويهس

فقال الشيخ اما نسبها فهي على ما ذكره ابو الفرج الاصبهاني بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن اذينة بن السميدع بن هوبر العاملي من عاملة العاليق وكان ابوها ملكاً على الجزيرة جزيرة ابن عمروهي في شمال الموصل يحيط بها نهر دجلة فقتله جذبة الابرش ملك الحيرة والانبار وطرده الزباء ابته الى الشام فلتحت بالروم وكانت عربية اللسان كبيرة الهممة ما عرف في زمانها اجمل منها وإنما سميت الزباء لانها كان لها شعر اذا مشت سبحته وراها واذا نشرته جللها والزيب كثرة الشعر الوصف منه ازب للرجل وزباء

يشتغلون بالتقنص واصطياد بعض الحيوانات البرية والالات
 المستعملة عندهم في ذلك هي القوس والنشاب ولهم في الرمي حذق
 عجيب بحيث يرمي به الواحد منهم الوزعة على الشجرة او الحائط
 فلا يخطئها ولجميعهم معرفة بصناعة الحياكة والصياغة والخياطة
 ويتعلمون هذه الصنائع من صغرهم وترى الحداد منهم يعرف صوغ
 الذهب والفضة ولهم في الذهب صناعة بارعة يعجز عن بعضها كثير
 من مهرة الأوربيين

فقال الشيخ كذلك يوجد في بلاد النوبة التابعة لحكومة مصر
 من لهم مزيد براعة وحذق في صياغة الذهب والفضة وقد ذكرت
 بما ذكرت من قصة المرأة التي اخذت بشار زوجها ما فعلته الزباء
 مع جذية الابرش واخذها منه بشار ابوها

فقال الانكليزي اما الزباء فغاية علمي بها انها كانت من
 ملوك العرب القديمة ولكن لا ادري نسبها ولا الارض التي كانت
 بها ولا ما فعلته مع جذية

لبن بقرهم ومع اغنائهم بالبقر وحبهم للبنها وكثرته عندهم لا معرفة
 لهم بكيفية استخراج جبنه اصلا ويقولون ان المانع من عمله عزة الملح
 وشدة الحر وكثرة ما يصرف في عمله وقلة ربحه وعندهم خيل من
 الجياد وهي من نتيجة اخلاط الخيل العربية بالافريقية واهل هذه
 البلاد يعتقدون ان التمر يتغير في كل شهر وان لكل شهر قرأ
 جديداً فاذا راوا الهلال اجتمعوا ودعوا بدعوات سرية يقصدون
 بها الشكر لله على ما اولاهم من النعم في مدة التمر الماضي ورجاء
 دوام ذلك في مدة التمر الجديد وعندهم ان الارض ذات امتداد غير
 محدود فلا يصل احد الى نهايتها لاحاطة السحاب والضباب بها
 وفي ظنهم ان احسن البلاد بلادهم وانهم احسن انواع الانسان
 فيتأسفون على من عداهم من الخلق حيث لم يكونوا في ارض خصبة
 كارضهم وقطر معتدل الهواء كقطرهم ويعترفون بوجود الخالق
 سبحانه ويقولون بوجود الجنة والنار لجزء المحسنين بالجنة والمسيئين
 بالنار ولهم معرفة بخدمة الارض ومزيد رغبة في الزرع ولكنهم انما
 يزرعون من الارض بقدر ما يكفي لموتهم جميع سنتهم لانهم لا يتأني
 لهم اخراج ما زاد عن لوازمهم الى الخارج ويشغلون بالزرع وخدمة
 الارض في فصل نزول الامطار واما فصل الصيف فيشتغلون
 فيه بالصيد والتنص فتأخذ سكان السواحل اقفاصاً او شباكاً
 يصطادون بها من البحر وما يصطادونه من السمك يجففونه في
 الشمس ويدخرونه لوقت لزومه مدهوناً بشيء من الزبد وغيرهم

الواردة من داخل افريقيه بالرقيق متوجهة الى السواحل وكذلك القوافل التي تجر في الملح وهذان الصنفان من التجارة يتداولها اهل المندنج وكذلك القطن والحديد ولم ايضاً متاجر يذهبون بها الى بلاد المغرب ومن عروض التجارة عندهم صنف عطري يشبه الصمغ يضعونه في اكياس يجعلون في كل منها قدر الاوقه منه ومن خاصة هذا النوع انه اذا وضع جزء منه على النار فاحت له رائحة طيبة ويخرجه اهل المندنج ملابسهم ومساكنهم ولم رسوم ياخذونها من كل من يمر بهذه الولاية من التجار بالبضائع الاوروبية فياخذون على كل حمل حمار قضيب بضاعة فان مر بالمدينة التي بها الملك لزمه اعطاء ثوب من قماش او بنديقية وست زجاجات مملوءة من البارود ومن اهل تلك الجهات (الغولاه) ولونهم يقرب من لون الحبش وهم اكثر ولايات هذه الجهة عدداً بعد طائفة المندنج ويزعمون انهم اصل لما عداهم ويعدون نفسهم من البيض والكل يتمون لدين الاسلام ما عدا الملك والامراء وعندهم مكاتب لتعليم الاطفال من اي امة كانوا ويتعلمون في هذه المكاتب القرآن الشريف والقواعد الدينية الاسلامية ويتكلمون باللغة العربية منذ دخل الاسلام بلادهم وكانت لهم قبل ذلك لغة غير العربية وفي طبيعهم حب البهائم وخدمتها فيجلبونها صباحاً ومساءً ويشربون من لبنها حليباً وحامضاً ويستخرجون منه زبداً يستعملونه في دهن اجسامهم وشعورهم ووجوههم الا ان البان اوروبا اكثر زبداً من

عاداتهم انه متى وقع بين اثنين منهم عداوة واستمرت وبقيت فلا تزول ولا تحول فاذا ابتدأت العداوة بين اثنين منهم اخذا ورقة من شجرة معروفة عندهم فيجذب كل منهما بطرف منها فتتمزق الورقة بينهما ومن ذلك الوقت يستعد كل منهما لتدمير كل مكيدة لصاحبه ويبدل الجهد في اساءته والعبيد والاحرار عندهم في هذه العادة سواء

ودخلت بلاد قوم منهم يقال لهم المندنج فرايت حول كل بلد وقرية لهم زريبة من القصب (البوص) تحيط بها والاحرار منهم نحو الربع وهم السادة والباقي ارقاء لا مخلص لهم من الرق وعليم خدمة الارض وغيرها وهناك ولاية تسمى كجاءعجا نهايتها من جهة الشمال من نهر السينيجال هوؤها معتدل واهلها معروفون بالصدق والامانة في المعاملة ودأبهم التجارة مع الاورواباويين فيبيعون لهم الذهب والرفيق ولهم على جمع المال حرص زائد واكثر ربحهم من بيع الملح وثياب القطن ومن عاداتهم انهم اذا سافر منهم احد في تجارة ثم رجع لا بد ان يستصحب معه بعض هدايا لبعض احبابه فاذا اتى الى بلده اخبر بربحه وتجارته فاذا تبين انه لم يربح في تجارته ولم ينجح في سفرته عيروه وأسأوه وهدموا بيته وصار فيما بينهم حقيراً ذليلاً مهاناً فلا يتخلص من لسانهم وائذائهم الا بالفرار من بينهم وعلى شمال هذه الجهة ولاية تعرف بولاية (يوندوا) وهي شرقي ولاية (بامبوك) بين جاينا والسينيجال تمر منها القوافل

عشرون منه فاذا كان ثمن العبد مثلاً خمسة عشر جنبها انكليزيا قالوا ان قيمته مائة وخمسون قضييا وجميع سكان ارض السانغيبيا تنقسم الى اربع عشائر واكثرهم لا دين له وعقائدهم بعقائد الوثنيين اشبه والمسلم فيهم نادروان وجد فلا معرفة له الا ببعض قواعد قليلة لا يعمل بها ولم ائمة يسوسونهم على قدر عقولهم ومنهم قوم يسكنون ساحل البحر ويتدينون بدين النصرانية ولكنهم قليلون في القدر ومن ينسب الى الاسلام اكثر منهم ومع ذلك فلم تنزل في الجميع عقائد ابائهم واوهام اسلافهم ولكل فرقة منهم احوال تميز بها كالفلو مثلاً فان في طبيعهم حب الانتقام من عدوهم زيادة عن غيرهم ولا يتركون ثارهم فاذا قتل منهم قتيل اخذ اكبر اولاده او اقرب الناس اليه نعله وحفظه ويلبسه كل سنة في مثل اليوم الذي قتل فيه قتيله الى ان ياخذ بثاره ويندر ان يسلم القتال عندهم من القتل

وراي في البلدة التي كنت بها جارية يعظونها ويحترمونها اكثر من غيرها فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انها كان لها زوج قتلته شخص من بلد بقرب بلدهم فاضمرت في نفسها ان تاخذ بثاره فصارت تزين نفسها باحسن ما يكون عندهم وتتعطر وتزهر بقاتل زوجها وتستميله اليها ولم تنزل كذلك حتى احبها وشغف بها فاقامت عنده مدة حتى تمكنت من غرضها فقطعت راسه واتت به الى بلدها فشهدوا لها بالدهاء ولطف الحيلة واحترموها لذلك ومن

الاوربية حين كنت هناك ما ساذكره لكم فكانت قيمة كل ثمان
 واربعين ورقة من الدخان متقالي واحد وكل ثمانية عشر شطفه
 من الصدف كذلك وكل عشرين تعيرة بندقية من البارود
 كذلك وقيمة البندقية ثلاثة من المتقالي فاكثر الى اربعة واما
 الاشياء الضرورية كاللوازم المعيشية والامور المنزلية فكانت قيمة ما
 يلزم لمؤنة يوم واحد قطعة من الذهب توازن حبة من الفول
 وقيمة الدجاجة الواحدة كذلك وقيمة النعجة الواحدة ثلاث حبات
 وقيمة الثور متقالي واحد وقيمة الفرس الواحد عشرة من المتقالي
 الى سبعة عشر وعلى الاشياء واعزها عندهم الملح فن ذكر عنه فيما
 بينهم ان عنده ملحا وانه يطبخ به كان كمن قيل في حقه عند غيرهم
 انه غني ومن اعظم تجارهم واهمها عندهم الحديد للزومه في عمل
 السلاح والات الحث والزراعة ولهذا يقدرون به اثمان البضائع
 فيقولون قدر كذا من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من
 الحديد او نحو ذلك حتى شاع بين التجار اطلاق لفظ قضيب على
 مقدار معين من بعض البضائع كالدخان مثلاً فان كل عشرين
 ورقة منه يسمونها قضيبا وربما قالوا قضيب من صنف كذا
 يساوي قضيبا او قضيبين من صنف كذا وهكذا وكانت قيمة
 القضيب سنة الف وسبعمائة وخمس وتسعين من الميلاد وهي سنة
 ١٢١٠ من الهجرة تساوي قطعتين من الشلينات والشلن معاملة
 انكليزية ومقداره خمسة غروش صاغ الا خمسة فضة والجنيه

مائة وأربع وأربعين فمحة ونصف فمحة من الذهب النقي ومن عاداتهم في تلك البلاد انهم لا يخرجون اليه ولا يستخرجونه الا باذن الحكام واهل البلدة التي بها المعدن الذي يريدون الاخذ منه وبعد استخراجة وتصفيته يعملون منه حلياً لسائهم كالخواتم والقلائد والحلقان ويستعملون بعضه في نفقات السفر ثم يبيعون باقيه مبادلة ببعض بضائع يجلبها اليهم تجار من الغرب وغيره كالمح والذرة والقماش وغير ذلك ويرج فيه التجار رجماً عظيماً يساوي غالباً ضعف ما يعطونه من البدل ولكل واحد من السودان ميزان يزن به الذهب وعندهم فول اسود يزنون بحبه ما يعادل ست حبات منه يقال له عندهم (متقالي) وقيمة المصنوع وغيره عندهم واحدة وقد تبلغ قيمة ما يستبدل بالمح من الذهب لاهل البلدة الواحدة نحو مائة وثمانين الف جنيه انكليزي وللح في هذه الجهات من ارض افريقية قيمة عظيمة فقد يبلغ ثمن كل قالب من المح طوله قدمان ونصف بالقدم الانكليزي وعرضه اربعة عشر اصبعاً في سمك اصبعين نحو جنهين ونصف وثمنه المعتاد قدر جنيه انكليزي وثلاثة ارباع جنيه الى جنهين وكل اربعة قوالب منه تعتبر عندهم حمل حمار والسته حمل الثور واما البضائع الاوروبية فمختلفة الثمن باختلاف كثرة الورود وقلته وقد تقع المبادلة فيها بالرفيق وقيمتها ايضاً مختلفة فقد رأيت الراس الواحد منه يساوي بالمتقالي السابق ذكره من تسعة الى اثني عشر وكانت اثمان البضائع

يعقوب في ولاية على شاطئ نهر السينجال يقال لها (بامبوك)
وامتدادها من الشمال الى الجنوب نحو ستة وثلاثين فرسخاً وعرضها
ثمانية وعشرون فرسخاً فيكون مربعها نحو الف فرسخ وهذه الولاية
منقسمة الى ثلاثة اقسام لكل قسم منها ملك او حاكم واعظمها قسم
(بامبوك) لكثرة الذهب به وكون ذهبها احسن واصفى من ذهب
التسمين الاخرين ولذا سمي مجموع الاقسام الثلاثة باسمه مع ان
لكل قسم منها اسماً خاصاً به وفي تلك الجهة جبل عظيم يشغل
معظم ارضها تسميه اهالي تلك الجهة طبأورا

وفيه منابع مياه كثيرة ويصب في الاقسام المذكورة نهران
عظيمان احدهما يجري في غربي هذه الارض الى ان يصب في نهر
فيليمه والاخر يجري في شرقيها ثم يصب في نهر السينجال وجميع
هذه المجاري يوجد بها ذهب لكن المعادن المشهورة فيها اربعة
وكلها بسفح الجبل المذكور ببلاد عرفت معادنها باسمائها والذي
يتولى حفر ابار الذهب في الغالب العبيد فينزلون فيها الى عمق
ثلاثين او اربعين قدماً ويخصص لكل بئر اثنان احدهما للحفر
والاخر لتعبئة الزنايل وامرأتان لنقل التراب ويغير الجميع في كل
ثلاث ساعات ومدة اشتغال الجميع بهذه الاعمال ثمانية اشهر لا
يستغلون فيها بغيرها ويخلف ما يستخرج من الذهب قلة وكثرة
باختلاف معادنه وقد علم من تجربتهم ان اعظم تلك المعادن
واكثرها ذهباً يستخرج منه في كل ثمانين اوقه من التراب قدر

عنها الماء فيجفرون بها ابارا عميقة^١ ويغسلون ما يستخرجون من
طبقاتها من الرمل بالطريقة المتقدمة فيجدون فيها كثيراً من
الذهب

المعامرة الحادية والستون

بلاد سنغامبيا

فقال الانكليزي ان وجود هذا المعدن بارض افريقيا كثير
وقديم واهل تلك الارض من السودان معتادون على تجارته من
قديم الزمان فتراهم يجلبونه الى بلاد السواحل وبيعونه لبعض تجار
العرب والافرنج وغيرهم واحسنه ما يوجد بالمجهاث التي ذكرها

اربع حبات او ثلاثاً ولم تكن معرفة النساء بهذه الصنعة سواء بل
 منهن من لها معرفة اكثر من غيرها لكثرة تجربتها حتى انها تعرف
 الاتربة التي يوجد فيها الذهب وتميزها بلونها وكيفيتها وتستخرج
 الذهب منها مع ان غيرها ربما مرت عليها ولم تلتفت اليها وكل ما
 يجذبه من قطع الذهب يضعنه في انايب الريش ويسدون عليه
 بقطن او نحوه ويعلقنها بشعورهن ويفتخرن بكثرتها والسعيدة منهن
 من تجمع في اوان جمعه اوقيتين والمحلات التي يبحث فيها عن
 الذهب هي مجاري المياه ولكنها اذا استمر عليها الماء مدة طويلة ولم
 يتحول عنها الى غيرها لا يوجد بها شيء من الذهب لان الماء بشدة
 جريانه وقوة انصابه يحدث بما فيها من الرمل والتراب ثقلبات
 كثيرة فلا يعثر الجاث فيه بشي من الذهب لذلك السبب

ومن الناس من يتساهل ويعمد الى مجاري المياه ويبحث فيما
 في اثنائها من الرمل ومنهم من يصعد الى اعلا المجرى ويبحث فيما
 به من الاحجار والحصى متجشما لما فيه من المشقة فان تيار الماء عادة
 ياخذ ما في طريقه من الرمل والتراب بسبب قوة انحداره وشدة
 جريانه ويترك ما يتعاصى عليه من الاحجار وكبار الحصى فيكون
 الجاث فيها شاقاً صعباً وكثيراً ما يضر بالاصابع ويجرحها ويدميتها
 بخلاف الرمل والتراب ولكن من يبحث في تلك الاحجار والحصى
 قد يعثر فيما بينها ببعض قطع كبيرة من الذهب تعوض عليه الالم
 والتعب ولكن ما كل وقت ينجح الطلب واما المجاري التي تحول

قضع من خشب لغسل الذهب وتنظيفه من الاتربة وريش لاجل
 وضع ما يوجد من الذهب في انايبها ويذبح لهم في يوم التوجه
 ثوراً او بقرة ويجمع اهل البلد ويقراء مشايخهم ادعية وعزائم سحرية
 بقصد نجاح غرضهم وعلمية الغسل سهلة جداً والقائم بها النساء
 لانهن قد اعندن عليها من الصغر كتعودهن على غريلة القمع
 والارز واما ثقلب الاتربة واستخراج التراب المظنون وجود الذهب
 فيه فذلك موكل الى الرجال وكيفية تصفيته ان تاخذ المرأة جانبا
 من ذلك التراب وتضعه في قصعة من خشب ثم تصب عليه
 مقداراً من الماء وتحركه به حركة دورية حتى يمتزج ببعضه ثم تقلل
 في الحركة شيئاً فشيئاً ثم ترجع الى تحريكه ثانياً وتزيد الحركة شيئاً
 فشيئاً حتى يسيل من حرف القصعة جزء من الماء المختلط بالاتربة
 الناعمة المختلطة بالمادة الاصلية ثم تتركه حتى يرسب ثم تريق الماء
 وتطرح الحصى وتبقي ما رسب في اسفل الاناء من الرمل ثم تصب
 عليه ماءً جديداً وتعاود العمل مراراً حتى يصفو الماء ويصير في
 غاية الصفاء ولم يبق في القصعة الا الرمل والذهب ثم تاتي بقصعة
 اخرى فتقل اليها جزءاً من الرمل وتبقي في الاولى ما رسب في
 قاعها من الرمل المظنون ان الذهب فيه اكثر وتضع عليه ماءً
 صافياً وتحركه في القصعة وتنظر الى اسفلها مع الدقة والتامل
 وتاخذ ما وجدته في خلال الرمل من الذهب وكذلك تفعل بما
 في القصعة الثانية وغاية املهم ان تجد المرأة في كل قصعة من الذهب

المسامرة العتون
الذهب واستخراجه
(من حكاية يعقوب)

فقال الشيخ قد ذكرت مواضع الذهب ولم تذكر كيف يستخرج
وعلى اي هيئة يوجد في اول امره وبودي لو عرفت ذلك
فقال يعقوب ان الذهب يوجد في هذه البلاد خالصا نقيا
على هيئة حبوب دقيقة متشرة يكون الكبير منها في حجم الحمصة
واما كيفية استخراجها فانه اذا انحسرت مياه الانهر وذلك في وقت
فراغ الاهالي من زراعتهم اعني في اوائل شهر ديسمبر ينه كبير البلد
على الاهالي بالاستعداد لجمع الذهب وغسله ويعين لهم يوما بسميه
لم فتستعد له الرجال والنساء ومعهم الآلات المختصة بذلك وهي
عبارة عن مساحي ومحاريف لفتح الارض وتقليب التراب وبعض

او ساحل الذهب وانها من جملة جهات السانغامبيا وان البلدة
 التي كُنت بها تسمى (تابو) وحوها بلاد كثيرة منها (اوينه) و(اجويرا)
 و(الكسان) و(انكاسيا) و(اجينا) و(ادوم) و(ومونبا)
 و(فساه) و(انكي) و(ابرامبويه) و(كينورا) وغير ذلك من
 البلاد لا يحضر في اسمها الان وهذه البلاد يوجد فيها الذهب بكثرة
 ولاهلها عادات عجيبه وعقائد غريبة

عندهم اعتادوه وصار لا يستغرب لديهم وكنت مدة اقامتي بينهم نافعا
لسيدي في الصيد والقتص وجميع ما يباط بي من الاعمال فاحبني
حبا شديداً استتبع محبة جميع اهل البلد لي واقبالهم عليّ وكنت اسمع
من بعضهم انهم في بعض الاحيان يحضرون الى ارضهم اناس من
جنسي للسياحة في بلادهم فكنت انتظر حضور بعض السائحين
اليهم عسى اتخلص منهم بواسطته وبقيت على هذا الانتظار مدة
اربع سنين الى ان اتفق حضور السائح الشهير (بوسمان) الى تلك
البلاد وكان معه عدة من الحرس لحفارته وحفظه في الطريق فلما
مر بهذا البلد اجتمعت به وكلمته بالانكليزي وذكرت له قصتي وما
جرى لي من وقت الفرق الى حين لقائه واثبت له على الشخص
الذي اخذني وذكرت له ما صنعه لي وكان ذلك بحضوره وكان
مع السائح المذكور ترجمان له من جنس القوم فعرف سيدي بما
قلته من مدحي له ففرح بذلك ثم ان السائح المذكور طلب من
سيدي اخلاء سبيلي فامتنع واخبره اني عنده بمنزلة ولده وان فراقي
يعز عليه فما زال ذلك السائح به يستعطفه ويلج عليه حتى تم الامر
على اخلاء سبيلي في نظير جملة من الاقمشة والحزز دفعها السائح
المذكور لسيدي ومن ذلك الوقت فارقتهم وصرت في خدمة
ذلك السائح الى ان ركبت البحر ورجعت لهوله القديم وعذابه
الايام وكنت عرفت ان الارض التي كنت بها تعرف بارض الذهب

المسامرة التاسعة والخمسون

المخلص

(من حكاية يعقوب)

ثم قال الانكليزي ليعقوب قد ذكرت ما حصل لك من
ابتداء امرك الى ان وقعت في يد هولاء القوم ولم تذكر كيف تخلصت
من ايديهم

فقال اني بعد ما تعلمت لسانهم وتكلمت بكلامهم صرت كاني
واحد منهم لا يفرق بيني وبينهم الا مجرد اللون حتى انهم كانوا
لا يسموني الا بالابيض فصار هذا الاسم علما عليّ عندهم وان كان
لوني قد تغير عن حالته الاصلية بسبب طول مكثي في تلك
البلاد وكثرة تعرضي لحر الشمس وكان لوني الابيض في اول
الامر اعجوبة عندهم يستغربه كل من راه ولكن لما طال مكثي

في امر الفيل فلما انتقطع القول فيه سال اياه عن حكم اكله
 فقال قد اختلف العلماء فيه فاباحه البعض وحرمه
 البعض والتحرير اشهر قولي الشافعي وعلي القول بجرمته يكون
 عظمه نجساً لا يطهر بمجال عند الشافعي كما هو رايه في
 عظم كل حيوان غير ماكول ويكون طاهراً عند ابي حنيفة
 كما هو رايه في كل عظم وشعر وقال مالك انه نحن يطهر
 بالصلل

والابيض اكثرها قيمة وقد تعبدها اهل الهند في بعض المحال ويقال ان الفيل اذا اتقاد كان اطوع جميع الحيوانات والينها جانباً وكانت محبته لسائسه احدى العبر فيرى منه حينئذ ان غاية حياته انما هي لخدمة صاحبه وطاعته ويتودد الى من له به معرفة ويستعمل خرطومهم كاليد والذراع مساعدة لما يراد من تحميله ويعنو لمديبره ان يركب على عنقه ويسوقه بعود من حديد وكلمة واحدة من راكبه اذا عرفه تكفي في الغالب لحركته اما الغريب فهيهات ان يطيعه وقد حدث ان فيلا هاج مرة هياجاً شديدا لسوء معاملته فيما ظن فقتل سائسه ولكنه ظهر منه بعد ذلك تاسف والتباعد شديداً وقد كانت ملوك الشرق قبل احداث البنادق والمدافع تحمل لوازم الحرب على الفيلة المضراة وتحارب عليها واما الان فانما تتخذ عند من يقتنيها للتفاخر او لحمل الاثقال العظيمة اذ ليس في الحيوان ما يطيق الحمل اكثر منه فان له قدرة على ان يجرم ما لا يكاد يقبله ستة افراس وذلك دون كثير معاناة ويحمل على ظهره من ثلاثة الاف رطل الى اربعة الاف وعلى خرطومهم وحده الف رطل واذا حث على السير سار في اليوم مائة ميل تقريباً والاف فخمسين او ستين واهل الهند يعلمون الفيلة الفئك بالمجرمين والانتقام منهم فتمزقهم بخرطومها او تنفذ فيهم انيابها ولكنها ليست تميل لذلك بالطبع فهي انما تفعل بالرغم والاجبار

قال ناقل الحديث وكان برهان يسمع ما جرى من الحديث

صاحبه ومن طبيعه الموالفة والموانسة وإذا اجتمع سرب منه كان أكبر الجماعة سنًا هو المدبر والقائد لها وكان من دونه في السن وازعها وإذا سرن على هذه الحالة اهتمرن اغصان الشجر في طريقهن وإذا دخلن مزرعة لا يلبثن ان يفسدن الحرث ولا يكاد يصرفهن وهن مجنوعات عدد وافر من العسكر المتسلحين الا انه لا يندران يطارد القناصون منها ما كان منفردا ولكن القناص اذا اخطاه ولم يمكنه الهرب منه هجم عليه في الحال جريًا فيضربه اولًا بناه ثم يتناوله بخروطومه ويرمي به الجور ويرقب سقوطه حتى يدوس عليه فيقتله وكثيرا ما وقع مثل هذا على ما اخبر به المسافرون ومن طبع الفيلة انها تذكر الماء قبل ان تشربه وكثيرا ما توعيه في خراطيمها ثم تشبهه اما للعب او لاخذ الثار من يسوها فينطلق انطلاق ماء الميزاب وقد كان مرة فيل سائرا وحده في مدينة فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه احد الصناع بارة ليعجب نفسه واصحابه فكظم الفيل غيظه ثم سار الى محل ذي قدر وملا منه خرطوموه ورجع الى الدكان واطلق ذلك القدر على من كان قد ساءه ونفى عنه بذلك ما لحقه من العار ووجود الفيلة في افريقية على ما يظن اكثر مما سواها غير ان الموجود منها في اسيا اكبر واعظم واكثر نفعًا لبني ادم اما في الهند على الخصوص فانها تدرّب على الشغل والحركة في حالي الحرب والسلام بترتيب حسن وتباع على حسب ضخامتها وحيانًا على حسب الوانها

فقال الشيخ قرأت في جملة من الكتب العربية المؤلفة في طبائع الحيوان قديماً وحديثاً ان مدة حمل الانثى من الفيلة نحو سنين وهذا كالموسم بين القول بانها ثمانية عشر شهراً والقول ستة وثلاثون شهراً ويقال ان الذكر ينزوي على الانثى اذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع واذا حملت الانثى لا يقربها الذكر ولا ينزوي عليها الا بعد ثلاث سنين وقال عبد اللطيف البغدادي انه لا ينزوي الا على فيلة واحدة وله عليها غيره شديدة فاذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها خوفاً عليه ان يسقط على الارض لانها لا تلد الا وهي قائمة فتلد والفعل عند ذلك يحرسها ويحرس ولدها من الحيات وقد اجمع المورخون على ان الفيل اذكي جميع الحيوانات فطنة وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب ويفعل ما يامره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالة السلم والحرب غير ان النظر الى ظاهر هيئته وشكله يحكم عليه بالبلادة فحشته الضخمة وجلده الامعط العاري عن الشعر وقوائمه الغليظة التي كانت لم تخلق للحركة وصغر عينيه وسعة اذنيه المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافه بزيادة بلادة عن المتعارف ولكننا اذا اعتبرنا خصاله وجدناه بخلاف ذلك والفيل اكبر جميع الحيوانات واعظمها قوة وليس من طبعه الفتك والاذى بل هو مع كمال جرأته حلیم سليم الطبع وغاية الامر انه يعمل ما عنده من القوة في الدفع عن نفسه او عن

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحرايب والنشاب والنفاس وغير ذلك
فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيخناطوا بجزء
منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون
في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم
من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعاً بالاسلح دفعه واحدة حتى
اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار
الفرسان يضربونه بالاسلح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما
تقدم وقد يصاب في الحلقه حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش
وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسراباً تبلغ افراد
السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة
ومن عادتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له
بسوء الا اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او
قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت
بجمل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى
العلي فارفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدماً فوقعت ميتة
وقد اخلف في مدة حمل الفيلة قليل انها ستة وثلاثون
شهرًا وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام
ويتدي في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين
سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها
بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتبالفة من التناسل في غير موطنها

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه و يسلخونه و ياخذون
جلده فيتخذون منه نعالاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم
قطعا رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديداً (بصطمة)
يدخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت مؤنة بعضهم اكثر ايام السنة
منه و يتلعون اسنانه و انيابه بالفاس و ياخذونها مع سائر عظامه
ليبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيدا كثيراً فربما
اقاموا في الغابة شهراً و اكثر يقتاتون من لحم الفيل و من عسل
يستخرجونه من بعض الاشجار و يقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه
في الطعم لحم البقر فاذا كبر ليس لحمه و عسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب
مع الرقيق و يباع بالساحل فيشتره الاوروبيون للتجارة و ذكر
كثير من السياحين ثقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها
في كل ثلاث سنين مرة و ذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض
انياب ملقاة على الارض وقد يقع بين الفيلة و بعضها معارك فتقع
منها انيابها و انياب الفيلة عادة تكون مصمتة و انما تكون رؤسها
مخوفة

فقال يعقوب العادة في اصطيد الفيلة عند اهل البلاد التي
كنت بها كما رايتہ مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت
عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج و معه جميع من في القرية
من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل و فارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والمحارب والنشاب والنفاس وغير ذلك
 فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيخناطوا بجزء
 منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون
 في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم
 من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعاً بالسلاح دفعة واحدة حتى
 اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار
 الفرسان يضربونه بالسلاح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما
 تقدم وقد يصاب في الحلقة حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش
 وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسراباً تبلغ افراد
 السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة
 ومن عاداتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له
 بسوء الا اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او
 قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت
 بحمل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى
 العلى فارتفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدماً فوقعت ميتة
 وقد اخلف في مدة حمل الفيلة فقيل انها ستة وثلاثون
 شهراً وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام
 ويبتدي في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين
 سنة ولكن كل ذلك افعال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها
 بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه ويسلخونه وياخذون
جلده فينخذون منه نعالاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم
قطعا رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديداً (بصطمة)
يدخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت مؤنة بعضهم اكثر ايام السنة
منه ويقلعون اسنانه وانيابه بالفاس وياخذونها مع سائر عظامه
ليبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيدا كثيراً فربما
اقاموا في الغابة شهراً واكثر يقتاتون من لحم الفيل ومن عسل
يستخرجونه من بعض الاشجار ويقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه
في الطعم لحم البقر فاذا كبر ليس لحمه وعسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب
مع الرقيق ويباع بالساحل فيشتره الاوروبيون للتجارة. وذكر
كثير من السياحين نقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها
في كل ثلاث سنين مرة وذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض
انياب ملقاة على الارض وقد تقع بين الفيلة وبعضها معارك فتقع
منها انيابها وانياب الفيلة عادة تكون مصمتة وانما تكون رؤسها
مخوفة

فقال يعقوب العادة في اصطيد الفيلة عند اهل البلاد التي
كنت بها كما رايتُه مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت
عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج ومعه جميع من في القرية
من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل وفارس معهم

بها الى اوان نزول الامطار واهل تلك الجهات يعرفون ما ذكر
من عاداتها واوقات تغلاتها ومن العادة عندهم في اصطيلها ان
يجمع عندهم الخمسة والستة وياخذون معهم من البارود والرصاص
والنبال والمؤنة ما يكفي لسته ايام فاكثر ويذهبون الى محال
الفيل وياخذون في البحث عنه مع كمال التحرز والاحتياط
ويتعرفون محال وجوده باثاره كاغصان اشجار متكسرة بمخروطه
وكرجيه واثر قدميه وما اشبه ذلك وقد صار لهم في اقتصاص
اثره ومعرفة امره بطول المزاولة وكثرة التكرار ما لا مزيد عليه
من المعرفة والخبرة بحيث متى راى الواحد منهم اثر قدم الفيل في
بقعة من الارض امكن له ان يقول على سبيل القطع والتحقيق في
اي زمن مر من تلك البقعة والى اين سار واين يوجد فتره متى
راى اثره كأنما ابصره فتمى علموا محل القيلة بما اعنادوه من العلامات
كمنوا لها في محل مناسب حتى اذا راوا قطعاً منها على البعد تبعوه
بغاية ما يمكن من الاحتراس واتظروا انفصال احدها من القطيع
فعند ذلك يقتفون اثره ويتبعونه على البعد مع الحذر والتحرز
بحيث يزحفون على بطونهم بين الحشائش حتى يتمكنوا منه فاذا
تمكنوا منه رموه دفعة واحدة ثم احتجبوا عنه بين الحشائش مخافة
ان يراهم فيطش بهم فاذا احس الفيل بجروحه ذهب الى الشجر وحك
جسمه به فاذا لم يجد لذلك فائدة امتلاً غيظاً وهام لوجهه الى ان
يتعب من كثرة جريه وما يسيل من دمه فيكل وتسقط قواه ويقع

والاهوال وما شاهده من العجائب والغرائب وكلمهم متفقون على ان الذهب في تلك الجهات كثير وان مواد تجارتهم الذهب والصمغ والرقيق والعاج اعني عظم الفيلة وان كانت هذه الاصناف في بعض الجهات متفاوتة قلة وكثرة فقد يكون بعضها في جهة اشهر منه في جهة اخرى كالعاج مثلاً فانه قليل بالسواجل التي تقطعها مياه السيول وتكثر فيها الوحول والجهات التي فيها اسلحة نارية لان الفيلة لا تهوى تلك الاماكن بل تنفر منها وتفر الى الغابات وغيرها من الجهات التي ليس بها ذلك فيكون العاج فيها كثيراً

فقال الشيخ لا يشك عاقل في ان الانسان بسبب شدة فطنته مع صغر جسمه وضعف قوته يمكنه ان يستحوذ على الفيل وغيره من الحيوانات الكبيرة التي تزيد عليه في الجسم والقوة والبأس بدرجات كثيرة ولكن ليت شعري ما الطريقة المستعملة في اصطياده والقبض عليه وكيف يتوصل اليه

فقال الانكليزي قد بلغنا عن ساح في الاقطار واثبت ما شاهده فيها من الاثار ان اهل الارض التي بها الفيلة اذا اردوا صيدها تجمعوا واخذوا اسلحتهم وذهبوا الى محالها التي تالها في اوقات معلومة عندهم وللفيلة اوقات تجتمع فيها افواجا وتتقل من محالها الى جهات اخرى لطلب الماء او المرعى ومن عادتها ان تسكن الغابات المنقطعة ما دامت تجد فيها الماء فاذا نشفت ما بها من البرك والمنافع اخذت في الانتقال الى شواطئ الانهار ولا تزال

المقامة الثانية والخمسون

الفيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بام سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعنقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهله وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليزية والبرتغالية وبسبب اخلاط اهل السواحل الان بالاوروبا وبين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

منسوج بسيور من المجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار
على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طنجيات
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اخضوني به واتخذته
لي مأوى ومسكناً فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي
غاية الاتقياد وصرت ممثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأباً وعادة
مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على
نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفت بها في مدة قريبة
وصرت اتكلم بها معهم واعندت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان
تمكنت من الخلاص من ايديهم

المعامرة الثانية والخمسون

النيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهله وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليزية والبرتغاليةن وبسبب اخلاط اهل السواحل الان بالاوروبا وبين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

منسوج بسيور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار
على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طنجيات
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اخنصوني به واتخذته
لي مأوى ومسكناً فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي
غاية الاتقياد وصرت ممثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأباً وعادة
مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على
نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفت بها في مدة قريبة
وصرت اتكلم بها معهم واعندت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان
تمكنت من الخلاص من ايديهم

ثم قلت في نفسي انهم جمع كثير فان رميتهم فلا بد ان يسلم بعضهم
فوقع في يدهم فيقتلونني او يأسروني ثم يعذبوني فرايت الصواب ان لا
احدث شيئاً مما هممت به وبقيت انظر اليهم وانتظر ماذا يفعلون
فرايتهم قوماً سود الوجوه عليهم ثياب سود وبايديهم نبال ورماح
فنظروا اليّ وأشاروا بالنزول من فوق الشجرة فاشرت اليهم باني
خائف منهم ان يقتلونني فاوماً احدهم باصبعه الى السماء ففهمت انه
يعاهد الله ان لا يصيبني مكروه ثم فهمت من اشارة اخرى ان
قصدتم ان يعاملوني معاملة الاخوة فتحيرت بين ان انزل اليهم
اعتماداً على اشارتهم او ابقى بمكاني احياطاً لنفسي وتحرزاً من غوائلهم
ثم قلت ان كل ما حصل من اول الامر الى اخره انما نشأ من
طاعة النفس في رايها ومتابعة هواها وعدم التفويض فيما اشكل
عليها لربها وهذا كان السبب في كل ما اقسامه خصوصاً انهم في
امكانهم اذا لم انزل اليهم بالطوع والاخبار ان ياخذوني بالقهر
والاضطرار ولو بان يتظروني حول الشجرة يوماً فيضطروني الجوع
الى النزول اليهم والمصير في قبضتهم وذلك قد يغريهم باسأتي
فالاولى التسليم لله وترك اللجاج ثم نزلت اليهم فاجلسوني بينهم
وصاروا يרטنون معي ولا افهم ما يقولون واكلمهم فلا يفهمون ما
اقول فاشرت لهم نحو البحر ففهموا اني كنت في مركب وغرقت باهلها
ولم ينج منهم الا انا ثم افهمتهم بالاشارة اني اتخذت لي مأوى بقرب
الموضع الذي نحن به واشرت لهم الى جهته فقاموا معي حتى وصلنا

المسامرة السابعة والخمسون

الدود

(من حكاية يعقوب)

وفي بعض الايام دخلت الغابة على العادة ثم اوغلت فيها فلما
 اردت العود رايت على البعد قوماً على خيل فحفتهم حين رايتهم
 وقلت في نفسي هل اخفي منهم فانجو من شرهم ام اظهرهم لعل
 خلاصي من الوحدة يكون على يدهم ولبثت برهة في ارتباك وحيرة
 اتردد بين الامرين ثم اخترت المواراة منهم وصعدت على شجرة ذات
 اغصان واوراق كثيرة فاخفيت فيها عن اعينهم وصرت انظر من
 خلالها اليهم فما زالوا يقربون من الشجرة التي انا عليها شيئاً فشيئاً
 حتى وصلوا اليها فاحناطوا بها فتيقنت انهم قد لمحوني وكان معي
 اذ ذاك بندقية وزوج من الطنجيات فحدثني نفسي برميهم بالبندق

في وحشتي ومعيني على وحدتي فلم اصادف احداً مطلقاً وبعد يومين
 التفت الامواج الى الساحل بعض الجيف فاحنرت لها حفر واريتها
 بها وبقيت على هذه الحال خمسة عشر يوماً لا ارى من يزاحمني ولا
 اجد من ينغص على عيشتي سوى الوحدة ووحشتها والفرقة وحرقتها
 والتفكر في اختي ووطني ومن كنت معهم ولم يكن سوى ذلك شيء
 يهمني او يغمني وكنت اخذت من السفينة ما يكفي لمؤنة سنة كاملة
 وكان عندي ايضاً من البارود والسلاح ما يكفي للمدافعة عن
 نفسي وصرت كل يوم ازيد شيئاً في تحصين المكان وجعلت فيه خروفاً
 صغيرة خرقتها في مواضع متعددة من اعلاها لنفوذ الضوء والهوا
 ولكي ارى منها ما لعله يطرأ في الخارج وجعلت في الجسر مزاغل
 لاستعمالها في المدافعة عن نفسي اذا دهني عدو اخافه واجتهدت
 مع ذلك في ابقا ظاهر المحل على اصل هيئته كي لا ينتبه له من يمر
 به ومكثت مدة من الزمان على ما انا عليه لا ارى احداً وكنت كل
 يوم اصطاد شيئاً من السمك والطير فاشتوي منه واطبخ كما اشتهي
 حتى وجدتني تمهرت في اصطناع الاطعمة ووجدت في الغاية كثيراً
 من انواع الفاكهة والخضراوات والبقول فكنت اخذ منها كل ما
 احب

بعض ثياب عثرت بها واستخرجت ايضاً سريراً ارقد عليه وبرميلين
 مملوءين من البقسماط وبرميل قديد (بصطرمه) وبعض مشروبات
 وغير ذلك مما بدا لي لزومه مثل قدوم ومنشار وسيف وسكين
 وهكذا كلما عثرت بشيء ارى انه ينبغي واحناج اليه اخذته فان
 وجدته ثقيلاً اربطه بمجل ثم اظهر على سطح الماء واسحبه حتى اخرجه
 من البحر وان وجدته خفيفاً امسكته بيدي ورفعته

ثم وضعت ذلك كله على الرمث (الرومس) الذي صنعته
 وزكبت فوقه وصرت اعمل بالمخزافين قاصداً الى الجهة التي كنت
 بها في البر حتى وصلت الى الساحل فنقلت جميع ذلك في الموضع
 الذي كنت قد اخترته لسكناي ثم ذهبت الى الغابة فاتيت منها
 ببعض اخشاب فحوطت بها على جميع منافذ المحل وانما اقيت لي
 منفذاً صغيراً كالباب اخرج منه وجعلت له باباً من بعض قطع من
 الخشب ضممتها الى بعضها واحكمتها عليه واعدت لي خشبة متينة
 امكنها من الداخل حتى لا يمكن فتحه من الخارج ثم ادرت على
 المحل كله جسراً عظيماً عملته من تراب واحجار نقلتها ووطنتها
 وجعلت من وراء ذلك خندقاً عظيماً حفرته فصرت كافي في حصن
 حصين وحرز منيع فيه كل ما احتاجه من الزاد والذخيرة والالات
 والادوات وكنت اود لو عرفت حال اصحابي وما حل بهم واتمنى
 ان اعثر بواحد منهم ولهذا كنت دائماً اتلفت واتطلع الى جهات
 الساحل لعلني ارى واحداً منهم يخرج مثلما خرجت فاجعله انيسي

واتخلص مما انا فيه ولكن لم اجد بالقرب من تلك العين فجوة
 مثل الفجوة التي بت فيها فخطر بيالي اني ان فعلت ذلك لا آمن
 على نفسي من الوحوش خصوصاً اذا كنت لا سلاح لي فاستحسننت
 البقاء في المكان الاول الى ان ادبر حيلة في الوصول الى المركب
 وآخذ ما يمكنني اخذه منها ثم اتبع الشاطئ سائراً لعل اعثر بمحل
 أهل بالناس فوق هذا التدبير عندي احسن موقع فنهضت ومشيت
 على الشاطئ الى ان حاذيت المحل الذي غرقت فيه السفينة
 فنظرت اليها فوجدت بعض اعواد شراعتها ظاهرة وبينها وبينها
 نخوميل فهبت العوم وخفت ان تنقطع قوتي في اثناء المسافة فلا
 اصل الى السفينة ولا الى الساحل وقد كان في جسي بقايا التعب
 والفتور مما قاسيت من المتاعب والمصاعب السابقة فعدت الى قطع
 من خشب كان الموج الجهاها الى البر وعمدت الى بعض اشجار
 فاخذت قشورها وعملت منها ومن بعض الثياب التي قذفتها
 الامواج للساحل حبلاً وربطت بها تلك الاخشاب الى بعضها في
 البحر على هيئة الرمث (الرومس) وانزلتها الى البحر وركبت عليها
 وقد اتخذت لي مجذافين من بعض الاخشاب صرت اعلم بهما
 قاصداً جهة السفينة حتى وصلت اليها وكانت قد غرقت عند شط
 جزيرة فبقي جزء منها ظاهراً وباقيها مغموراً بالماء فنزلتها وانغمست
 في الماء ودخلت محل السلاح فاستخرجت منه ثلاثة ازواج من
 الطنجيات وبنديتين وبرميلا صغيراً مملوءاً باروداً واخذت ايضاً

اوي اليه خوفاً من الوحوش واستعمالاً للحذر والتحذر بقدر الطاقة
وغداة غدٍ اذا سكنت الريح واطمان البحر اذهب الى السفينة واخذ
منها ما اجد ما يلزمني وعلى ذلك صرت اتمشى على الساحل واتلفت
حتى وجدت فجوة اشبه بحجر حيوان فقعدت بعيداً عنها مستترا
ببعض الصخور انظر هل يدخلها او يخرج منها شي من السباع او
الهوام فلم اجد شيئاً دخلها ولا خرج منها فدخلتها خائفاً متاملاً
مستعملاً للاحتراس والحذر ونظرت في ارجائها فوجدتها خالية
ففرحت بها وقلت اجعلها سكني وما واي حتى يحكم الله بحكم ثم
ذهبت وقلت اليها ما جمعته واقبل الليل فاويت اليها وكنت فيها
واكلت بعض الثيمات من البقساط ولم يكن يعوزني الا الماء
فوطنت نفسي على الظاء وكان البقساط شديد الملوحة لما خالطه
من ماء البحر فتمكن مني الظاء فبت اكابد الله الى الصباح فلما
اسفر الفجر خرجت وسرت على ساحل البحر فوجدت عين ماء
يحف بها بعض شجر فقصدتها وشربت منها فوجدت فيها بعض
ملوحة ولكني مع ذلك فرحت بها لشدة ما قاسيت بالليل من
الظاء ثم نظرت فرايت على مسافة منها غابة اشجار كنت اسمع من
جهتها تغريد الطير من بعد فدلني ذلك على ان فيها كثيراً من
الطيور وسخ لي ان اتخذ مسكناً بالقرب من تلك العين فجعلت
اجيل النظر في ذلك وكنت احب ان اكون بالقرب من الساحل
رجاء ان ارى سفينة تمر فاشير الى من فيها عشاها ثاني فانزل فيها

المسامرة السادسة والخمسون

الوحدة

(من حكاية بعنوب)

ثم اني سرت اتمشى قليلاً قليلاً على ساحل البحر فرأيت
السفينة التي كنا فيها يلوح جزء منها ظاهراً من الماء على مسافة غير
بعيدة من البر بقدر كثير ورأيت بعض براميل قد ساقتها الامواج
الى الشاطئ فنزلت في الماء واخذت بعضها فوجدته مملوءاً من
البسماط والخبز ففرحت به وان كان البحر قد افسده وكذلك
وجدت بعض قطع من قماش القلوع التي مزقتها الريح وبعض
ثياب من ثياب الملاحين فاخذت من ذلك ما قدرت عليه
ونشرته في الشمس حتى جف وسترت عورتي واكلت ما يمسك
الرمق وقلت في نفسي اتردد على الساحل لعلني ارى مغارة او حجراً

وصرت اتفكر فيما صرت اليه وما كنت فيه وقتلت في نفسي ويحك
 يا يعقوب ما اشقاك واقل حظك فوالله كانك ما تخلصت من
 ورطة الألتع فيما هو ادهى منها فاذا تصنع وما هذه الحال واين
 مالك الذي كنت اکتسبت وبضائعك التي اشتريت وارباحك
 التي املت وثروتك التي فارقت لاجلها الاحباب وعصيت عليها
 النصاح وزايلت البلاد وركبت هذه الاخطار هذه نفسك قد
 سلمت من بين نفوس هلكت رقيت وحدك لا معين ولا انيس وقد
 نجوت هذه الدفعة من البحر فما يؤمنك من مهلكات البروعاديات
 الوحوش ومتوحشي الآدميين

فنزلت وما زالت تلعب بها ترفعها وتضعها وتقلبها من جنب الى جنب ومن جهة الى جهة بحيث صغرت الاولى وهونت امرها عندنا واستمرت كذلك نحو اربع ساعات ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الامن فلم نشعر الاّ والماء ينبع من بطن السفينة فلم نهتدي الى منبعه الاّ وقد اتسع الخرق وطفح الماء واخذت السفينة تنزل بالتدرج الى جهة قاع البحر فيحتمد خلع الناس ما عليهم من الثياب والقوا انفسهم في البحر ففعلت مثلهم وصرت اعوم من غير تعقل ولا روية ولكن كان الشاطي غير بعيد فسبحت حتى وصلت بعد اللتيا والتي فلم تستقر قدي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل زاهب الشعور عديم المحس والحركة لا فرق بيني وبين الميت وكاني غلبي النوم هناك من شدة ما قاسيت من العناء والتعب فمت ولم استيقظ حتى ضربني حر الشمس فممت فوجدتني عاري الجثة بادي العورة ضعيف القوة خامد النفس وكان قد مضى عليّ نحو اليومين لم اذق شيئاً فتحاملت على نفسي وقت انظر امامي وخلفي واتلفت يمينه ويسرة فلا ارى احداً من خلق الله تعالى ولا يقع بصري الاّ على احجار يابسة وصخور عالية وارض موحشة فلا اعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين ام نجا منهم احد الى ارض غير هذه الارض ام خرج منهم احد الى البر فاهلكه بعض الوحوش الضارية او الام المتوحشة ثم ادركتني وحشة كبيرة وخوف على نفسي عظيم

ونحن نراها اخر الاجل وتوقع بعدها الخطر وجزمنا بالهلاك وانقطع
رجاؤنا من النجاة وخاف اعظنا جسارة وجزع اشدنا تجلداً وطاش
اثبتنا جاشاً وحر اكثرنا تجريباً وتعوداً وبقينا شاخصي الابصار
غائري العيون باهتي الالوان فاقدى الحركة كاشباح موضوعة
وصور مصنوعة وفقد كل منا قوة اعصابه وتغيرت هيئته وصورته
فان مياه البحر فعلت في الجلد فعلها واقت به اثارها فاحالت اولاً
لونه وبدلته به لوناً اخر ثم لما تمدى مرورها عليه ومباشرتها له
وضربها فيه احدث فيه استرخاء وانتفاخاً واضعفت الكيموس
الحوي ونقصت منه والهواء في اثناء ذلك يساعدها في اعمالها
ويضيف افعاله الى افعالها ويحملها الى الروس ويضرب بها العيون
والوجوه حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف الى ذلك ان اضطراب
السفينة واخلال حركتها وكثرة ثقلها احدث اضطراباً في المعدة
واخلالاً في الاعصاب ودواراً في الراس وضعفاً في مجموع الجسم
فاحاط بنا من الخطب والكرب ما لا تتسع له العبارة ولا يفي به
التمثيل واستمر الامر علي ذلك نحو ست ساعات ثم حصل بعده
هدوء وسكون فاذا بالقبطان يقول ها قد ظهرت علامات فور تونة
اعظم مما قبلها فكان سكون البحر في تلك اللحظة كأنه سكون هدنة فلم
نشعر الاً وزوبعة كالريج العقيم كانت الاولى بالنسبة لها كالنسيم
فكسرت جميع السواري وقطعت الحبال وضغطت السفينة حتى
كادت تنزلها الى قرار الماء ثم خفت عنها فارتفعت واعادت ضغطها

كلها الا جزء من واحد منها وقبض على الدفة الرئيس بنفسه مع
كال الانتباه واليقظ والاحتراس وكنت انا حينئذ لشدة ما نالني
من الخوف والفرع طائش العقل طائر القلب لا انطق بحرف وانما
اتحرك وانتقل كالحيال المتقل بلا تعقل ولا قصد وفي اثناء ذلك
سمعت بعض الناس يشير على القبطان بانه يوجه المركب الى البر
لانه لم يكن بعيداً فقال ان هذه الزوبعة لم تترك لنا اختياراً وفي
اثره اشتد عصف الريح وهياج البحر وزاد الخطب عما كان عليه
اضعافاً مضاعفة وصرنا لا نسمع بعضنا بعضاً من شدة صوت الريح
وصوت تلاطم الامواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة فلم يكن صوت
الادوي يميز بين تلك الاصوات المزعجة وعند ذلك رايت الملاحين
تركوا اشتغالهم بامر السفينة واظهروا اليأس واشتغل كل واحد
بنفسه ورايت كلاً منهم ربط نفسه بحبل من حبال السفينة وكان
الموج يعلو على جوانبها وتارة يدخلها من جميع جهاتها حتى يظن
انها غرقت وتارة كنا نرى السفينة كأنها تقطع الموجة وتنفذ من
جوفها بدل ان تعلوها وتمر فوق ظهرها فان الهواء كان يلجئها الى
ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها وتارة تكون على اعلا
الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعنق فتسقط بينها وبين
التي تليها فيظن انما خسف بها وعند ذلك تمر عليها الموجة من
اولها الى اخرها فتغير في مرورها جميع من بها او تمر من فوق رؤسهم
فكنا جميعاً مترقبين ووقع الغرق في كل دقيقة فما من لحظة تمر الا

الناظر وتروع المخاطر ثم سكن الهواء وانضمت الشراعات الى عيدانها
 والتصقت بها بعد ان كانت مملوءة هواء فكان ذلك عندهم علامة
 ايضاً على امر مخيف وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج
 روحه ورايت جميع الملاحين واقفين شاخصين بابصارهم باهتين
 مستعدين لما يامر به القبطان وعليم سراويل مشمعة لا ينفذ منها
 الماء ولا اعلم ماذا يامرهم به وماذا يريدون ان يصنعوه وداخلني من
 الهم والوهم ما لا غاية فوقه وكان سكون الهواء عند ذلك من العجب
 شيء وظهر على وجه الماء رغوة وزبد ولم نشعر الا بدوي ظهر من
 جوف البحر كانه ينعي من سموت فيه ثم خرجت ربح شديدة دفعة
 واحدة فامالت القلوع حتى صارت ماسة لسطح الماء وان كانت
 الامواج لم ترتفع الا قليلاً لان الهواء ضاغط عليها ثم اتت زوبعة
 فصرنا في جوفها فما كنا نسمع غير اصوات مختلفة بين تمزيق
 وتكسير ودوي وصرير وكانت السفينة حيثئذ في تصرف الريح
 كاللعبه في يد الطفل يديرها كيف اراد ويقلبها كيف شاء واستمرت
 مدة يسيرة وهي مائلة الى الامام ثم اعتدلت وعادت الى حالتها
 الاولى مدة ثم تمكنت منها الزوبعة واجرتها على وجه الماء بسرعة
 وخفة تخرج عن حد التصور وكان عند ذلك يسمع بين الجبال
 والاشباب صرير مهول واصوات مفرقة والسفينة حيثئذ تسير
 على حالة عجيبة كأنها تمس الماء من غير ان تتمكن فيه فكانت تمر
 من السحاب فوق رؤس الامواج فامر القبطان بالشراعات فطويت

وان كل ما قاسيته ليس بشيء بالنسبة لما تجدد بعده فقد حل لي
في تلك السفرة بين سواحل أفريقيا وجزيرة كناريا ما انساني كل
شيء قبله وغطى على كل شيء غيره

وذلك أنا حين كنا بذلك الموضع ظهرت ربح شديدة من
ناحية الشمال الغربي خرجت مرة واحدة فتكدر منها الجو واطلم
الافق فانزع القبطان وصار يصرخ على جميع الملاحين ان يتهاوا
ويستعدوا لوظائفهم وياخذوا حذرهم وسمعت بعضهم يقول لبعض
مع الفزع والجزع ها هي الريح ظهرت في الافق من بعد وأشاروا
الى شيء كالسحابة البيضاء وكأنه علامة عندهم على ذلك فنظرت
فرايتها تسع شيئاً فشيئاً وتأخذ في الامتداد حتى غطت الافق
وحجبت السماء وكان ذلك ليلاً فاستترت بها النجوم واطلم الجو
وصرنا لا نرى شيئاً ما حولنا وانا بالريح هبت دفعة واحدة ثم
سكنت فظننت ان امرها قد انتهى فنظرت الى القبطان فوجدته
هو وسائر الملاحين في جهد جهيد وكرب شديد فسألت بعض
الملاحين فقال لي ان هذا السكون علامة على حركة شديدة تعقبه
وإشار باصبعه الى السماء ثم قال ستري ما يحصل بين السفينة
والبحر والهواء فلم يتم كلامه الا وقد اشتد الهوا وزمجر الرعد ولع
البرق واضطرب البحر وهاجت الرياح وظهرت في الجو قطع من
السحاب فماتت الجوامع ولم تلبث ان تجمعت مثنى وثلاث ثم تضاقت
وصارت كلها قطعة واحدة سوداء كلون الفناز مهيبة الهيئة تهول

المعامرة الخامسة والخمسون

النزه والفرق

(من حكاية يعقوب)

فقال ان هذا القبطان بعد ايام قليلة مات فحزنت عليه
 وحفظت له جميله وخلفه الرئيس فاقمت معه كما كنت مع القبطان
 قبله وكان قد اجتمع عندي من النقود ثلثائة جنيه اودعت منها
 مائتين عند اهل القبطان الاول وكنت قد تعرفت بهم لكثرة
 ترددي عليه ثم اشتريت بالمائة الثالثة بضاعة وسافرت بها مع
 الرئيس فكانت تلك السفرة انخس اسفاري واشقاها وكنت اذ
 ذاك قد مضت علي في البحر مدة قاسيت فيها من احواله وشدائده
 وعظائم اموره ما كنت ازعم انه لا يمكن ان يحصل اكبر منه حتى
 تحقق لي في السفرة المذكورة اني كنت في قلقى عظيم وجهل كبير

ويقتحمها فتتشب في حلقه السنارة فتمت احس بذلك صار يردد
ويضطرب ويخبط ويتقلب في البحر بقصد التخلص ولا يزال كذلك
حتى يكل ويضعف وتضعف قوته فعند ذلك يجذبه الصيادون
الى الخارج ويجهزون عليه ويتصيد الناس هذا الحيوان في جهات
كثيرة ويستعملون اجزائه في اغراض مختلفة فيطعمون دوابهم من
لحمه ويستخرجون من شحمه زيتاً يستضيئون به واهل (جواند)
يتخذون من جلده نعلاً واغشية لسروج خيلهم وربما عملوا منه
قوارب صغيرة

فقال الانكليزي رأيت مرة في مخزن الاثار القديمة بناحية
(روان) سناً من اسنانه طولها عشر متر ومن طولها هذا يعلم ان الحيوان
الذي كانت فيه كان طوله نحو ثلاثين متراً

فقال يعقوب وهذا الحيوان مع ما له من القوة وكبر الجسم
والسطوة قد ذلله الله لسمكة صغيرة تعرف بالديمورا فتتخذة مركباً
لها وتسير به حيث شاءت وتستغني به عن العوامه التي لغيرها من
السماك (وهي كالمنفخة للسماك تتلىء بالهواء فيعوم بواسطتها في
الماء فهي له بمنزلة القربة التي يعوم عليها الانسان) وليس للديمورا
هذه عوامه كما لغيرها من السمك وانما لها في جانبي راسها صمامات
مستديرات في صورة الشكل البيضي فتمت ازادت الانتقال الى جهة
تريدها عمدت الى حيوان كبير من حيوان البحر اياً كان فتلتصق
به بواسطة صماماتها المذكورة فلا يمكنه ان يتخلص منها بحال من

نزوله حيوان من هذا النوع فاحتزرجله وذراعه امام الناس لا ينفر منهم ولا يبالي ثم احتزرجله وذراعه الاخرين ولم يدرك اصحابه منه غير ما بقي من جثته فمات الرجل فالتوه في البحر فالتهمه ذلك الحيوان الخبيث وكأنا كان له بالمرصاد

قال الانكليزي ويتغذى هذا الحيوان بجميع انواع السمك صغيره وكبيره لا يغادر منه شيئاً وسمعت ان اهل مرسيليا مرة اصطادوا حيواناً من هذا النوع فراوا في جوفه كثيراً من السمك ووجدوا رجلاً بنيابه ولولا ان الله سبحانه وتعالى جعل فتحة الفم في هذا الحيوان داخلة عن الشفة العليا بقدر ثلثي ذراع لكان لا يقي ولا يذر لانه لا يتمكن من مصيده وهو بهذه الصورة الا اذا دفعه الى امام او كان من جانبه وقد علم ذلك من خلقته سودان بعض الجهات فتراهم اذا ارادوا صيده اغتموا فرصة تحوله والتفاته الى جهة من جهاته فيغطسون بجانبه ويشقون بطنه في الحال ثم ياخذونه

فقال يعقوب الجزاء من جنس العمل وكثيراً ما يكون شره ذلك الحيوان سبب هلاكه فانه لا يرى شيئاً امامه الا التعمه والتهمه وان كان شعبان فاذا اراد الصياد اصطياده التي اليه سنارة قوية مثبتة في سلسلة محكمة وجعل في السنارة شيئاً من اللحم فتمت رهاها كلب البحر اقبل عليها يشتمها ويدور حولها فيجذبها الصياد بالسلسلة قليلاً فعند ذلك يظن الحيوان انه براد استخلاص هذه الاكلة منه فيسرع

متحركة فتارة تنطبق على سطح الفك وتارة تتصب فيه على حسب
 الاعراض ومقتضيات الاحوال واذا انكسرت منها واحدة نبت غيرها
 في محلها وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص وله من القوة وشدة
 السرعة ما يمكنه به ان يقطع محيط الكرة الارضية في ثلاثين
 اسبوعاً لو استمر على سرعة سيره ليله ونهاره ومن شأنه ان يتبع السفن
 في البحر ويقتفي اثرها حيث سارت لا يبالي بشدة اضطراب البحر
 وهباجه وكثرة عواصفه وامواجه وكثيراً ما رآه الملاحون تبع
 السفينة ولازمها من حين خروجها من سواحل اوروبا الى ان
 تدخل في سواحل امريكا لا يفارقها في اثناء ذلك بل يدور حولها
 من كل جانب كأنه خفيр عليها يتولى حراستها وهو نهم آكول
 لا يكاد يشبع وفيه قوة القلب وجرأة الاسد وقسوة النمر وجميع السمك
 يهابه ويخشاه ويخافه

فقال الانكليزي هذا الحيوان يوجد في جميع جهات الارض
 لا يختص بجهة دون غيرها واما اقتفاؤه لأثر السفن فلا تظن ما
 عساه يقع به من جيف الموتى ورم الغرقى وهو يجب حرب البحر
 بين الناس ليشبع من رمم القتلى لكثرة ما عنده من النهم والشه
 فقال يعقوب نعم سمعت من القبطان ما يدل على ذلك في
 جملة حكاية ذكرها وذلك ان رجلاً من الملاحين رأى صاحباً له
 بركب قريية منه او كان غائباً عنه منذ سنين متعددة فنزل من
 سفينته واراد ان يسبح في البحر ليضل اليه فيسلم عليه فيصادفه عند

المسامرة الرابعة والخمسون

بكلب البحر والديورا

(من الحكاية يعقوب)

واذكر اني كنت ذات يوم جالساً على جنب السفينة انظر الى
البحر فرايت سمكة عظيمة الجسم غريبة الخلقة ملازمة للسفينة تتبعها
في سيرها لا تتاخر عنها ولا تتقدم عليها فسالت القبطان عن اسمها
وشانها فقال هذه سمكة تعرف عند الصيادين وغيرهم بكلب البحر
وتكبر حتى يكون طولها عشرة امتار وفيها عظيم جداً تبلغ سعته عند
فتحه نحو الثلث من طولها فيكون محيطه ثلاثة امتار وقطره متراً
واحداً وكلما كبر هذا الحيوان تزايدت اسنانه حتى يكون له عند
بلوغه ستة صفوف في كل فك من فكه ولم يكن له في صغره غير
صف واحد في كل فك وليست اسنانه ثابتة في محلها بل هي

لان اكون رئيساً بين الملاحين وحصل لي من التجارة شي كثير
من الذهب والفضة وجملة من التبر بعثها بمبلغ عظيم فاجتمع عندي
من المال ما اوقعني في شبكة الطمع واغراني بالاستمرار في الملاحة
والتجارة وكان من اقوى الدواعي الى ذلك شدة رغبتني في اتساع
دائرة المعرفة والاطلاع فكنت اترقب كل غريبة فالتفتها فان
اشكلت عليّ سالت عنها من يعرفها ولم اقتصر في الاستفادة على
هذا القبطان بل كنت اسال عن الشي كل من اتوسم فيه معرفته
وكان القبطان المذكور رجلاً متقناً واسع المعرفة والاطلاع ولم
يكن يكرم عني شيئاً مما يعلمه ولا يضجر من كثرة ما اساله

فظهر لي الرجح وهاجت بي الإطباع وهان عليّ امر البحر وفي هذه
 الإقامة صاحبي بعض الملاحين وتوافقت قلوبنا ونشأت بيننا
 مودة واخذت في النمو فإشار عليّ يوماً ان يعلمني صنعة الملاحة
 لاكون معهم علي كسب اضيفه لكسي وليقل رعي وخفقان قلبي
 عند معاينة الشدائد وقال لي اذا رغبت في تعلم صنعتنا ودخلت
 في زمرتنا كان لك ان تحمل في السفينة ما تشتريه من بضائعك
 من غير اجرة ولا مقابل ولا يعسر عليك ان نتعلم علومنا وتعمل مثل
 اعمالنا وتكون كواحد منا وربما فقت علينا في مدة يسيرة وما زال
 بي حتى مالت نفسي الى الدخول معهم في تلك الصناعة فواقفته
 وتلقيت اشارته بالتبول وشكرته على حسن رايه فلما قضينا حاجتنا
 من البلد وازلنا الى السفينة ذهب بي الى القبطان وعرض عليه
 قصتي فرحب بي وفرح وأشار عليّ بملازمته ووعد بان يتولى تعليمي
 بنفسه وامر بكتابة اسمي في ضمن الملاحين من ذلك الحين فاخذت
 بهم وصرت معهم واخذت في تعلم الصناعة ووطنت في السفينة
 ما معي من البضاعة وصرت كما رست السفينة علي ساحل من
 السواحل اخرجت من تلك البضاعة شيئاً وبعته على اهله واستعوضته
 بغيره واخذت في التقدم والترقي في تعلم فنون البحر من القبطان
 ملازمي له واثملافي به فعرفت منه علم الملاحة وحساباتها الهندسية
 وكيفية تحويل السفن وطي قلوبها وتوجيهها في انحدارها واقلاعها
 وحساب سرعتها في سيرها فلم تنقض هذه السفرة الا وانا مستعد

فنظرت الى القوم وقد اصفرت الوانهم وتخاذلت لشدة الرعب
 اركانهم والملاحون كالغفاريات يترددون في المركب طولاً وعرضاً
 ويصعدون على السواري ويهبطون بغاية السرعة كأن لم يروا شيئاً
 مما اخاف الناس وكاد يخلع قلبي فتمت لصاحبي ودموعي تسيل
 على خدي ونفسي يتقطع في حلقي وقلت له ما هذه الحوادث البحرية
 وكيف يتجرأ الناس على هذه الشدائد وهل كان بين السفينة
 والغرق والناس والموت الا شي يسير فاغرب في الضحك ثم قام
 اليّ فسمح دموعي واخذ في تسكينني وتقوية قلبي وتشديد عزمي وهو
 يقول ان هذا الشئ الذي عاينته ليس بالخطب الكبير وان للبحر
 احوالاً ذات احوال فوطن نفسك على استقبال ما استقبلك منها
 فان الامور لا تنال الا بالصبر وما رأيت اثنوزج شدائد البحر
 وانظر الى هولاء الملاحين هل تراهم تغيروا او عن وظائف اعمالهم
 تاخروا واما هولاء الناس فانهم يخافون على انفسهم واموالهم وقد
 شاهدوا العظام فمهم يذكرون الكبير عند مشاهدة الصغير ومع
 ذلك فقد اقدموا ولم يتفكروا في موت ولا غرق لعظم لذة الكسب
 وحب نماء الاموال فعند ذلك سكن اضطرابي وذهب ما بي
 وتفكرت في بلوغ الامنية وانتهائي لان اكون من اشراف بلدي
 ويجمع شملتي وشمل اختي واغنيها واغني عن خدمة الناس حتى
 وصلنا الى ميناء برموت فالتقينا فيها المراسي وطلعنا الى البر وقراره
 وامنه وراحته فاثنا اياماً وبعث بعض بضاعتي واشترت غيره

فرايته قد حزم بضاعتي الى بضاعنه وكان قد شحن السفينة ببضاعة
الناس وعزم على السفر فقلعنا المراسي في اصيل نسيهه يحيي الروح
ويوجب شكر نبي الله نوح والجو على احسن ما يكون من صفاء
الاديم والبحر في اضطرابات لطيفة كانتها رقص تعلم فبتنا بلبلة
قاربت اطرافها احاديث ممزوجة بمجلاوة الاماني الى ان استقبلنا
النهار ونحن في نشاط وسرور فامضى كثير من النهار حتى راينا
الريح بدت فيها قوة بعثت موجة صدمت السفينة فهزتها وخالفت
حركتها فرايت الملاحين قاموا وتنادوا وتحاذروا وتواصفوا امرأ ما
خطرت لي ببال ورايت اهل السفينة في هرج فقلت لمن مجاني ما
للناس تغيرت هيئتهم وتبدلت حالتهم فقال الم تر هذه الريح كيف
اشتدت وهذا الموج قد اقبل وهذه المركب قد اضطربت قال
يعقوب فغجبت لحفة ما هو كائن والجهالة بما يكون فلم نلبث الا
قليلاً حتى نتابع الموج واشتد الريح واظلم الجو واشتد اضطراب
السفينة وماج الناس وتصارخوا واخذ بعضهم ببعض فاشتد جزعي
لهول ما لم يسبق لي به شعور وقلت في نفسي اخرج انت لتصير
من التجارام لتكون من دفائن البحار وذكرت من قول معلمي حين
كان ينصحنني يابني داخل البحر مقفود والخارج منه مولود فاحاطت
بي الهموم وتذكرت فرقة اختي وندمت على ما فعلت من اهل
النصيحة وركوب هذا الخطر فكنت الوم نفسي تارة واعنذر لها تارة
ثم ان الريح لانت وتهادأ البحر واخذت السفينة في انتظام الحركة

من انا عنده حالي واستخبرني عن سبب تغيري عن عادتي فكنيته
امري وما زال يتلطف بي في السؤال وادافعه حتى اطلمته على
مكنون سري وباطن امري فتبسم عجباً واعتبه عبوساً وغضباً وقال
يا بني هذه وساوس لا تعقب لك خيراً ولا اشتغال بها ضياع لما
بيديك وحرمان ما يستقبلك من الرزق فاقبل على عمك تكن
عن قريب مثلي صاحب دكان وعندك صناع يصرفهم راك وامرك
واني مضر ان ازوجك ابنتي واسط يدك في مالي فضعف ذلك
الخاطر واقبلت على عملي بياض نهاري وفي اخر اليوم تقيت اولئك
الاصحاب وسمعت منهم تلك الاحاديث فقوي ذلك الخاطر واستحکم
وكان سبباً في دخولي معهم ومشاركتي اياهم في الحديث متعرفاً منهم
اسباب وصول مثلي الى التجارة والسعي في اهلها وكان في القوم
انسان عازم على التوجه في مركب له الى سواحل افريقية فعرض
عليّ الصحبة وتكفل لي بالموثنة والتزم لي بالمعونة وسألني عما بيدي
من الدراهم فاخبرته فتوافق معي على ان يشتري لي بها من بضاعة
بلادنا وعرفني انها تريح تسعة اضعافها فبت ليلتي في حساب اموالي
افرح بنجاح عمالي فما هو الا ان انكشفت ظلمة الليل بعض
الانكشاف حتى جئت الى الموعد وسلمت دراهمي لذلك الصاحب
ورجعت الى صاحب الدكان التي كتبت بها فاخبرته بتصميم العزيمة
ولم اقف لاستماع كلمة منه ومضيت الى المنزل الذي فيه اختي
فاخبرتها بنيتي وودعتها ولم يفت الى بكائها وعدت الى صاحبي

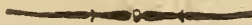
جانب جدار في الطريق اخذ النوم بروسنا وطرحننا هنالك فمر بنا
 العسس فحملنا الى مدرسة اليتامى فاقمنا بها مدة حتى تعلمت صنعة
 الخبز وتعلمت اخي الخياطة والخدم المنزلية فلما عرف مدير المدرسة
 منا ذلك اطلقنا لتكسب بانفسنا فحتمت انا برجل من اهل تلك
 الصناعة وكنت في صناعه وخدمت اخي في بعض المنازل فلبثنا
 ما شاء الله ازيد عند صاحبي محبة وتقريباً وتميزاً على الاخوان
 لما رأى بي من المهارة في الصنعة وبذل الوسع في الخدمة وكذلك
 اخي عند سادتها كل مقبل على شغله وصارف همته في تحصيل
 رزقه خائفين ما كان يلتمنا من نل السؤال وروعة الحرمان
 وكلاحة الوجوه وسوء الصبح والمسي حتى اخنطت بناس هم اكبر
 مني سناً واكثر مالاً وادرى بامور الدنيا فسمعتهم يتجادثون في
 اسباب الغنى من التجارة وانواعها والزراعة واصنافها والصناعة
 واقسامها متنازعين فيما هو الاسهل منها مسلماً والاقرب غاية
 والاشرف اهلاً والاجل اعمالاً فرايت اكثرهم مصرين على انه
 التجارة محتجين لذلك بامور معقولة وحكايات عن السلف منقولة
 مثبتين ان صنف التجار امرآ على الصنفين الاخرين وسمعت منهم
 ايضاً ان اعلا انواع التجارة ما كان بالاسفار في افاصي اطراف
 الاقطار فحدثني النفس الهاربة من الذل والشقا الطالبة للعز
 والسعادة ان افكر في الحيلة التي اصير بها تاجراً فكنت لذلك
 اذهل وفي عملي اكسل ويظهر ذلك علي شيئاً فشيئاً حتى انكر علي

المسامرة الثالثة والخمسون

حكاية بعنوب

حاصل قصتي اني مذ درجت وجدتي واخنا لي اكبر مني
 بقليل في حضانة ام ذهب اطيب عمرها تجمعنا حجرة لا يظل سقمها
 غير اشخاصنا واشياء حقيرة بالية من اثاث المنازل لا نزور ولا
 نزار غير انه كانت لنا جارة عجوز فقيرة حالها احسن من حالنا قليلا
 فكانت تتردد الينا وتتردد اليها وربما افضلت علينا ببعض ما يفضل
 عنها فلم تطل الايام حتى مرضت امنا ولم يكن لنا حيلة الا الجلوس
 الى جانبها والبكاء فكانت تلك الحجرة نتمهدنا وبذلت المجهود في
 تريض امنا وطلب الشفاء لها حتى قضت نحبها فبقينا منفردين ليس
 لنا الا الله وتلك العجوز فعرفتنا كيفية السؤال وطبقنا تكفف الناس
 فعشنا على ذلك برهة فبينما نحن في بعض الايام جالسين الى

ويلم جرحه ويستوقف جريان الدم ويكمده والدم يتشخب لبلاغة
 الجرح ومصادفته الكرب حتى قاضت نفس اليهودي وقعد اللص
 الى جانبه ينتظر الحمام حتى جاءه بعد معاينة الاهوال ومقاساة
 الالام ينظر الى المال بالندامة ويعود على نفسه باشد الملامة
 وهيهات نغد القضاء وحل به لقبج اعماله وسوء تدبيره وخيم البلاء
 ثم ان الشيخ لما فرغ من هذا الكلام اطرق اطراق المتفكر وزفر زفرة
 المتذكر فقال له صاحبه مالك يا مولاي فوالله لقد نظرت الى
 الدنيا بعين ربانية وتكلمت على احوالها بما هو مراد خالقها منها
 فهل لك في ان تروح خاطرك بالاستماع الى حكاية يعقوب تاريخ
 نفسه ووقائع ايامه فقال الشيخ لا باس فساله الخواجا ذلك فاعنذر
 بقصور عبارته في العربية فقال له لا عليك ما عجزت عن عربيته
 فاحكه بلسانك وانا اترجم عنك فاقبل يعقوب يحدتهم فقال



يهلكوا من نفس اعالم وسوء تدبيرهم وشوم بغيهم كما يحكى ان جماعة
 من اللصوص توافقوا مع يهودي على ان يرجع لهم جميع ما كسبه
 وتشارطوا في ذلك وتعاهدوا وتحالفوا على عدم الخيانة ومضوا على
 ذلك برهة من الزمان الى ان شعرت بهم اهل الضبط والسياسة
 فارسلوا عليهم الجواسيس يتلمسونهم فكانوا يعثرون بالواحد والاثنين
 حتى قبضوا على كثير منهم وافنوه فلما رأى رأس اللصوص ذلك
 غير منقطع والطلب دائم والبحث عنهم متتابع دبر في نفسه ان يعمل
 الحيلة في قتل اليهودي واستخلاص جميع المال لنفسه وخطر هذا
 الخاطر باليهودي ايضاً فلنفاذ القضاء ودوران دائرة السوء على
 اهل البغي والخيانة تحيل اليهودي في اشعار الحاكم باسماء اللصوص
 ومواضع اجتماعهم فكتب ذلك في صحيفة وعلقها في الصندوق
 المرصد لالقاء الناس فيه صحائف المظالم وعروض الاحوال وانفق
 ان جاء كبير اللصوص لانفاذ ما دبره قبل اطلاع الحاكم على صحيفة
 اليهودي وخلا باليهودي وتحدث معه حديث المودة والصفاء وعرفه
 انه يريد الاستئثار بهذا المال وقسمته بينها وحرمان اللصوص منه
 حتى امن اليهودي ودخل معه الحجرة التي فيها صناديق المال فلما
 عرفها واستكشفتها تغفل اليهودي فضربه بمختر احسن منه بالمت فلما
 علم اليهودي انه ميت لا محالة جرى الى الباب فقفله وكان باباً
 محكمًا من حديد صفيق يمنع نفوذ الصوت ولا يمكن فتحه الا بحيلة
 لا يعلمها غير اليهودي فاخذ اللص يتحيل على اليهودي ويتذلل له

الحال ولقيه اميرها معاوية رضي الله عنه في المراكب المزينة والاسلحة
المحلاة والملابس المتحيزة والموكب الحافل كلمه في ذلك فاعنذر
بكونه لازماً لسياسة ناجيته فسلم له وترك الاعتراض عليه وكان
عثمان رضي الله عنه على سيرة ايوب عليه السلام من التبسط في
الانفاق وتعميم اهله بالمبرة والتوسيع على الناس فبنى داراً وشيدها
وجعل اخشابها من نفيس الخشب كالساج وغيره وفي ايامه بنى
الزبير بن صفية عمه النبي صلى الله عليه وسلم عدة قصور بالمدينة
والبصرة ومصر ومن الصحابة من صولحت احدى زوجاته وكن
اربعاً على ربع ثمن تركته الذي تستخه منها على اثنين وثمانين الف
دينار الى غير ذلك من امور يطول استقصاؤها ودخل رجل من
المشقة على الحسن البصري رحمه الله وبين يديه خييص فدعاه
اليه فقال الرجل اخاف ان لا اشكر نعمة الله فيه فقال له الحسن
كل فنعمة الله عليك في الماء البارد اكبر وقال رجل لابي حنيفة
رحمه الله وقد رأى عليه حلة قيمتها خمسمائة مثلك يلبس هذه
فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس الحلة قيمتها
الف وما سمعت تعلم انه لا اعتراض على من تناول من طيبات
الدنيا ما تناول اذا كان بوجه الحق واتل قوله تعالى قل من
حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وإنما العيب
والمشمة على من اخذها بوجه الباطل كالتملص والغضب
والنهب والظلم وهؤلاء ان لم تهلكم الحدود المشروعة فلا بد ان

الطرفين كان مذموماً بقدر ميله كما قيل
فلا تغلُ في شي من الامر واقتصد

كلا طرفي كل الامور ذميم

وهو عقد لقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوساطها فلا
مساغ اذا لاطلاق المدح والذم كيف وعقلاء الناس الذين لاسبيل
الى تجهيلهم وتسفيه احلامهم قد توزعوا تلك الخدم قديماً وحدثاً
لا تنكر طائفة على طائفة الا الخروج عن الحدود المتوسطة وها انا
احكي لك حكايات تجلوك الحال وتستاصل شافة الاشكال هذا
نبي الله ايوب عليه السلام كان صاحب ثروة عظيمة من الزراعة
وتربية الحيوانات فكان له خمسمائة حمار مصرفة في اشغاله

وامر داود وسليمان ابنيه عليهما السلام مشهور وكان ابنا
المخالة يحيى وعيسى على خلاف ذلك من الزهد في الدنيا والتقلل
منها والاقصرار على موضع الحاجة هكذا كانت رسل الله كل
سالك طريقة لا يعاب بها ولا يفضل احد منهم على احد من
تلك الجهات حتى كانت النبوة الاخيرة الجامعة على صاحبها
افضل الصلوة واتم التسليم فنهج المناهج كلها وبين الطرائق وحدودها
ومشت علماء امته بعده في تلك الطرق فكان ابو بكر رضي الله
عنه على سيرة يحيى وعيسى عليهما السلام وكان عمر رضي الله عنه
على سيرة موسى عليه السلام من الشدة وايفاف الناس على الحدود
وضبطهم عن الزيف والميل حتى انه لما قدم الشام لاستكشاف

بأبدانهم ويريجوهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم فظهر الفقر والغناء وبموجب ذلك نجح بينهم التحاسد والتباغض والتعادي نقل عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال عداوة الضعفاء للاقوياء والسفهاء للحكماء والاشرار للاخيار طبع لا يستطيع تغييره فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجنود ووضع القلاع والحصون وتصوير آلات القتل لتحايز الناس بعضهم عن بعض ونزوم كل عمله الذي استعد له ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا الى شي من ذلك كما قيل
لو انصف الناس استراح القاضي

وبات كل عن اخيه راضي

ولكن الحال على خلاف ذلك ولم تكن القوانين الحكيمة كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً لكونها انما تتعلق بظواهر الاحوال ومشاهداتها فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمطالب الدنيا وعيوبها ويهدون فيها وينهون عن شدة التزام عليها لثبوت اهل القلة فيها على اشغالهم الشاقة التي لاجلها خلقوا ولا يبذلوا قواهم في معارضة المكثرين ومضاربتهم فتيين من ذلك ان اعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم لا يصح ان يفاضل بين اهل وظيفة وغيرها وإنما المفاضلة بين اشخاص كل وظيفة فمن قام بوظيفته حق القيام بها مقتصدًا دون افراط وتفريط كان محموداً ومن مال الى احد

فقال علم يا بني ارشدك الله ان الانسان وسائر الحيوان بحسب خلقته مضطر الى تحصيل ما يحفظ به حياته وقد مكنه الله من ذلك واره طريق السعادة وطريق الشقاوة فقال عز ذكره (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً) فدواعي الطلب قائمة في طبيعته ونفس خلقته من وقت خروجه للدنيا . سئل حكيم متى عقلت فقال حين ولدت ثقيل له وكيف ذلك فقال جعت فطلبت واعطيت فسكت فهل ترى ان احداً يذم هذا الطلب غير ان الانسان لا يقتصر على موضع الحاجة بل يجب الاستكثار من الخير وجمع المال والتبسط في الانفاق وحيثنذ اما ان يسلك الطريقة المثلى التي نهجها الله واوضحها ونصب علاماتها على السنة رسله واهل الحكمة من خلقه واما ان يسلك غيرها وهذا موضع الحمد والذم والثواب والعقاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدنيا فعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر فانظر كيف نهى عن سبها واثى عليها وعلى طلابها الذين صرفوها في وجوهها غير ان ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة الى عمالين عمل بالابدان وعمل بالارواح وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكىاء والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضاً فكان اشتغال اذكىاء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية ان يخدمهم بقية الناس

ولي هنا شغل متى انقضى لِحَقَّتْكُمْ ثم توادعوا ومضى الشيخ وابنه
وصاحبها ويعقوب الى محطة البواخر متوجهين الى باريز

المسامرة الثانية والخمسون

ذم الدنيا ومدحها

(قال ناقل الحديث) فلما استقر الشيخ وابنه وصاحبها
الانكليزي في عربة سكة الحديد وسارت بهم العربة اخذ الشيخ
يحدث ابنه فيما كان قد ساله عنه بعد ان اعلم صاحبه بما جرى
بينهما من وصف تلك الليلة وحديث برهان مع صاحبه الذي بالغ
في مدح الدنيا والثناء على طلابها وازراء من سواهم والطعن فيه

حرج عظيم وضيق صدر لعلمي ان ذلك لا يحل نظري اليه وتاملي
 فيه فذهب سروري واسفت على حضوري غير اني انكره بقلي
 وارجو مغفرة ربي وقلت هذه اشياء احكيها وان كنت لا اشتبهها
 وما كان يخجلني هناك ان النساء كانت تحيط بي وتحقق النظر
 اليّ وتكرر الاسئلة عني وعن حالي ويتواصفن وجهي ويظهرن
 استحسانه وربما تمت الواحدة ان تكون عينها مثل عيني والاخرى
 تقول ليت هذا الانف انفي فلم يكن لي فرج الا ان قننا وتحولنا
 الى موضع معد للفواكه والاشربة وانواع النقل فتناول كل حسب
 رغبته ثم انصرفنا ومضى كل الى سبيله واستخجز برهان اباه العدة
 بان يخبره بما ساله وهم الشيخ ان يحدثه به واذا يعقوب يخبره بحضور
 الانكليزي وصاحبه الذي كان ذهب اليه فقال يا بني في غير هذا
 الوقت نتكلم ان شاء الله تعالى ثم دخل الانكليزي وصاحبه فتلاقوا
 تلاقى الاحبة وتهادوا تحية المحبة واخذ كل في السؤال عن حال
 صاحبه وتناولوا اطراف الحديث فكان من كلام الضيف ان قال
 بمناسبة الحال ان مصرًا في سالف الأزمان كانت منبع العلوم ومنها
 انتشر التمدن في البلاد تشهد بذلك الاثار القائمة على مرور الدهر
 كالاهرام والبرابي ومصارف المياه ومواقع المدن والقرى فقال
 الشيخ هل سبق لحضرتكم سياحة في مصر فقال نعم واقمت بها ثلاث
 سنين وثمانية اشهر اتردد ما بين القاهرة واقصى الصعيد وقد ضمنت
 جميع ما رايت كتابًا اطالعك عليه عند التقائنا بباريز في دار اقامتي

الخسارة واستحكام الفساد المؤدي لسرعة زوال حياتهم ومن كلامه الشريف الذي رايته في تلك الكتب ايضاً ان الله يحب من عبده اذا عمل عملاً ان يتقنه فتحيرت من كلامه وتغير خاطري من قدحه في اهل الورع والزهد وضمرت في نفسي ان اسالك عن هذا لتبين لي الحق فيه

فقال الشيخ يا بني انا مخبرك بذلك ومرشدك لحقيقته بعد ان تتم الحديث في نعت ليلتكم وما انتهت عليه

قال برهان ثم قمنا الى موضع اللعب فرايت مكاناً يأسر الطرف ويملا الصدر ويشغل اللب باحكام وضع وزينة وزخرفة قد اتخذ على شكل مواضع النياتر علفت فيه الواح مرسوم فيها غرائب اشكال على غاية ما يكون من الاتقان والملاحة وقد وضع في وسط المكان على دائرة عظيمة من الرخام الثقيل اللماع مرتفعة على كرسي اصناف الازهار والرياحين في اوان مختلفة الاشكال والالوان انبتت عليها اشعة الانوار فكان هناك منظر عجيب يكاد يخطف الابصار ثم اظهرت الالاعيب وكانت عبارة عن صور نساء على اتم ما يكون من الحسن والجمال فاخذت تلك الصور تنقلب من شكل الى اخر تتقارب وتتباعد وتنام واحدة وتقوم واحدة كأنها نوات ارواح لا يشك من رايها ولم يعرف حقيقتها في انها نساء قواصد لتلك المحركات كل ذلك والناس اليها ناظرون ولحباسن ما يصدر عنها متواصفون غير اني كنت في

والحصول على لذاتها والتصون عن آلامها المدة المعينة للحيوان
حسباً اقتضته حكمة صانعه فلذلك توزع الناس الاشغال ما بين
زارع وصانع وطبيب الى غير ذلك فلو فرضنا ان صناع النعال
مثلاً عرفوا المقدار الذي يحتاجه اهل بلدهم في السنة ولا بد لهم من
اخذها واتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها فهم لا شك جازمون
بانه يطلب منهم في وقت الضرورة اليه وياخذون مقابل اعمالهم فيه
فهم واثقون بحصول رزقهم في وقته امر قضت به طبيعة الخلقة
وفرغ منه القدر على هذا جميع الاعمال غاية الامر ان جهالة الرزق
انما هي في زرع يزرع او حيوان يربي فتصبيه آفة سماوية قبل بدو
صلاحه واثبات اخذ ثمرته هذا هو موضع جهالة الرزق على ان
الناس ربما بحثوا عن اسباب تلك الافات فتحرزوا عن كثير منها
ونحن مامورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الاشياء واسبابها
وعلاها وموجبات صلاحها وفسادها واجراء السنن الالهية في
مجاريتها يرشد الى ذلك ما رايته في بعض كتب الاحاديث المنقولة
عن نبيكم (صلعم) وهي في ايديكم تقرأونها وتحاولون العمل بمقتضاها
وهو انه مريوماً على اصحاب نخل المدينة وهم يلقحونها فقال لو تركتم
ذلك فتركوه فشاقت سنتها فقال لهم ما بال نخلكم في هذه السنة
فقالوا الم نبل لو تركتم التلقيح فقال لم اقل لكم اتركوه وانتم ادرى
بامور دنياكم فنبههم على وجوب مباشرة الاسباب والمحافظة على
العادات الكونية وارشدهم الى ذلك باقوى المرشحات من ظهور

حسباً تعطيه قيافة وجهها والفراسة فيه بعلم ادعى ان مهرة الشعراء
مخصوصون بمعرفته فوافق ذلك ان استقبلتها الايام بالسعادة والغناء
حتى آل امرها وامر زوجها الى ما ترى بعد ان كانا فقيرين ربما
لا يدركان القوت وعهدي بموضع هذا المنزل مطرحاً للقمات
وملقى للكناسات وكأن صاحبه كان ورثه عن اهله وكان لفقره
خرباً لا يقدر على عارته فما زال هو وزوجه يدأبان في طلب الغنى
بمباشرة اسبابه والتردد في الطرق الموصلة له حتى اقام هذا المنزل
من اساسه بعد سنين غير كثيرة فهل في بلادكم من يكون له مثل
هذا فقلت له ربما ساعد النجث والحظ من امسى فقيراً فاصبح غنياً
وغدا خاملاً فراح نبيهاً على حسب القسمة وتحول الاقدار ثم اخذ
الرجل في مدح الثراء واطراء الغنى وذكر فوائد المال والثناء على
المشغولين بتحصيله والاجتهاد فيه وتميته وحسن القيام عليه والتعهد
له حتى غض من اهل الورع والزهد وازرى احوالهم وعاب افعالهم
وقال ان كلامهم بين الناس هو الذي اوجب لهم الخمول والكسل
وخشونة العيش وضيق الحال بما ارتكز في قلوبهم من الجهل
وعداوة العلم وطلبه من حيث وجدوه والنظر في اصلاح الحال
والمال حتى ادعى ان الارزاق غير مجهولة وبين ذلك ومثل له
فقال

تعلم ان مطالب الناس منحصرة في اربعة اشياء الاغذية
والادوية والاكسية والاخية لحفظ الحياة واتحرز من ذهابها

على لطائف الاحوال قد دب فيهم وربما درج بين بعضهم وارجو
 ان يبلغ كماله وارى هولاء الناس على هذه الاحوال وذلك سبب
 فكري في حال اهل بلدي حتى انا الان متاسف غير منبسط
 المخاطر لبعد ما بين الحالتين فهذا ما رايت من ذهولي وشخص
 بصري واني لارجو ان تعرفني بما استخبرك عنه وسالته عن الرجل
 الذي احاطت به النساء فاخبرني انه من طائفة القسيسين الذين
 وظيفتهم ان تجمع اليهم النساء ويفضين اليهم باسرارهن فياخذون
 في تعريفهن حقوق الرجال على النساء وحقوق النساء على الرجال
 وازالة ضغائن النفوس والحث على استبقاء الصحة والوصلة وطرح
 التحاسد بالتفاوت في الخلق بالجمال وعدمه والامن باتخاذ الزينة
 واستعارة الحسن وتفهيمهن ان المقصود الاصلي من اجتماع نوع
 الذكور والاناث انما هو النسل واستبقاء النوع وتقوية العائلات
 بالتكثير والتعاون في اصلاح الوطن خصوصاً وعموماً الى غير
 ذلك من الاشياء التي ياخذ بها الانتظام بين الرجال والنساء
 حد كماله وغاية تمامه وسالته عن الرجل الذي يقوم ويقعد ويجيء
 ويذهب فاخبرني انه احد الشعراء الذين حالهم ان يحضروا في
 الولائم ومواضع الانس لالقاء نوادر مضحكة حفظوها وانشاد اشعار
 في امور تخيلوها ترتاح اليها النفوس وتميل اليها الطباع في اوقات
 الفراغ ولهذا الرجل خصوصية بصاحبة هذا المنزل فانه كان صنع
 لها في ايام صغرها وقرها تاريخاً يخبرها فيه باستقبال السعادة والغنا

متعارفون فغالبًا تكون بينهم عداوة للاشتراك في صناعة او التزام
 على وظيفة او غير متعارفين فهم لذلك السبب لا يتردد بعضهم
 لبعض لتعميم المسرة والتشارك في البهجة وتواصف محاسن ما هم فيه
 والمكاملة في امور يطلبون صلاحها ويدفعون فسادها الى غير ذلك
 من الاحوال التي تقتضيها صحة الحياة في بيت واحد عند اجتماعهم
 سيما في اوقات السرور والبهجة والصفاء وانما يكون حديثهم اما في
 الانتقاد على صاحب الدعوة بتسفيه رايه ورميه بالاسراف ان
 كان بذل جهده وتبجح امره ورميه بالنذالة ان اقتصد او قصر
 واما في اغتياب بعض الحاضرين واما في الشكاية والتألم من بعض
 المشاركين له في صناعته في اشياء صدرت بينهم قديمًا او حديثًا
 ذلك دأبهم وحالم حتى اذا انقضت ثلاث ساعات من الليل حضر
 ما اعده صاحب المنزل من الامور التي جرت عادتهم ان يتلوهوا
 بها ويحلبولوا بها انس المحاضرين وسرورهم فاذا كان كذلك تغير
 الوضع فبعض يسمع وبعض يتحدث في امور مختلطة واحوال غير
 منتظمة وربما وجدت الواحد منفردًا يتحدث مع نفسه او يستمع او
 ينظر الى الناس ميمًا وشمالًا كأنه يتأملهم ويتحنن مقدار عقولهم حتى
 اذا مضى خمس ساعات من الليل اخذ الناس في الانصراف الى
 منازلهم شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى الا من حضر من الغوغاء وهؤلاء
 ربما اصبحوا ولم ينصرفوا حتى يبيض النهار فهذا وضع بلادنا قديمًا
 وان كان الان اخذ في التغير لان حب المودة والتألف والاقبال

بها من يكون عندهم فكانه سخرية المجلس يظهر ذلك في اقواله وافعاله ورايت رجلاً متبذراً ناحية عليه سكينه ووقار في ملابس مخالفة للملابس الناس يظهر عليه انه قسيس وقد احاط به جملة من النساء وهو يتحدثهن فيلتفت لهذه ثم يلتفت لهذه وكأنه يقرأ لمن درساً او ييدي لمن نصائح فكنت باهتاً متعجباً فالتفت الي صاحبى وقال مالك شاخص البصر كانك متعجب من هذه الاحوال فقلت اي وحياء مولاي وكيف لا اتعجب وهذه امور ما رايت مثلها في بلادنا فان حال الناس هنالك اذا كانوا في مثل هذه الدعوة انهم يحضرون اما فرادى وهو الغالب واما انسان وصاحبه فاذا دخلوا دار الوليمة جلسوا او سلم عليهم صاحب الدار وحياتهم ودعاهم بالقهوة فشربوها يفعل ذلك مع كل من حضر فاذا شرب احدهم القهوة اخرج كيس الدخان من جيبه وملاء شبكه وصرخ يطلب جمرة من رجل اعد لتفريق النار على شبكات الحاضرين وان كان لاحد منهم خادم ملاء الشبك وناوله لسيدته ثم لا يزالون على تلك الحال حتى اذا نصبت الموائد قاموا اليها فتناولوا جماعة جماعة ان كانوا كثيراً لكون المدعوين يحضرون في اوقات مختلفة يعينها صاحب الوليمة في الاوراق التي يرسلها لهم قبل يوم الدعوة فاذا فرغوا من الطعام عادوا الى مجالسهم التي كانوا بها قبل الطعام ودارت عليهم القهوة الغينة بعد الغينة واخذوا شبكاتهم على الرسم السابق وتحدث كل مع من يليه لا يجاوزه الى غيره لانهم اما

والغرائب ويصف ما في الارض من العجائب الى ان جاء وقت
القيام الى الطعام وقام صاحب المنزل وزوجه ودعوا الناس الى
القيام فكان اول من دعي رجل نحيف البنية متوسط القامة يظهر
على وجهه اثر الحزن ورايت اهل المجلس جميعاً يعظمونه زيادة عن
تعظيم بعضهم بعضاً فسالت صاحبنا عنه فقال لي انه من امراء
ايتاليا المعتبرين

ولما ان وصلنا الى السفرة وقعد كل منا في المحل المخصص له
كان ذلك التلياني في الصدر وعن يمينه صاحبة المنزل وعن
يساره صاحب الخواجا وانا بجانبه فمكثنا على السفرة نحو ساعتين
قضاها القوم في مدام وندام وشراب وطعام ثم قاموا وكان اول
من قام صاحبة المنزل فمد التلياني يده اليها ليقوم معها ثم قام
الناس جميعاً فمن كان له منهم حرم اخذ بيدها ومن لم يكن حرم
قام منفرداً ثم مضوا جميعاً الى حجرة اعدت لشرب القهوة والدخان
وتلك من عادات القوم حجرة للطعام وحجرة لجلوس الفرجة والنزهة
والابتهاج بما يحضرونه من الالعب وحجرة للاشربة وانواع
المكيفات كل موضع لشي لايفعل فيه غير ما له اعد فاخذ الناس
مجالسهم وكنت الى جانب صاحبي واستقروا قدر ما شربوا القهوة
ثم اضطرب المجلس فرايت رجالاً اخذوا بايدي نسائم وجعلوا
يترددون في محادثة وموانسة ورايت رجالاً كالمعتوه يقوم مرة ويثعد
مرة ويمضي لهؤلاء وينعطف على آخرين ويتحدث بكلمات يضحك

الى ان قال وليت الوالد كان معنا ليرى ما نراه فربما لا تفي العبارة
اذا نحن عدنا واخبرناه الى ان انتهت بنا الطريق الى باب عال
داخله ميدان واسع فاستقبلنا الخدم من الباب بغاية التعظيم والتكريم
ومشوا معنا الى ان دخلوا مكاناً فسيحاً غاصاً بالناس فيه نحو
خمسة نسمه من رجل وامرأة فاستقبلتنا صاحبة المنزل بغاية
الترحب والتاهل ثم اتى بعلمها وفعل مثل فعلها واخذ بيدي الى
المجلس وذكر لم اتي من مصر فحيوني جميعاً ورحبوا بي وقدموا لنا
كراسي جلسنا عليها وكان بالمجلس رجل تلوح عليه هيئة الهيبة
والوقار يتكلم بالعربية كأنه ليس من ابناء هذه الديار فسألني عن
بلدي وعشيرتي ومحمدني وعن امور كثيرة منها ما اعلم ومنها ما لا
اعلم حتى سألني عن الاهرام وبعض المعابد والهاكل التي مجهة
الصعيد فكنت تارة اجابوه مع الخجل وتارة اتستر بالصمت فيبادر
صاحبنا برد الجواب وربما يزيد فوق ما يريد فما اتقذني من
ورطة هذا المجلس ومضايق تلك الاسئلة غيره ولولاه لكنت
اضطرت الى الاعتراف بالجهل لما علمه الاغراب من امور بلادنا
وما بها من الاثار العظيمة والمباني القديمة فقد وجدت ذلك
الرجل يذكر اموراً ليست في علمنا ولا اطلعنا على نص لها في
كتبنا وكان باقي اهل المجلس يتكلمون في انواع مختلفة من امور
الدنيا فمنهم من يتكلم في اسباب كساد التجارة ورواجها ومنهم من
يتكلم في محصول الارض وخراجها ومنهم من يتكلم في النواذر

المسامرة المحادية والخمسون

دعوة انس

قال ناقل الحديث وحين انتهى بها الكلام الى هذه الغاية استأذن الانكليزي صاحبه الشيخ في المضي الى الوفاء بوعد بينه وبين رجل من اصحابه كان لقيه بالامس واخبره انه يريد لقاءه والتحدث معه ساعة فشكره الشيخ على ذلك وظهرت في وجهه بشائر المسرة وخلا حينئذ ببرهان ابنه فقال الان تخبرني بجميع ما شاهدت في الدعوة التي كنت بها امس

فقال له برهان حاصل القضية ان حضرة الخواجا عرفني ونحن في الطريق انه زاهب الى بعض اصحابه ليذهب معه الى دعوة عند احد الاغنياء وان هذه الدعوة يحضرها اعيان البلد ووجوهها واننا ننتهز منها فرصاً حمة اقلها معرفة اخلاق هذه الامة

وتعلم تدوين الدواوين والمشاورة في المصالح من التلق و اخذ
 التياتر والالعاب المضحكة عن القرّة
 واخذ المحذر عن الغراب واتخاذ الجلساء للملوك عن الكلاب
 وكذا لثم اليد التي يخاف سطوتها
 واخذ الجور والجراة عن السبع والكبر والخيلاء عن النمر
 والجهورية عن النمل

قال الشيخ الانسان وان قلد الحيوان في بعض احواله
 وبرع في كثير من اعماله لكنه الى الان لم يصل الى تقليد النمل
 في طريقة ادخاره لاقواته الازمان الطويلة من غير ان تلتف والظاهر
 انه اخذ عن الحشرات فن الرسم والنقش وهندسة العمارات
 وصب المعادن في قوالب مختلفة وعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم
 الرياضية وللان لم يصل الى استيفاء جميع ما عندها من الاسرار
 ومن نظر في امور الانسان والحيوان وما لها من الاحوال والاعمال
 علم ان الانسان لولا مجته واستكشافه لاحوال جيرانه في الارض
 من الحشرات وغيرها لكان في العجز عن تحصيل منافعه واستكمال
 اسباب راحته اقل من كثير من الحيوان

واخذ الانسان علم الملاحة عن الدب الذي يوجد في المنطقة
الشمالية من الكرة الارضية فانه يسافر في البحر على قطع من الثلج
الى حيث يقصد

وتعلم الصيد والتقص من الثعلب البحري البري ومن بعض
الحشرات الصيادة

واخذ الاسلحة كالسيف والحرية والمنشار والبلطة وغيرها من
تامله في السمك

واخذ صنعة الشباك من مشاهدته لبيت العنكبوت وقد

تقدم

واخذ صناعة الدروع والكماشات والملاقيط عن السرطان

واخذ صناعة احتماق النشوق عن الاستريديا وام الخلول

واخذ علم الفلاحة عن الخنزير فانه اول حيوان شق الارض

بخرطومه فاخذ عنه الانسان صنعة حراثة الارض ولعله كان

ايضاً اول معلم للانسان في كيفية استخراج المعادن كالذهب

والفضة من الارض

واخذ عن الهرة التوقي من الروائح الكريهة التي تتصاعد من

الفحم

واخذ الطب عن الكلب حيث رآه يتعاطى امسهلات عند

انحراف مزاجه

واخذ تجنيد الجنود وتعبئة الجيوش من النحل

الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يوارى سواة اخيه وان
ابن ادم قال يا ويلتنا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري
سواة اخي فاصبح من النادمين

قال الانكليزي لاشك في ان الانسان تعلم من الحيوانات
واخذ عنها واقتدى بها فانها خلقت قبله وتقدمت عليه فانه لما
كان محتاجاً اليها من جهة المساعدة والمؤنة اقتضت الحكمة الربانية
ان تسبقه في الخلقه فلما جاء بعدها تعلم منها واخذ عنها فلم تكن
اعمال الانسان كلها من مبدعاته وانما نقلها من الحيوانات والحشرات
وقلدها فيها بل ربما لم يتقن التقليد في بعضه وظهر عجزه فيه مع ما
له من العقل واللفظة

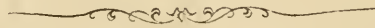
ولقد عاش مدة في الادواح والاجام كما تعيش الضبي والمها
وعاش قبل ذلك مدة في الحجر تحت الارض كما تعيش الجرزان
ومضى على ذلك مدد طويلة واجيال كثيرة ثم قلدها النمل في
اتخاذ البيوت المنتظمة التقسيم والشكل

وتعلم عمل الجسور والقناطر من الحيوان المسمى بالكستور وهو
المعروف بالجندبادستر الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر او
بركة ويتخذ له من اغصان الاشجار جسراً متيناً على هيئة سد يمنع
عنه قوة السيل بان ينضد تلك الاغصان بعضها فوق بعض
ويلصق احدها بالآخر الصاقاً محكمًا لا يتقصه شي مما يحتاج اليه
من هندسة البناء

المسامرة الخمسون
الانسان والحيوان

قال الشيخ من نظر في افعال الحشرات وغيرها وقارن
بينها وبين افعال البشر وجد بينها قراباً ومناسبة ظاهرة تحمله على
ان يقول ان احدها اخذ من الاخر فأيها كان المعلم وأيها المتعلم
الظاهر ان المتعلم هو الانسان وان المعلم هو الحيوان وان اكثر
معلومات الانسان ومعارفه التي بنى عليها اعماله ماخوذة من
الحيوانات صغيرة وكبيرها وهي اساتذته في ذلك فمن اطلع على
احوال الحيوانات وما لها من لطائف الصناعات علم ان من حكمة
صانع العالم سبحانه ان ضرب له المثل بها ليحذو حذوها ويسلك
في تحصيل اغراضه الطرق التي سلكتها وقد حكى لنا الكتاب
العزیز ان احد ابني آدم قتل اخاه فلم يعرف ما يصنع بجيفته فبعث

الحيوانات الثعينة والفطرية وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية
وفي الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الامم السالفة ولم
يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض اسرارها
الآن منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لانها لما فيها من خاصية
تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت اعضاء هذه الحيوانات
الدقيقة فتيسرت رؤيتها وامكن للانسان ان يمتحن احوالها ويعلم
كيفيةها فان اردت اطلمتلك على ذلك عند وصولنا الى باريز
واريك النظارة واحضر لك بعض عصارات نباتية وغيرها لتخبرها
بنفسك وترى ما فيها من الحيوانات بحسك



الحشب حتى انهم الان يضعون اوراقهم في علب من التوتيا خوفاً
عليها

ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضرراً بيناً وربما حفر له
فيها بيوتاً ومغارات وعمتها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج
منها خمسة عشر او عشرين قدماً فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها
وربما احرقت اماكن هذا النمل بالنار او ضربت بالمدافع لتخريبها
ان امكن وقد يستعمل اللغم في تخريبها اذا كانت عميقة ممتدة في
جوف الارض فقد تبلغ في العمق الى عشرين قدماً في داخل
الارض

والكلام في هذا المبحث طويل والذي ذكرته لحضرتكم اقل
من القليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل وعمما قريب ان شاء الله
يتوسع الاستاذ في اللغة الافرنجية فيطلع بنفسه ان اراد على ما
شرحه اهل التاريخ الطبيعي في هذا المعنى وغيره بالاطناب
والتنفصيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه
المحشرات بل هي منبثة في جميع افراد الخليقة فقد منح الصانع كل
جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وامور غريبة تجدها
في الاشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة وتراها في حيوان البحر كما
تبصرها في حيوان البر ومن اعجب العجب احوال حيوانات دقيقة
جداً امكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا
ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند ارباب الفن

قال لاحد الفارين من النمل كيف اخرجكم النمل من دياركم
 فاخذ بيده وقال هلم معي لاريك ذلك وحمل من طريقه راس
 حمل مشويًا فلما انتهيا الى بعض تلك الدور اكل ذلك الراس
 وامر صاحب المنزل خادمه باحضار طست كبير منصف بالماء
 ووضع عظام الراس الى جانبه فسعى النمل اليها وصار ياخذ
 النمل وينفضه في الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطست
 فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال فسبحان من
 خلق الاشياء وعرف الانسان قدره بتلك الايات فهذا جيش من
 النمل اخرج قومًا من ديارهم وابطل حيلهم وقواهم واعجزهم ليفهموا
 قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفًا ويقفوا بانفسهم على مواضع
 الاعتبار وتكون مساعيم فيما له خلقوا وكل ميسر لما خلق الاجله
 على حد الادب مع الخلق وخالقه

قال الانكليزي ومن النمل نوع اذا بنى له بيتًا لا يجعله
 هرميا بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل يصنعه من
 مواد صمغية واجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل في داخله
 ضروبًا وطرقًا كثيرة تفوق الوصف ويكون في العادة بين فروع
 الشجر

وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديرية
 الجنوبية من فرنسا فخرّب بسببها بيوت كثيرة وسقطت اسقف
 وحيطان متعددة ولم يبق في (روشفور) شي من الكتب ولا

يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة فلو كان
ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة لكان ارتفاعه قدر
اكبر هرم من اهرام الجيزة اربع مرات او اكثر

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها
سرايب يتوصل منها الى اكل ما فيها من الخشب ولا يزال حتى
يأتي عليه ولا يبقى منه الا ظاهره فتسقط البيوت باقل حركة
يفقد الانسان بيته في زمن يسير وكثيراً ما تسلط ذلك النمل
بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فانلقها وخربها عن
اخرها واضطر اهلها الى الرحيل عنها الى جهات بعيدة لتسكنها
وتبني بها بلادها ومدائنها

والعجب ان ذلك النمل لا يحتاج في مثل هذا العمل الى
مدد طويلة بل يقضيه في مدة قصيرة وايام يسيرة وقد حكى بعضهم
انه راه اكل سلماً كبيراً من الخشب في مدة خمسة عشر يوماً وياكل
مثل الكرسي والمائدة والدولاب في اقل من ذلك فيرى الانسان
هذه الاشياء واقفة بهيئتها على اصل صورتها ومتى مسها بيده صارت
تراباً مذروراً وراحت هباءً منثوراً

قال الشيخ رايت في بعض الكتب ما هو اخف من ذلك
فكنت استغربه فالان زال استغرابي حكى الجاحظ في كتاب
الحيون انه في بعض الايام كثر النمل في بعض ضروب بغداد
حتى ارتحل عنه اصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وان بعض الناس

وللذكران منه اجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والانات
اجنحة وتخص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالمحفظ والضبط
والحراسة واما الاناث فعليها البيض واكثر النسل وتربية الذرية
والقيام بامرها وهي كثيرة البيض الى الغاية حتى كانها كيس مملوء
بيضاً فان حجبها مملوءة بالبيض قدر حجبها فارغة الف مرة ومتى
ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة وقد
يبلغ مقدار ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين الف بيضة كذا
قال والعهد عليه

فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من
النمل في جهة راس الرجاء الصالح وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه
مما يقضي منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الارض قد يبلغ نحو
عشرين قدماً وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الحجم واسع
اسفله ضيق اعلاه فمن راي هذه المساكن على بعد ظنها كفرة من
الكفور او قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث
لا يمكن كسرها لشدة صلابتها ودخلها فسيح جداً حتى ان الواحد
منها يسع اثني عشر رجلاً يقفون به وقد يتخذها صيادو الوحوش
ماوى يكمنون فيه لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه
المدافع الكبيرة ممتدة في الارض الى عمق ثلاث اقدام او اربع
فلو نظرنا الى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من
المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه

الالوف بالالوف والتفت الساق بالساق وصار كل من الفئتين يتتبع بما صادفه امامه في الارض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس به ويتحصن خلفه من عدوه وكان البعض يقاتل ويضرب والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الاسرى وكان يرى على الاسارى علامة الحزن والكتابة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو قال ورايت محل المعركة قد تغطى برم القتلى ودماء الجرحى وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للاخر فتماسكا بالارجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه الى جهته ثم اتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه الى ناحيته حتى صار الاولان مع ما انضم اليهما من المدد اشبه شي بمجمل طويل يشد احد طرفيه الى جهة والطرف الاخر الى الجهة المقابلة لها حتى يغلب احد الطرفين فياخذ غريمه الى جهته او يحصل الانفصال من غير ان يغلب احد ثم يعود القتال فاذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب الى الصباح ثم يعود كل الى ما كان عليه وهكذا وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست اقدام طولاً وقدمين عرضاً

فقال الشيخ كنت فيما سلف اجتمعت برجل من اهل السودان فاخبرني ان ببلادهم نوعاً من النمل ابيض اللون يتجمع جموعاً كثيرة ويكون منه طائفة كالجند والعسكر وطائفة كالعمال

عليها دفعة واحدة وياخذها ويحبسها في منزله كما يحبس الادي
 البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدا بالطعام
 والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة

واغرب شي ان هذا النمل يعمل حول بيته جسوراً منيعة
 اولها عند بيته واخرها بعيد عنه محنط بالحشائش التي ترعى فيها
 الحشرات المذكورة وقد يتخذ لها اماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص
 منها فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما اعد لها من المرعى وتعطي لبنها
 للنمل متى اراد وفي بعض الاحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات
 عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر
 منشاؤها عداوة طبيعية او حوادث وقتية وقد وصف بعض
 المشاهير من علماء هذا الفن وقعة رآها بين قبيلتين من جنس
 واحد من النمل فقال كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد
 وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم اعلم السبب الذي
 اوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وانما رايت عدد المحاربين
 من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاً عظيماً جداً بحيث يتعذر على
 دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر قال ثم
 رايت الفريقين اخذا في الزحف على بعضها الى ان التقى الجمعان
 في قدر قدمين من الارض في منتصف المسافة التي بينهما ورايت
 خلف كل جيش عدداً معداً للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من
 اتخاذ المدد في الحروب ثم جميت الحرب والتحمت الصفوف والتقت

وظباع هذا النوع مختلفة باختلاف الاماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها فترى الارقاء في بلاد السويس هي التي تبني المساكن وتقف على ابوابها بمنزلة البوابين فتفتحها في اول النهار وتغلقها عند دخول المساء او ظهور علامات تدل على المطر وقد شوهد في بلاد الانكليزان الاتباع والارقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط وفي بلاد السويس عليها بعض الخدم الخارجية ايضاً بسبب كثرتها

وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق فان هناك نوعاً صغيراً الجثة لا يقبل الضيم والذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاوم اعداءه بشدة باس وشهامة فتحشاه وتمابه وتجنبه حتى انها لا تقرب عائلته ولا تسلط على اولاده بل يرى بعضه ساكناً بالقرب من مساكن جيوش النمل المحاربة مع الامن والاطمئنان من غير ان تناله بمكروه تعلمها بشجاعته وباسه

ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربه على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك ان يتخلل النبات فيجد في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منها مادة سكرية يجيها النمل حباً شديداً فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبق الحلوب بالنسبة للانسان فيصعد اليها فوق اطراف النبات والاعشاب ويركب كل واحد واحده وفي بعض الاوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويتحزب الكل ويسطو

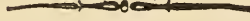
ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ أشدها
وهذا النوع المحارب المحب للسلب والنهب لا يجب ان
يشتغل بشي سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته الى
ما عنده من الارقاء والخدم حتى انه اذا احتاج للانتقال من مسكن
الى اخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بافواهها كما
تفعل الهرة باولادها

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن احوال الحيوانات
بعض النمل الذي تخيل فيه التراس والامارة والرفاهية والاحتياج
الى خدمة الغير له فاخذ جماعة منه وافردها عن خدمها ثم احضر
لها شيئاً ما يتغذى النمل به ويتمالك في طلبه فوجدها غير طالبة
لما احضر لها حتى مات اكثرها جوعاً ثم انه نقل اليها واحداً من
النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها
فاكلت ما احضره اليها ما كان بمرأى منها ولم تكن تحركت اليه
من قبل فاكلت وشبعت وانتعشت فعلم من ذلك ان هذا
الصف الغالب المحارب بعد ان يبلغ في حروبه ما شاء من
النصر والظفر والغنمة ويحصل على ما اراده من العز والثروة
والسعة قد يستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فياخذ في
الكسل والبطالة ويكل جميع اموره الى ما عنده من الخدم والحشم
والاتباع ولا يشتغل هو بشي من الاشياء فيخل عند نظام الجمهور
وتدور عليه صفوف المقدور بالويل والسيور وتفسد الامور

المكر والحيل والمكائد

ومن النمل نوع يأسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويتخلص بواسطته من الكد والكدر والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعاً من النمل يحمل نوعاً آخر في فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه الى ان ظهر الان ان بعض النمل قد يحتاج الى خدم فيهجم على غيره فيسترقه ويستخدمه في اعماله وسائر احوال مسكنه ومعيشته ومن يراقب النمل ايام الصيف في بعض الجهات يجده يغير على بعضه فيأخذ الغالب منه اولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالباً الا في الليل فيخرج ويصطف صفوفاً متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها فلا يرجع الا وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن ويأخذ ما احب من الذرية ولا يأخذ الكبار لعلمه انها لا تقاد لحكمه فانا رجع بالذرية حملها بافواهه واذا خاب احد من الحزب الغالب ولم يجد اسيراً يسترقه اخذ معه من رم القتلى ما قدر عليه لينتفع به في غذائه وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها الى مساكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة حتى انها قد تشغل مسافة من الارض يبلغ طولها نحو اربعين متراً وبهذه الصورة تعود الى مساكنها بالظفر والغنيمة في حال مسرة وطرب فانا وصلت الى منازلها بهذه الاسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربيتها مع الصدق والامانة والحذق وتحفظها من كل

مع بعضها فيكون بينها حروب تسيل فيها الدماء ويزهق كثير من
الارواح وقد تغير على غيرها وتخال على سلب ما صادفته عنده
من دخائره وموجوداته



المسامرة التاسعة والاربعون

النمل

ومن هذا القبيل النمل فانه يكون بينه حروب كبيرة
ومناوشات كثيرة غير ان طوائف النمل عند تجهزها للحرب
ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الانسان لمحروبه من العدد
والالات والادوات بل تسهر للقتال بانفسها غير مستصحبة شيئاً
من ذلك معها وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الانسان عنه من

ولكل منها غرض مخصوص قد اعد له فمن الاول يتقض العنكبوت
 علي فنيصته فيقتربها والثاني يلقي منه ما فضل عنه بعد مص دمه
 حتى لا يستقر في بيته شي مما يقع فيه فيقذره ويكون منبهاً لما عساه
 يقع فيه فيجذره فلو تأمل الانسان في اسفل المكان الذي فيه
 العنكبوت لوجد به كثيراً من الذباب مقتولا ولا قاتل له غيره
 ومن العنكبوت نوع مضر لدغه شديد الاثر لكثرة سمه وهذا
 لا يوجد الا في البلاد الحارة واما الذي في البلاد الباردة فلا
 يضر لقلته سمه ولا يخفى ان السم كما يكون في نوع الثعبان والافعي
 كذلك يكون في هوام الارض وحشراتهما ولا يختلف الحال الا
 بالقله والكثرة فان لكل منها اسناناً في فوهات سمية فاذا عضت
 احدا قذفت السم من تلك الفوهات في الجراح التي تحدثها
 باسنانها

ومن هذا القبيل الشبث اعني الحيوان الذي يقال له عند
 العوام ابو شبت فان سمه يكون في الجهات الحارة قاتلاً حتى انهم
 راوا تاثيره في الحيوان الكبير في الزمن اليسير ومنها ما يعدو علي
 الدجاج والحمام فيقتلها ويشرب من دمها ولذا يسمي في بعض
 الجهات بمخناق الفراخ

ومن يتامل الحشرات يجد عند بعضها شدة شهوة وشرة
 فيكون شديد العدوان والغضب كثير الحب للغنيمه والتكسب ولذا
 تراها لاجل الحصول علي شهواتها واغراضها دائماً النزاع والمقاتلة

يكاد يخرج من مأواه إلا إذا دعاه داعي الجوع والسغب وإذا خرج
فكد ساعة واحدة كفته المؤنة أياما إذا كان النمل في تلك البلاد
كثيرا وفي غاية الكثرة وحين يشعر بحمل فيه نمل يبادر اليه ويبدأ
سائكا حتى إذا استقر في موضع ملائم مد له انه على الارض وتلقف
به ما شاء وكلما نال به قدرا بلعه واعاد ما بدا به حتى يتجم فيرجع
الى مأواه ثم انه وان يكن يحذر اعداءه من ذوات الاربع ويتقي
بأسها غير انه اذا اقتهم ووقع في المععة دافع عن نفسه بمخاليبه بأشد
عداوة فيغالب الكلب بل النمر الامريكاني

وهذا الحيوان وان لم يكن من الحشرات الصغيرة إلا انا
ذكرناه بالذي قبله والشئ بالشئ يذكر

فقال الانكليزي من حذاق الحشرات في الاصطياد والتجسس
على بلوغ الغرض حيوان العنكبوت فنه ما يد حباله في الغيطان
بين اغصان الاشجار ومنه ما يدها في زوايا الاماكن واركانها
فيجعلها كالشبكة المصنوعة والحبال المنصوبة وفيها طبقة سفلية عليها
شي من التراب والغبار بحيث تشبهه بالارض فاذا وقعت فيها
الغنيمة من ذبابة او نحوها ما يغتذي به ويصطاده علق بها
حبال متصلة بتلك الطبقة من شبكة فوقها تلتف عليها فترتبك
في امرها ولا تجد للخلاص سبيلا ولا للنجاة حيلة وحيوان العنكبوت
مخبيء في مخدع له هناك اشبه بالفنطرة المعقودة اسطواني الشكل
له بابان احدهما افقي والاخر عمودي على فوهته من اسفل الشبكة

فتلقنتها الحشرة وهي لها بالمرصاد فتقتلها ومصت دمها ثم انها رات
ان بقاء الجثث في الحجر يضر بها ويخشى عليه من تنها وخبث
رائحتها وان رويتها منفرة لما عساه ياتي من الحيوانات الطارئة
داعية للاحتراس والتحرز من الوقوع في مثل ما وقعت فيه هذه
الاجساد من العطب فرايتها بعد ان امتصت دمها الذي هو
غذاءها وبغيتها وتم غرضها منها ولم يبق لها ارب في بقائها
احتملتها على راسها بنشاط وسرعة وطرحت بها بعيداً عن الحجر
بجاس وقوة ثم عادت الى حالتها الاولى ترتقب ما ينساق اليها من
رزق جديد يقع في حبالها ففضبت العجب من حالها

وقد سمعت ان في بلاد امريكا حيوانا كبيراً يعرف بأكل
النمل منه ما يبلغ طوله نحو سبع اقدام فاكثر وارتفاعه نحو قدمين
وله فيما سمعت انواع كثيرة كلها متشابهة في ان لها فماً صغيراً ولساناً
طويلاً يسد مسد الاسنان قد يبلغ طوله نحو ثلاثين اصبعاً وهو
حريص على اكل النمل واهلاكه وليس في اعداء جنس النمل ما
هو اشد فتكاً به واكثر اساءة اليه ونكاية فيه من هذا الحيوان وما
علم من احواله ان مقدار منقاره يكون غالباً ربع طول جثته وطره
غليظ ولسانه في الغالب ذو طاقين وهو وسيلته الوحيدة التي
يتعيش بها ومن طبعه ان يجعل مأواه في الغياض والجبال الخالية
ويخفي احياناً تحت الاوراق اليابسة وذلك لعجزه عن المحاماة عن
نفسه بالقوة والحيلة حين يدهم ما هو اشد منه بأساً ولذا تراه لا

صغيرة تعرف عندكم باسد النمل رايتها تحفر حجراً في الرمل ووجدت على البعد من حجرها نملاً كثيراً ميتاً يظنه من لم يتامله انه أثر دم فاحسبت ان اعرف كيف تفعل فقعدت اتفقد احوالها فوجدتها تحفر حجراً كامل الانتظام في رمل جاف ناعم جداً ورايتها تحفره براسها فتضع راسها في المركز ثم ترفعه فيرتفع التراب معه فتلقيه بعيداً عن الحجر بسرعة وقوة ثم ترفع غيره براسها وتذفه كما فعلت اولاً وهكذا على التوالي والاتصال بحيث ترى التراب يمر من السحاب على التعاقب والتتابع حتى اكملت تعميق حفرتها كما ارادت وجعلت في سطوحها وحوافها من الميل والانحدار ما شأت ثم رايتها دخلت فيه واخفت به بحيث لم يكن ظاهراً منها سوى رجلها فعميت لذلك ومكنت اترقب ماذا تفعل واذا بنملة قد اتت حتى اذا وصلت الى حافته انزلت رجلاها فوقعت من اعلاه الى اسفله فاطبقت عليها تلك الحشرة برجليها وقتلتها ولم تتمكن النملة من الصعود ثانياً لما في حوافي الحجر المذكور من الميل والانحدار مع تهائل الرمل

ثم وجدت ايضاً دودة كبيرة اتت على حافة الحجر فوقعت فيه كذلك فاجتهدت في التخلص منه بكل قوتها فلم تمكنها تلك الحشرة من غرضها بل صارت تلقي التراب عليها لتعوقها وتعطل حركتها حتى كلت وضعفت قوتها لكثرة صعودها وسقوطها وما كابدته من التعب والعناء فوقعت في مركز الحجر ساقطة لاحراك بها

من الجهد ودفعها بالقوة والبأس فان تفلتت منه بحث عنها بغاية
 الجهد والاعناء والهمة وهو في حال من الكآبة والحزن تلوح عليه
 اثارها وتظهر سماتها ولا يزال كذلك حتى يجدها ويعود بها لما كان
 عليه فان اضلها او اخذها انسان ويؤس هو من العثور بها باض
 غيرها وصنع بها كما صنع بالاولى فاذا تمت صلاحيتها واستدارتها
 حفر لها حفرة في الارض ودفنها فيها وتركها

وبما له من هذا العمل والجهد ومزيد الكد والجهد احترامه
 المصربون وجعلوه علماً ودليلاً على الخصب والبركة وحسن
 السعي والحركة

فقال الشيخ هذا كله من جملة ما انعم الله به على انواع
 مخلوقاته حيث خلق في كل نوع ادراكاً لتحصيل ضرورياته
 والتحليل على قضاء حاجاته والسعي في وقاية نفسه وبقاء نوعه
 وجنسه فرأفته سبحانه عمت سائر المخلوقات لا يستبد بها قوي على
 ضعيف ولا يفرق فيها بين وضع وشريف بل الكل مغمور في
 بحار احساناته ورحمته العامة لجميع مخلوقاته ومن تأمل احوال
 عالم الحشرات والهوام وجد فيها من الادراك والالهام ما لا تحيط
 به العبارة ولا تصل اليه الاوهام فمنها نوع لا يتعيش الاً باكل
 الصيد فيستعمل طرقاً تكاد تجعله لاخلافها انواعاً فمنها ما يقبض
 خلف ما يصطاده فلا يتركه الاً اذا ظفر به ويقبض عليه ومنها ما
 ينصب شباكاً ليقع عدوه في حبالها وقد صادفت ذات يوم حشرة

فترى حب هذا الذباب للاكل من الحبي حمله على حسن التدبير
 في الاخذ من الجنة مع استبقاء حياة الحيوان وعدم ازهاق روحه
 بالكلية ومتى حان الاوان لخروج تلك الذرية من تحت الجلد الى
 الفضاء ولم يبق لها حاجة الى استبقاء حياته فعند ذلك تأتي على
 ما فيه من الاعضاء المهمة وتبادر الخروج من خروق تثقبها في
 جلده ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكمًا
 تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجنة فتغطيها بكثرتها بحيث لا ترى
 العين منها شيئاً

ومن الحشرات التي لها مزيد اعتناء بحفظ نسلها الجمل (وهو
 ابو جعران) الذي كان يعظمه المتقدمون من المصريين وان كان
 لا يحنفل الاً بواحدة من بيضه في المرة الواحدة وذلك انه اذا
 باض عمد الى روث دابة من الحيوانات الاكلة للنبات كالبقير
 والغنم مثلاً فياخذ منه قطعة يضع بيضته في وسطها ثم يلفها
 ويدرجها الى جهات مختلفة حتى يجعلها كروية الشكل فاذا
 صارت بهذه الصورة لف عليها رجليه الخلفيتين لان فيما انحنا
 وقابلية لهذا العمل ثم يدرجها ويجرها معه الى اي جهة ذهب
 فتكتسب صلابة وملاسة بكثرة دحرجتها ومرورها على التراب
 والرمل الناعم ولا يفارقها العروض مانع يمنع وقاطع يقطع بل يغالب
 بها الموانع والقواطع ولا يزال يجرها حتى يبلغ بها حيث شاء فاذا
 صادف ارضاً ذات ميل وانحدار كسفع جبل او نحوه يذل ما عنده

غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به لحاجة ذريته
ثم ان اغذية الحشرات كغيرها من الحيوانات مختلفة باختلاف
انواعها فمنها ما لا يتغذى الا من حيوان حي ولا يذوق شيئاً من
الحيوانات بعد خروج روحها ومفارقة الحياة وذلك دأبه وطبعه
من حين ظهوره في حيز الوجود وابتدائه في تناول الغذاء وحيث
كان في وقت صغره وزمن طفولته لا يتأني له صيد ما يتغذى
به من الحيوانات الحية ولا يمكن للام صيدها وقيدها بقربه لياخذ
منها ما اراد في اوقات الحاجة فلذا تحال الام لذلك بان تعدو
على بعض الحيوان فتلقي على جسمه جزءاً من السم بخدره ويعدمه
الحركة مع بقاء اصل الحياة فيه وتأتي به على هذه الحالة لتجد ذريتها
عند خروجها من البيض حاضراً عندها فتتمشقه وتتغذى منه متى
ارادت وهذه حالة بعض الذباب فانه يحفر ليضه حجراً في الارض
يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت او دودة يعج فيها جزءاً من السم
فتسكن حركتها ثم يحملها الى حجره ويلقيها عند البيض ويسد عليه
فاذا خرجت الاولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها ومن
اضطرار الذباب الى الغذاء من لحم الحي كان عنده جراً على
الحيوان فتراه يعمد الى الدودة الكبيرة مثلاً فيخرق جلدها بخرطومه
ثم يضع بيضه على كثرته ووفرته موضع الخرطوم وتحت الجلد فاذا
حصل الفقس وخرجت الاولاد تغذت مما في ذلك الخرق من
اللحم والدهن ولا تقرب الاعصاب المهمة للحياة الا عند تهيئتها للخروج

محلها فينزلنها بذلك البيت الفسيح فتمى استقرت به احاطت بها جميع
 العملة يخدمنها ويغذيها باحسن ما يستخرجنه من الشهد العظيم
 الذكي الرائحة فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية التي يغدقن بها
 عليها وتحرك عليها شهوة النسل والميل الى الفحل والرغبة في
 اكثار جنس النحل وتكون اليعسوب لم والاميرة عليهم فتامروتنهى
 وتصرف على حسب ما تقتضيه قوانين السلطنة ويعظم عندها
 حب اولادها الى حد لا غاية فوقه

وشققة الحشرات على اولادها تفوق شققة غيرها من الحيوان
 بمراتب كثيرة كما يعلمه من عني بتبع امورها ومقارنتها بغيرها فان
 كان في غيرها من الحيوان ما يتف شعربطنه ليجعله فرساً لاولاده
 كالارنب مثلاً ففي الحشرات ما يفعل اعظم من ذلك بدرجات
 كثيرة فانها تتف جميع شعرها لاولادها ولا تكتفي بجزء منه دون
 جزء ومتى باضت الحشرة لفت بيضها في عدة اثواب تصنعها لوقايتها
 من العوارض الجوية ثم تموت هي

وهناك حشرات اذا باضت ضمت بيضها الى بعضه وغطته
 بنفسها واحاطته من كل جهة بجسمها فتكون له كالكيس والوقاية
 ثم تموت فاذا خرجت الاولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما
 فعله بها اصلها وهكذا

وهناك نوع قد تؤديه شققتة على اولاده الى استعمال طريقة
 هي خبير له من قتل نفسه من اجل اولاده وذلك انه يعدو على

انتظام العسكر سواء كانت سائرة للانتقال او لتحصيل القوت او للقتال فتراها سائرة سير فرق منتظمة وجيوش مرتبة يقودها رئيس يسوسها وقد جعلت امامها وخلفها افراداً تكشف لها طريقها وتخبرها بما يعرض من حادث تحذره او عدو يخاف ضرره

ولا شي اعجب من عمل النخل في اتخاذ يعسوب لها اذا اقتضى الحال ذلك فقد علمت ان جميع الاعمال على الاناث التي هي العمال وانه لاشي على الذكور سوى تلقيح الام التي هي اليعسوب وانه لا يبيض ولا يميل للسفاد من الاناث الموجودة سواها واما بقية الاناث في داخل الخلية فكالمترهبة لا تميل الى ما تميل اليه نفس الانثى من سائر الحيوانات وانما تؤدي ما يلزم من الاعمال وتجتهد في تربية ما وكلت به من العيال ولا تعطى الاناث من حال تربيته الاغذاء قليلاً جداً على قدر الاحتياج الضروري كما كانت تربيتهن في الاصل بهذه الصفة ولذلك يضم جسمهن ولا يعظم حجمهن ولا يكون فيهن ما في اليعسوب من خاصية الميل الى النسل

فاذا فقد اليعسوب من الخلية اخترن من بينهن واحدة يوهلنها لان تكون يعسوباً وذلك لعلهن بما فيهن من اصل الجنسية والقبول لتلك الصفة والخاصية فيخترن بيتاً من البيوت يكبرنه ويزدن في سعته حتى يصير في قدر الواحد من البيوت المعتادة خمس مرات ثم يذهبن الى تلك التي اخترنها فياتين بها من

وتفرغ فيه سمها حتى يموت لوقته وحيثئذ تشتغل بمواراته لعجزها عن
 حمله ونقله الى خارج الخلية بسبب كبر جثته فينخط رأي الجميع
 على دفنه خوفاً من افساد الخلية بنثنه فتنتقل الى الخلاء وتاني
 ببعض مواد صمغية تستخرجها من النبات بما اودعها الله سبحانه
 من الآلات فتكسوه به تلك الجثة الميتة وتغطيها بطبقة سمكية ثقيا
 من التعفن وتلفها لئلا محكما كما كان قدماء المصريين يفعلون بموتاهم
 ثم تودعها في حفرة مخصوصة تواربها بها في داخل الخلية فتتخلص
 بذلك من اذى هذا العدو في الحيوة وضررتنه بعد المات

فهل مع ذلك يقال انها مجردة عن الادراك والتمييز حاشى لله
 ما هكذا خلقت بل جميع اعمالها مرتبطة بحسن التقدير والاحكام
 والتدبير لوقاية نفسها وبقاء جنسها ألا ترى ما يفعله النحل بالحيوان
 المعروف بسرنجوس وهو نوع من الحمار يعيش في البر ويتغذى
 من نبات الارض واغصان الأشجار فانه يدخل الخلية في بعض
 الاحيان فاذا احس بالنحل ورأى هجومها عليه انكمش في محارته
 ونترس بها وتحصن فيها فلا ياتي اليها التوصل الى لدغه والفتك
 به ولكنها مع ذلك لا تدعه حتى تجعل جلده لحده ومحاره قبره
 فتاني بمواد صمغية تسد بها عليه محارته فلا يمكنه خرقها ولا النفوذ
 منها فيموت بمكانه أفلا يثبت للنحل بهذه الحيلة شي من الادراك
 والتفكير ام يقال ان هذا الفعل منه اتفاقي من غير تبصر ولا تدبر
 ومن لطائف بعض الحيوانات انها عند سيرها تكون منتظمة

لونا الحمر يضرب الى الخضرة

وبعضها اذا وقعت في يد احد اخرجت من بطنها بخاراً
ابيض ذا رائحة كريهة مع دوي مفرع وصوت مزعج فيرميها من
يده فتجرب بنفسها وكذلك اذا احست بطالب يقتفي اثرها فعلت
ذلك مراراً لتهرب به طالبها وترده عنها وهي مولىة على عقبها
مسرعة في هربها ومن الغريب ان بقية بنات جنسها متى سمعت
صوتها فعلت مثلها كأنها تساعدها على عدوها فيجتمع من اصواتها
المرتفعة ودويها الهائل ما يرد طالبها عنها فتجرب منه

ومن هذا القبيل الحشرات التي تأكل العنكبوت فانها تتحامل
حتى تجعل لها ثوباً من بيت العنكبوت وتعفر جسدها بالتراب حتى
لا تميز منه فياتي العنكبوت فتأخذه وهو لا يشعر بها ثم تخلع ذلك
الثوب وتعود الى حالتها الاولى

ومن ذلك النحل فانه اذا دخل بيته بعض اعدائه انقض
عليه بعض العمال في الحال فيلدغه ويقتله ثم يرمي به خارج
الخلية ويعود لعمله وما كان فيه بغاية السرعة والنشاط فان كان
العدو كبير الجثة شديد البطش والقوة بحيث لا تقدر عليه التي
تصادفه من النحل تراها في الحال اسرعت باثذان بقية اخواتها من
العملة بامرهم واستدعائهم لقتاله فتنتال عليها من كل جانب وتنسل
اليها من كل حذب وتحدر عليه انحدار السيل فتهمج عليه وتقاتله
مع غاية الاقدام والبسالة والجرأة فتلدغه كل واحدة منها بحميتها

وكثيراً ما يوجد عند بعض الحشرات من قوة الادراك ما يعينها على طرق الحيلة والتدبير والمكر والمخداع وامثلة ذلك اكثر من ان تحصر فمن ذلك ان بعض الحيوانات لا يأكل الا ما كان حيا ويعاف ما وجده ميتاً فتره في قرار الماء دائماً يسعى في تحصيل ما يتصيده ليتغذى منه فتمت عثر بدودة ما يطلبه اسرع اليها واقض عليها وفي الدود ما يعرف ذلك ويخال له فترى الدودة اذارات عدوها هذا تركت الحركة بالكلية وتماوتت وصارت كأنها لا حياة بها فتدخل هذه الحيلة على غريمها فيتركها ويمضي لسبيله فتمت زاته ابتعد عنها نهضت بغاية ما يمكنها من السرعة وهربت وجدت في الفرار وذهبت

ومن الحشرات ما تعودت الاطفال على صيده واللعب به فاذا حل في ايديهم تماوتت وهافت حتى يروونه كالبيت فيطرحونه لقرارته فاذا طرحوه فر ونجا بنفسه

وبعض الحشرات يتحيل على التخلص من التعرض له والرغبة فيه بان يكسو جسمه بثوب رث قدر كربه الرائحة فيبع المنظر تجبه العين وتعافه النفس فيبقى فيه فاذا امن على نفسه خرج منه في هيئة لطيفة وصورة بهجة

وبعضها تخرج من بطونها مادة قدرة فتجعلها على ظهورها لتعافها الطيور التي تحب اصطيادها واكلها فاذا كبرت التفت تلك المادة فتعلق بما يليها من فروع الاشجار فتسيل على الاوراق وتكسبها

قال الشيخ نعم هو كما تقول وهذه هي الهداية العامة
 المذكورة في قوله تعالى (الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى)
 اي اعطى كل شي من الاشيا صورته وشكله اللائق بما ينيط به
 من الخواص والمنافع ثم هداه الى طريق الارتقا والانتفاع بما اعطاه
 وعرفه كيف يتوصل الى بقاءه وكماله
 فلكل نوع منها حظ من الادراك يتتفع به في امور معيشته
 قل اوكثر كما لا ينكر

قال الانكليزي قد اعنى علماء الطبيعة بمعرفة ما في
 الحيوانات من هذا فوجده مختلف بحسب عظم المخ واتساع الزاوية
 الوجهية فلو نسبت جباه الديدان والحشرات ورؤسها الى بقية
 جسمها بالقياس على جهة غيرها من الحيوانات لوجد رأسها كبيراً
 ومجموعها العصبي عظيماً وذلك بالنسبة لباقي جسمها وبالقياس
 على غيرها من الحيوان كما ذكر حتى ان بعضهم امتحن ذلك فوجد
 في النملة والعنكبوت ادراكا اضعاف ادراك غيرها من الحشرات
 وقد فعل بعض المشاهير من الطبيعيين تجارب كثيرة على
 عدة عديدة من الحيوانات القارية من الانسان الى الاوز فظهر له
 ان زاوية الجهة اذا كانت حادة جداً كانت قوة الادراك قليلة
 جداً وبالعكس اذا كانت منفردة جداً كانت قوة الادراك حادة
 جداً فزيادة الادراك بقدر زيادة الانفراج وعكسه بعكسه كما مر
 وعلم ان الاوز اقل ادراكاً من غيره لصغر رأسه بالنسبة لجسمه

وتقلباتها في اعمالها وجد لها ادراكاً غريباً واحساساً بما يضرها وينفعها عجيماً وافعالاً محكمة واعمالاً مرتبة منتظمة تدل على انها جارية على قانون متظوم ساعية في مقصود معلوم وامر مخنوم وذلك من غير ان تقتدي بمثال تحاكيه وتعمل على شكله الا ترى الى الفراش المعروف بابي دقيق حين يخرج من قبره في فصل الخريف في هيئته التي تراه بها فانه حينئذ لم يكن سبق له رؤية غيره من جنسه حتى يقتدي به ومع ذلك تراه مقبلاً على عمله جاداً في تحصيل امله فاذا جاء فصل الربيع رأته يجتهد في الاستعداد لتناسل غيره منه ويموت من غير ان يرى نريته البتة

وهكذا الدودة التي تعيش في قرار الماء زمناً طويلاً من مدة حياتها مغمورة بما فيه من الطين والحماة متغذية بما فيه من الاغذية حتى اذا جاء الوقت المعين لخروجها من الماء الى الهواء التقت ثوبها الرث الدودي ولبست الثوب المزخرف الطيري وبقيت كذلك مدة حياتها فمن ذا الذي علمها ذلك ولقنها وهي في الماء والطين كيفية معاشها في الفضا والهوا ولم تكن فارقت قرار الماء من قبل ولا تعود لسكنائها من بعد ولا شبه بين حالتها الاولى والثانية ولا مناسبة بينهما

فكل ذلك دليل على ان الله قد خص كلاً من هذه الحيوانات من الادراك بما تحتاج اليه في معيشتها وتهتدي به في امورها لتسعى فيما اعدت له بتدبير خالقها

النوع بيتاً هو على اتم استقامة الاحوال التائسية المدنية اذ طراً عليه
 ظاري فخرج الى احوال لا يصدر مثلها عن الحيوانات العجم غير
 ان يعقوب ازال ذلك عني باحاديث تعجب الالباء في وصف
 بعض الحيوانات الصغار بما اعطيته من محاسن الاشكال ولطف
 الاهتداء الى غرائب الاعمال وسبب ذكره لذلك انه قدم لنا على
 السفرة انا في محار فلم تقبله نفسي فسألته عن كيفية صيده وتسويته
 فشرح لي حاله واطيب وزادني من اخبار بعض الحشرات ما
 اعجب واطرب

فقال الانكليزي من لم يتامل في خلق الحشرات او يخقرها
 ويتهاون بامرها فقد جهل واخطاء فان الله سبحانه خلقها لحكم
 واسرار علمها وان جهلها الانسان او فهمها وقد خصها الله سبحانه
 كما خص غيرها بامور كلفها بها وسخرها لها في هذا العالم لا قدرة
 لغيره على ادائها ولو وقف الانسان على ما فيها من النفع له ولغيره
 لما احقرها وانزلها من دركات الدنات والخسة الى حيث انزلها
 بل لو عرف حقيقة ما اعدت له وما تؤدي عمله لكان ذلك داعياً
 له ان يتنازل عن العظمة والسلطان ويخلع رداء الكبرياء والعدوان
 ويخضع لمولاه جل شاناه ويشكره على ما جعل له من الخير والنفع
 وما دبر له من عجائب الصنع اذ لم تكن هذه الحشرات مجرد اجسام
 متعة بالحياة الى الممات عارية عن الادراك بالكلية كما يزعمه كثير
 من الناس بل لها ادراك كغيرها ومن وفق للنظر في احوالها

الرجل ما وقع للمالك الذين هاجروا من مصر مع الجيش
الفرنساوي وإن ذلك الوقت كان وقت فتن وانتقام ومحن فقد
هدمت قصور وخلت من سكانها قرى ودور وكم تشتت فيها
عيال وأسرت رجال ونهبت اموال وكم هتكت اعراض واستبيحت
نساء وازهقت نفوس وارىقت دماء وكم الفت في ذلك مولفات لو
تليت على حجر لتصدع او على جبل لتزعزع وانحلت اذ ذاك عروة
الحكومة واخزل نظامها وتضعضت احكامها وضعت حكامها
فكان المخلق كالبحر وقت هيجانه او القدر عند غليانه الاقوياء منهم
كالاسود والذئاب والضعفاء كالفريسة بين الانياب ولم يكن
للعقل حينئذٍ سطوة بل غلب على عقلم جميعاً حظ النفس
والشهوة فكان ينال الناس في اليوم الواحد ما لو وزع على سنين
لكفاها فنعوذ بالله من تلك الاوقات واهوالها ومن احزاب السوء
واعمالها ولم يكن هذا التعدي قاصراً على المالك بل عم الامة جميعاً
خصوصاً جماعة الامراء والفضلاء وارباب الوظائف والعلماء فمنهم
من قتل ومحي اثره ومنهم من فر بنفسه وانتطع خبره فاصبحوا لا
ترى الا مساكنهم وصار البلد خراباً وتفرق من بقي به احزاباً كل
يدبر ولاية يتوهمها ويلفق لها قوانين لا يفهمها ولم يتفقوا على طريق
يسلكونها ولا قوانين يتمسكون بها فبقيت الحكومة من ذلك في
اضطراب ومدت حوادث الزمن عليها يد الانقلاب فداخلني من
استماع ذلك بمقتضى الطبيعة ما يعلم الله من الغم وعجبت من هذا

ظهر الارض ليحجف وتفلق الحبة نصفين خوفاً من ان تنبت فتنفسد
 الا الكزبرة فانها تفلقها اربعا لانها من دون سائر الحبوب ينبت
 نصفها وليس كل ارباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من الههبا
 ذلك وكذلك تراها تشم رائحة الشي من بعيد وان كان لو وضعته
 على انفك لم تجد له رائحة واذا عجزت عن حمل شي استعانت
 برفقتها الى باب حجرها ويقال انها في اول الامر تكون كالدودة ثم
 تصير الى حالتها المعهودة فاذا كبرت وكمل سننها وقرب حينها
 ظهر لها جناحان تطير بهما وفي ذلك يقول الشاعر
 اذا ما اراد الله اهلاك نملة

سمت بجناحيها الى الطيران

قال ناقل الحديث ثم احس الشيخ فتور يعقوب فاذن له في
 الانصراف الى موضع نومه وقام هو ايضا فادى ما كتب عليه
 واخذ مضجعه وبرهان وصاحبه لم يحضرا بعد فغلب النوم حتى
 اصبح وصاحت الطيور فاتبه يسبح مولاه ويشكره على ما اولاه وقضى
 وظائف صباحه راجيا من الله تمام نجاحه وقبيل طلوع الشمس
 اتبه برهان فاجز صلاته وحضر عند والده وعليه اثار النوم
 فانبسط اليه واجلسه عن يمينه واخذ يساله عما راي في تلك
 الدعوة ومتى حضر وطفق برهان يخبره عن ذلك شيئا فشيئا الى
 ان حضر الانكليزي فدار الكلام بينهما يصف كل ما شاهد حال
 غيبته عن صاحبه فكان من كلام الشيخ ان قال ان مما قصه ذلك

المسامرة الثامنة والأربعون

الحشرات

وكل خلق الله سبحانه عجائب وغرائب شاهدة بعظمته وكمال قدرته وحكمته ونحن لو نظرنا الى اصغر ما خلق الله كالنمل مثلاً كيف احكم خلقه واتقن تركيبه ويسر له رزقه وشق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر وكيف دب على الارض وسعى في مناكبها لطلب رزقه وكيف ينقل الحبة الى حجره ويجمع في حره لبرده وفي ورده لصدرة او فكرنا في مجاري اكله في علوه وسفله وما في الجوف من شراسيف بطنه وما في الراس من عينه واذنه لتفضينا من خلقه عجباً وللقينا من وصفه نصباً فتعالى الذي اقامها على قوائمها وبنائها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا اله الا هو ولا معبود سواه

وتراها انا خافت على حبيها ان يعفن اخرجنه من حجرها الى

والوسائل المرتبة التي تحصل بها على مقاصدها ثم نيه على منافع
العسل فقال (يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء
للناس) وكانه ارشد باختلاف الالوان الى اختلاف الخواص فعلى
من اراد استعماله في الادوية ان يدقق النظر في طلب خاصة كل
منها وقوله (فيه شفاء للناس) معناه نوع من الشفا فعلى العقلا
ان يتبهنوا لذلك ايضاً

نفسى لا والله لا يقدر كتاب الله قدره الا من اطال البحث
 بالنظر في اسرار مخلوقاته وعلمت ان الله جل ذكره قد ارشد عباده
 الى ذلك حيث جعل الكلام في بعض الحشرات قرآناً يتلى
 ويدرس فقال يعقوب اسالك تلاوة تلك الاية وتفسيرها وكان
 الشيخ مضطجماً فاستوى جالساً واخذ هيئة وقاره وتلا (واوحى
 ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج
 من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) واتبع التلاوة
 بالتفسير فقال (اوحى ربك الى النحل) اعطاها الهداية لاعمالها
 المختلفة والهمها اسبابها واختر لفظه الرب من بين اسمائه و اضافها
 لكل من يخاطب لان هداية النحل من وظائف التربية و اشارة الى
 ان تربية الانسان بجهة تربيته لسائر الاشياء لا تفاوت في ذلك
 فلا فضل لشي على شي فيه ومنه يقول الله تعالى (ان الله لا يستحي
 ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) فنسبة العالم لما اشتمل عليه
 من صغير وكبير في فعله كنسبة البعوضة فالبعوضة وحدها عالم
 يعلم المتأمل فيه عظمة قدرة صانعه سبحانه ما اعظم شأنه ثم فسر
 تعالى الموحى بقوله (ان اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً) السبل
 الطرق الواحد سبيل والذل جمع ذلول وهو السهل اللين الذي
 لا صعوبة فيه و اراد بالطرق مسالكها التي تسرح فيها بابدانها

الحديث في امر النحل واحواله وبحضرتنا رجل من الحبشة يسمع فلما
انتهينا الى ذكر انواعه وحكيما ما اطلعنا عليه قال ذلك الحبشي
ان انواع النحل في بلادنا كثيرة والظن بها نوع في حجم الذباب
يسكن في الارض المنبسطة من الصحاري يصنع له بيتا اجوف على
هيئة الكرة املس كالنحاس قد فتح منه ثقبه صغيرة يدخل منها
ويخرج فانما خرج خرج متتابعاً واحدة اثر واحدة كانه حب نظم
في خيط الا ان الواحدة السابقة والواحدة الاخيرة اكبر حجماً من
البقية فكانها الامر والاب فاذا حصل في الهواء تلوى ذلك الخيط
حتى يرسم اشكالا كثيرة فتارة يكون دائرة وتارة يكون قنطرة وتارة
يكون عموداً متصباً الى غير ذلك وعسل هذا النوع ليس له
شمع بل يكون في ذلك البيت كالماء في الصهر يج ولونه اصفر احمر
وطعمه كطعم مربى الزنجبيل كانه لم يتخذ الا حكاية له وذلك
النوع قليل يخرج الناس في طلبه فرما غابوا في البحث عنه اياماً ولم
يعثروا به ويعثرون به عند شروق الشمس حال خروجه
فيقصدون الجهة التي راوه فيها فيفتشون حتى يعثروا بالثقب
فيخفرون منه فتارة يجدون العسل قدر نصف البيت او زاد
وربما وجدوه قريب الامتلاء وذلك البيت قدر قعدة انسان
صغير ثم اطرق الشيخ اطراق من اخذ الفكر بجواسه برهة واتبه
فراى يعقوب كالمعجب من حاله فقال كانك عجبت من اطراقي
فاشار ان تم فقال ذكرت اية من كتاب الله تعالى فقلت في

بيتها فاذا عثرت به ذهبت من عروق النبات ومواد الارض
الطينية بما تحتاج اليه وبت لها بيتاً وفرشته مجزير تخرجه من جوفها
ثم تسكنه ووضعت فيه من الشمع والعسل ما يلزم لحاجتها وغذائها
وغذاء اولادها ثم تجعل فيه ثقباً صغيراً لتبيض فيها فتجعل في
كل ثقب بيضة ومن هذا البيض يخرج دود صغير يتغذى بما
ادخرته الام في تلك الثقوب من المادة الغذائية ولا تزال الام
تستكثر من تلك المادة وتزيد فيها وتجلب لاولادها ما يلزم للغذاء
منها ثم تسح كل واحدة من هذا الدود لنفسها ثوباً كالذي مر
ذكره نعيم به المدة المعينة وتخرج منه لمساعدة امها في جمع المونة
وتوسيع القرص باستخدام بيوت جديدة فيه وتوزع ما يلزم من
العسل في البيوت للمونة واكثر بيض الامر يخرج منه اناث وقليل
منه يخرج منه الذكور ويوجد في قليل من الاناث خاصية البيض
والنسل كالام ولكن لا بقدر الامر بل على قدر النصف منها وانما
تخرج في الاخر ثمانية مثلها تشابهها في الكيفية والجسم والخاصية وفي
اخر السنة يخرجون ولا يقن مع الام بل يتفرقون في سائر الجهات
ومنهن يحصل البيض والنسل كما حصل من الام الاولى ثم يموت
تلك الام الاولى والذكور وباقي الاناث

قال ناقل الحديث فلما انتهى يعقوب من الكلام الى هذا
الموضع قال الشيخ كانه يريد ان يرج يعقوب ويستخرج ما عنده كما
هو عادة المسامرة اذ كراني كت مرة افاوض بعض الانصار

ويجمعون غسله من محاله بالسهولة وبغير احتراس وبيوته مسدسة
كغيره من النحل ومغطاة بطبقات من الشمع وبعضها للذكور
وبعضها للاناث وحول هذه البيوت بيوت اخر اكبر منها قد اعدت
للعسل شكلها غير شكل بيوت الذرية وديدان هذا النوع من النحل
تصنع ثوبها بالطريقة التي قدمنا ذكرها ومن المجهل ان يتخذ
ذكوره واناثه في العمل ولا مانع من ذلك حيث كانت كلها
مجردة عن الذبان والحمة كما ذكر فهذا السبب يكون الجميع
بعضها مع بعض في التئام وراحة واطمئنان ويجهل ان يكون
العمل على حسب راي الامهات

وتكثير هذا النوع سهل لا صعوبة به اذ يكفي فيه ان يوخذ
قرص او بعض قرص من اقراصه ويوضع في فجوة من شجرة او
نحوها فعند ذلك يتولد منه عدد كثير ويتزايد على طول الايام
وفي كثير من جهات الامريكا امكن للاهالي تأليف هذا النحل
وجعله في حقائق من فحار وصناديق من خشب وقطع مجوفة من
جذوع الاشجار فنجح الا ان ما تقل منه الى بلاد اوروبا لم ينجح في
تلك البلاد لانه في فصل الشتاء يمتنع عن الزاد

وهناك نوع منه لا يعيش الا سنة واحدة ثم يموت ولا يبقى
منه الا بعض اناث تخمد في فصل الشتاء فاذا انتهى البرد
وانتشرت حرارة الشمس في طبقات الجو تنهت من سكرتها وقامت
من رقدتها ودارت في الغيطان والفلوات ترى محلاً لآفة لبناء

اذا ماتت الام اخزاروا في الحال دودة من الدود الذي يكون منه
العمال فيغدقون عليها بالغذاء المذكور حتى تصير أما ويعسوباً
وذلك لما ثبت عندهم من ان الخلية لا تعمر بدونها وانهم ان
خرجوا من الخلية قبل ان يتخذوا لهم أما بدلا بدد الدهر شملهم
واحناط بهم نحل الخليات الاخر وقتلم

وقد قدمنا ان انواع النحل كثيرة لكن ليس منه في بلاد
الاوروبيا وبين الأ نوعان احدها ازرق البطون وهو ما يوجد
بالبلاد المركزية والثاني تميل بطونه الى الصفرة وهو ما يوجد
بجهاث سيسليا وايتاليا وجزيرتي كريد والروم ويوجد منه في باقي
بلاد الدنيا القديمة اثنا عشر نوعا واما الدنيا الجديدة وهي الامريكا
فلم يوجد بها الا في زمن قريب واصله من نحل اوروبا نقل اليها
فكثر بها الا انه توخش وصار يهوى الجبال والغابات مع ان
ذلك لا يحصل باوروبا وقد شوهد هذا التوحش كذلك في
غير النحل من سائر الحيوانات التي نقلت الى تلك الجهة

وقد كان العسل معلوماً عند سكان الامريكا من قبل
ورود الاوروبيا وبين عليهم الا انه كان اقل حلاوة وازكى نكهة
واصفى لونا واكثر ميوعة ولما دخل الاسبانيول هذه الارض وجدوا
فيها نحلاً صغير الجنة قد اتخذ له بيوتاً في فجوات الاشجار ومغارات
يصنع فيها اقراصه ويجمع بها عسله وكله ليس له حمة يلسع بها
سواء في ذلك ذكره واثناه ويعسوبه ولذلك يمضي اليه الناس

ففسه وتفريجه بعد ثلاثة ايام فيخرج من الواحدة منه دودة كسائر
الاناث التي هي العمال الا ان لها في الغذاء كيفية مخصوصة
تعرفها العمال فيكون غذاؤها في اول الامر حامضاً ثم يزداد في
حلاوته بالتدريج ويجعل بتربيتها منه في بيتها اكثر مما يعطى
لغيرها فتعظم وتكبر عن غيرها ويوجد فيها خاصة التناسل وتكون
اماً ويعسوباً ولا تمكث في عمل ثوبها الا يوماً واحداً وذلك لما
اكتسبته من القوة بسبب جودة غذائها وكثرته وخاصة مادته ثم
تقيم بعد ذلك في الراحة والهدوء والسكون مدة يومين ونصف يوم
ثم تكون ذبابة وتقيم على تلك الحالة خمسة ايام فقط وتخرج من
ثوبها بعد ستة عشر يوماً فقط هذا اذا اراد العمال ذلك والا
زادوا في سمك الغطاء وحبسوها مدة من اربعة ايام الى ثمانية على
حسب مقتضيات الاحوال وفي هذه المدة يرسل لها الغذاء من
ثقب يجعل في الغطاء المذكور فاذا انفتح الغطاء خرجت يعسوباً
واماً تتميز عن غيرها بخاصية البيض والنسل وعظم الجسم وذلك
بخاصية هذا الغذاء المخصوص بالام وهذه الخاصية في ذلك الغذاء
ثابتة محققة حتى انه اذا وقع منه في بعض الاحيان جزء في بيت
واحدة من العُمَّة واطعمت منه نما جسمها وزاد حجمها وحصل لها
خاصية البيض والنسل وحصل منها البيض بالفعل وربما وصلت
الى نصف درجة الام وحيثئذ تكون معرضة لاذى الام الاصلية
وطائفة العمال تعلم ما في ذلك الغذاء من هذه الخاصية ولذا

سبعة ايام في هده وسكون بلا حركة ثم تمزق ثوبها وتخرج منه
فعند ذلك تخنط بها العمال وتمسح جسدها وتمد جناحيها وتأخذها
معها الى حيث شاءت من اعمالها تمرنها على العمل معها والمساعدة
لها في اشغالها

ولكثره مادة الغذاء في الصيف يكون بين الذكور والاناث
صلح فيغدون ويروحون سواء فاذا قرب الشتاء وقلت المراعي
تحرك من العمال عرق الغضب على الذكور لعدم الفائدة فيهم
فيتفقون على قتلهم فعند ذلك تقف طائفة من العمال امام الخلية
تقتل كل من مر بهم من الذكور وليس لذكور هذه الطائفة حمة
تلسع بها وتدافع عن نفسها فتبطش بها العمال كما شاءت فتلتفها
ونفني عدادها وهكذا تفعل بالذكور التي تحدث فتقتلها وترميها
خارج الخلية وعند حلول فصل الشتاء يقل البيض ويقطع
المرعي فياكلون ما في الخلية فانا حل فصل الربيع وتفتحت الازهار
ابتدا البيض والتناسل كما مر والعادة في البيض الذي يخرج منه
الذكور ان يكون فقسه وتفريخه في مدة ثلاثة ايام ثم بعد ذلك
يكون دودة فتغذيها العمال سنة ايام بمثل ما مر وتضع الغطاء
عليها وبعد وضع الغطاء تسج ثوبها في ثلاثة ايام اخر وتقلب
زبابة وتقيم على ذلك اثنا عشر يوماً ثم تخرج فيكون خروج الذكر
في اربعة وعشرين يوماً بخلاف الانثى فانها يكون خروجها في
اثنين وعشرين يوماً والبيض الذي يخرج منه العسوب يكون

حولها ثم تعلو فوق طبقات الجو ذاهبة وعائدة في الهواء برهة من الزمن وبعد ذلك تعود الى الخلية وتمكث فيها طول عمرها الى ان تطردها منها احدى اولادها كما طردت هي امها وتبتديء في البيض من ثاني يوم من ظهورها فيخرج من بعضه ذكور ومن بعضه اناث ولكنه في وقت الشتاء اذا كان الهواء لطيفاً لا يخرج منه الا اناث

وفي مدة البيض يحف العمال بالام فيلحسونها بالستهم ويجعلون في قها ما يلزم لغذاءها من العسل ويرتبون البيض ويوزعونه على البيوت في كل طاقة بيضة ويخرجون ما زاد او فسد ويرمونه خارج البيوت وكلما وضعوا بيضة في طاقة سدوا عليها بمادة لزجة فاذا مضى عليها ثلاثة ايام صارت دودة فيفتح لها حينئذ العمال السدادة ويغذونها مدة ستة ايام في كل يوم عدة مرات ومادة الغذاء وان كانت عسليه الا ان درجة حلاوتها تدبر بالنقص والزيادة على حسب تقدم الدودة في العمر وما يناسبها في كل سن وبعد تلك المدة يسد على كل دودة بغطاء فيه تحديب ليس كغطاء العيون المعدة لادخار العسل فانه مستوي وعند ذلك تقوم الدودة في بيتها وتعمل لنفسها ثوباً كالححرير تحيط به حروف البيت وقاية لجسمها من خشونة مادته ويتم هذا العمل في يوم ونصف ثم بعد ثلاثة ايام تنقلب الدودة ذبابة صغيرة ملتفة في ثوب ابيض شفاف يرى منه ارجلها واجنحتها وباقي اعضائها فتبقي في هذه الصورة

كل بيت منها بيضة على انفرادها تضعها فيه طائفة العمال من النحل كما مر وتكون البيوت التي يوضع فيها البيض المشتمل على الذكور اكبر من التي يوضع فيها المشتمل على الاناث لما علمت من ان ذكران النحل اكبر من اناثه ويوجد في اطراف الاقراص بعض عيون كبيرة تسع الواحدة منها من العسل قدر ما يسع غيرها مائة وخمسين مرة الا انها قليلة وهي التي اعدت للبيض الذي يخرج منها اليعسوب

ومن اللطائف ان العمال تعلم عدد البيض وكيفية توزيعه بقوة ادراك غريزية اودعها الله فيها فتبني البيوت على حسبه من قبل ان تراه وعمل العمال يختلف باختلاف الاوقات قوة وضعفاً فيضعف في الصيف ويقل فاذا جاء فصل الخريف ازداد شغلها وكثر اجتهادها فتملاً البيوت بيضاً وتعهده الى ان يخرج كما مر وتخرج منه ذكور كثيرة في وقت معين فان ظهر فيه ام جديدة اجتهدت الام الاصلية في قتلها والا خرجت وتبعها كثير من العمال حتى اذا وجدت غصناً او خامة زرع تعلقت به واحنف بها ما خرج معها من جماعتها فان اخذت حيثئذٍ ووضعت في خلية استوطنتها وعمرتها والا ذهب الى فجوة في شجرة او حائط او جبل فاقامت بها مع توابعها

واما الام التي بقيت في الخلية الاصلية فبعد ثمانية ايام من ظهورها تخرج وتدور حول الخلية كأنها تكشف امرها وتنظر ما

تستحضرها لذلك فانها حين تخرج للمرعى تخضر معها من تلك
المادة ما يلزم لعمل الاقراص والبيوت ومن مادة العسل ما يلزم
للغذاء والقوت فتضع اولاً الشمع وتصنع البيوت منه لتكون كالوعاء
للعسل وتجعل بعض تلك البيوت كبيراً ومعظمها صغيراً وجميعها
مبنية على الشكل المسدس وهو انفع الاشكال في عدم ضياع شي
من الفناء الذي يتخذ فيه اذا انضم الى امثاله فألم الله سبحانه
وتعالى النحل ان يبخارها لبناء بيته فلا يبنيه مستديراً ولا مربعاً ولا
مخمساً بل مسدساً لخاصية في هذا الشكل لا توجد في غيره وذلك
ان اوسع الاشياء واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج
منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى
لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لقيت خارج البيوت
فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراسة
وليس في الاشكال زوايا شكل سوى المسدس يقرب
من المستدير في الاحشاء ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد
اجتماعها فرجة وهذه خاصية هذا الشكل الذي ألم النحل ان يبخاره
فهو يبنى بيوته عليه ويضعه تاماً محكمًا لا يخرف كأنما استنبط
بقياس هندي

ويوجد في كل قرص طبقتان متلاصقتان من البيوت
وبعض هذه البيوت مخازن للعسل يدخر فيها الى وقت الحاجة
ويسد عليه بسداية من الشمع وباقيها التربة البيض فيجعل في

لشدة البرد في الشتاء مثلاً فلا يخرج من خليته بل يلزمها ويقيم
 فيها ويأكل من العسل الذي بها فاذا اتى فصل الربيع واكتسى
 وجه الارض بالخضرة والزهور خرج للرعي واكثر من اللوي
 والطين حول خليته وقد قالوا ان الذكر منه لا يعيش زيادة عن
 ثلاثة اشهر وان الانثى قد تعيش الى ثمانية عشر شهراً وهي اصغر
 من الذكر وقد اعتبرت بالوزن فوجد ان كل عشرة الاف منها
 تزن اربعة اخماس افة مصرية وطائفة الاناث هي العملة والمخدا
 كما مر وعملها كثير فمنه جمع العسل والشمع من النبات والازهار
 وجلبه الى الخلية وتوزيعه على عيون الاقراص وادخاره فيها
 وتعد البيض الذي تبيضه الام وتوزيعه على تلك العيون
 ووضع كل واحدة منه في محل يليق بها وتربية ما يخرج من ذلك
 البيض من صغار النحل حين تخرج في هيئة الدود الصغير فتغذيها
 وتتمدها حتى تكبر وتقوى على الخروج من الخلية للرعي بنفسها
 فاذا وجدت درجة الحرارة قد تغيرت واشتدت بحيث صارت
 ربما تضر بهذه الصغار اقبلت عليها ترفرف باجنحتها حولها وتروح
 لها بها لتعديل درجة الهواء بتحريكه في الخلية وتجديده ومن هذه
 العمال طائفة تقوم بامر الحراسة والمخفارة وقت سكون باقي الجماعة
 في الخلية فان رأت ما لا قبل لها به من العدو نهبت الجماعة
 فيستعد الجميع لقتاله وصدده وردده ومنها طائفة تلتزم بعمل الاقراص
 وما فيها من العيون وهي البيوت من مادة لزجة هي مادة الشمع

والذكور لازم ضرورة في بقاء هذا النوع وتناسله وتربته فلو فقد احد هذه الثلاثة لخرت الخلية وفي ما فيها بخلاف غيره من انواع الحيوان فانه يكفي فيه ذكر وانثى

وسبب لزوم هذه الثلاثة في هذا النوع ان الام التي هي كالملكة لا يتانى لها تحصيل قوتها وقوت ما يتناسل منها من الذرية الكثيرة ولا يمكن لها عمل ما ياوزيها جميعاً من المساكن ولا شغلها سوى انها تبيض بيضها وتلزم خليتها مدة عمرها وهي نحو خمس سنين فاحاجت الى عمال وخدم تحصل لها رزقها ورزق ذريتها وتبني المساكن لها ولذريتها وكذلك ليس لها حمة تدافع بها عن نفسها في كثيرة الخوف قليلة الجرأة بحيث لو وقع بها نحلة غريبة لجينت عن ملاقاتها وهربت منها داخل الخلية فراراً من سطوتها فلا يقيمها ويدافع عنها سوى بقية الاناث في لها من جهة بمنزلة الخدم والعمال ومن جهة بمنزلة الجنود والابطال ومع كونها مع الغريب الاجنبي بتلك المثابة تراها بين قومها في غاية العظم والمهابة واما احتياجها للذكور فهو من اجل السفاد لحصول النسل وتكثير الاولاد فهذا وجه الضرورة في وجود الاصناف الثلاثة المذكورة

ويتميز الذكر عن الانثى من هذا النوع بكبر عينيه وتقاربها وليس له فرشة في رجله لجمع الشمع ولا له حمة يلسع بها ولهذا يكون لين العريكة حسن الاخلاق كحال غيره من ضعاف الخلق ومن شأن النحل انه اذا كان الوقت غير موافق والهواء غير معتدل

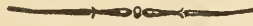
كثيرة تشترك في المأوى والمعيشة وقد يجتمع في الخلية الواحدة نحو ثلاثين أو أربعين ألفاً ولا يزيد عن ذلك إلا نادراً ومنها ما يالف الانفراد والاعتزال فيكون متفرقاً منعزلاً بعضه عن بعض ونحلة العسل يكون جسمها أزرق اللون كأنه مركب من ست حلقات أو عقد في الأخيرة منها حمتها (وهي الابرة التي تلسع بها المعروفة في لسان العامة بالزبان) وفي فمها خرطوم طويل تمتص به من الأزهار ما تحتاجه لعمل العسل وعند سكونها تغطيه براسها وفي رجليها شي يشبه الفرشة تاخذ به من نبات الأرض ما يلزم لبناء بيت العسل وهو الشمع

وإذا نظرت الى النحل في تدبير احواله المنزلية واحكامه السياسية تراه كرعية سلطنة تامة النظام كاملة السياسة نافذة الاحكام

فمنها واحدة من الاناث هي اكبر الجميع واعظها جنة وهي لها كالملكة المحاكمة ويقال لها العسوب وعليها مدار عمارة الخلية واكثار النسل بكثرة بيضها وبقية الاناث لا تطلب السفاد ولا تبيض وانما هي عملة عليها العمل والخدمة والمدافعة عن الوطن والمسكن وسلاحها حمتها المركبة في ذنبها تناضل وتقاتل بها وليس للام ولا للذكور حمة كما سيدكر وطائفة الذكور عليها تلقح الامر ووطؤها

فوجود هذه الاصناف الثلاثة اي الام الملكة والاناث العملة

وحوله وقوته فما معلومات الانسان ولو امتد به الزمان بالنسبة
 لمعلومات الله سبحانه الا كنسبة المعدوم الى الموجود فكيف يطلع
 على كنه هذه الاسرار او يستخرج جوهر هاتيك البحار الا ان امده
 الله باعانه وشمله بحسن عنايته



المسامرة السابعة والاربعون

النحل

ومن قبيل ما نحن بصدده من الحيوانات المذكورة النحل
 الذي نشاهده ونحبي منه الشهد فانه كذلك في اول مرة يكون
 دودة صغيرة ثم يكبر وبعد ذلك يتقلب الى الصورة المعلومة وله
 في ترتيب بينه وتدبير معيشته ونظام اموره ما يقضي بالعجب العجيب
 وهو انواع منها ما يالف الاجتماع على بعضه فيتالف منه جموع

تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الأخيرة فتبقى عليها الى ان تموت بها وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغيير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغيرات والتبديلات وإنما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد اعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها ينتقل الى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير ان تظهر عليه حالة السكون المذكورة وإنما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الاجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق

ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من الفاذورات ورم الاسماك فاذا تحول الى الصورة الاخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش الاّ زمناً قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد ان تبيض الانثى منه بيضها

فمن تأمل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها او راها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد اشكالها والوانها وصورها واخلافها في كبرها وصغرها وانعم النظر فيما تظهر به وتخلي فيه من المنظر البهيج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من القشور الغربية بالالوان العجيبة اذعن بالرطوبة لحالتها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وثبراً من علمه

في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرم الموتى التي ترى في قبور
الاقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا
الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة ومن الغريب
ان هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير
ان يحصل لاعضائه الدقيقة ادنى خلل

وكثيرا ما يكون هذا القبر مركباً من ثلاث طبقات الاولى
مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزل المطر من فوقها والثانية من
مواد الطف من الاولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم
من العوارض الجوية والثالثة هي الثوب او الكفن الذي تقدم
ذكره

ومن نظر في الحيوان المعروف بالبي دقيق وتنبع احواله
واشكاله وجده يتغير ثلاث مرات يتقلب فيها الى ثلاث حالات
ليس بين واحدة منها وبين الاخرى مشابهة البتة حتى يظن انه
يموت ويحى ثلاث مرات مع انه في الواقع ونفس الامر ليس كذلك
وانما يعتره سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من
الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلتها الخفية بالانتقال
من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من اصل خلقتها
مشملة على جميع ما يلزم للصور التي تتحول لها وتقلب اليها فكأنما
هي في ثلاثة اثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق
الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ما تجننه فتبقى فيه ما شاء الله ثم

ولا تقربه كما انها بعد ان قضت مدة حياتها الاولى تحت الماء في الطين صارت لا تحب الا فضاء الجو ونسيم الهواء ترح فيه وتعيش به ولا تالف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلفت ان تقيم تحنه لحظة لهلكت في الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الاولى وكذلك امثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها واشكالها فان الحيوان ذا الاجنحة اليرمزية الذي تسميه العوام بالجعران وكان المصريون يعظمونه اصله من دودة تدب في بطن الارض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه وكان الاقدمون يجهلون ذلك الى زمن ارسطو وهو اول من فتح باب البحث في هذه المسألة الا انه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الامر على ذلك الى هذه القرون الاخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر ان الحيوان من هذا القبيل حين تحلته يكون مجردا عن الاجنحة في هيئة دودة صغيرة ثم ياخذ في الكبر وازدياد الحجم يأكل بعض الخشيش وغيره من المواد الارضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وضار في مقره كانه قد مات ودفن في قبره فيبقى كذلك مدة تتعدم فيها جميع الاحوال الدودية بتدبير الهي لا علم لاحد به ثم يظهر بعد ذلك في صورة اخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة بفرقع لوز وقد شوهد ان الدودة في حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين مائنة

فقال يعقوب اني مثل حضرتكم اميل بكليتي لمعرفة احوال
افراد المخلوقات ولذلك قضيت اكثر عمري في قراة كتب التاريخ
الطبيعي ورسائل كثيرة من هذا القبيل لاستفيد نتائج مشاهداتهم
واجني من ثمرات معلوماتهم فوجدت في ذلك فوائد كثيرة وتخلصت
به من ضياع الوقت في الكسل والبطالة والقييل والقال والنزاع
والجدال

وغاية العلم في هذه المادة ان الحيوان يخلق اولاً في صورة ثم
يتغير وينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغير خاصاً
بالصورة بل يعتري الطباع والاحوال ايضاً حتي لا يبقى فيه شي
من احواله وطباعه الاولى فتراه يكون في اول مرة كدودة قذرة
قبيحة المنظر راسية في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل
والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة واراد الانخراط في
سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من
نباته فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتخلى بكسوة ظريفة
الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الالوان ذات اجنحة كاللؤلؤ
والمرجان فيطير بها في الهواء الى حيث يشاء فانظر كيف خرجت
هذه الدودة المائية عن ذاتها الاولى الى صفة الحيوانات الهوائية
وتغير صورتها كما ذكر نتغير جميع طباعها واحوال معيشتها
واحتياجاتها وسائر حالاتها وبعد ان كان غذاؤها ما في قاع البحر
من الحشيش ترعاه دائماً ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تهواه

واقتنوا صناعتها ووسعوا دائرتها ثم تعلمها اهل القسطنطينية وذلك
 في اواسط القرن السادس من الميلاد ثم اهل ايطاليا في القرن
 الثاني عشر منه ولم تعلم كيفيتها لاهل فرنسا الا في القرن الثالث
 عشر

المسامرة السادسة والاربعون

ابو دقيق

قال الشيخ قد بلغني ان في حشرات الارض غير ما خضنا في
 حديثه من دودة القز وارضه الجوخ حيوانات اخر تتقل من
 صورة الى صورة وبودي لو عرفت كيفية ذلك فان كان عندك
 في هذا المعنى مزيد شرح فهاته غير مامور فاني كثير الشغف بمعرفة
 امثال هذه الامور

كدودة البز ما بنيه يهلكها

وغيرها بالذئب تبنيه يتفعل

قال ناقل الحديث فاضهر يعقوب علامة الاستحسان لما سمعه
ثم قال قد انتشر في اقطار الارض مادة تربية هذه الدودة وصارت
متداولة عند كثير من الامم وان كانت كفياتها مختلفة وقد اشتهرت
صناعة الحرير في بلاد اوروبا اشتهاراً كبيراً واتسعت اتساعاً وصل
الى غاية عظيمة وتنوعت كيفية عمله تنوعاً كثيراً وصار يصنع خالصاً
ومخلوطاً بغيره من القطن والصوف وغيرها ومطرزاً بالقصب
والفضة والذهب في انواع من التحسين والنقش والتزيين وكثرت
الانوال لعمله كثيرة مفرطة حتى انه يوجد في مملكة فرانسة من
الانوال مقدار مائتين وخمسين الفاً ويبلغ قيمة المتحصل فيها من
الحرير منسوجاً وغير منسوج نحو (٦٤٠) مليون من الفرنكات
ويبلغ في بلاد الانكليز نحو مائتين وخمسين مليوناً فاذا اضيف الى
متحصل بلاد الانكليز ما يتحصل في غيرها من ممالك اوروبا كان
مجموع ذلك قريباً ما يتحصل في مملكة فرانسا من هذا الصنف
فهي اعظم الممالك في صناعته وان كانت لوندرة اكثر منها في تجارته
واول تربية هذه الدودة كان عند اهل الصين قبل ميلاد
المسيح بنحو الف سنة وعندهم اخذ غيرهم من سائر الناس واول من
اخذ عنهم اهل الهند ومنهم انتشر ولعل هذا هو السبب فيما ذكرت
من تسميتها بالدودة الهندية ثم اخذها العجم عن اهل الهند فحسبونها

واستبدلت بلونها لونين * حاكت لها خبا بلا نيرين
 بلا سماء وبلا بايين * ثقبه من بعد ليلتين
 فخرجت مكحولة العينين * قد صبغت بالنقش حاجبين
 قصيرة ضئيلة الجبين * كأنها قد قطعت نصفين
 لها جناح سابغ البردين * ما نبتا إلا لترب الحين
 ان الردى كحل لكل عين

قال ابو طالب المكي في كتابه قوت القلوب وقد مثل
 بعض الحكماء ابن آدم بدود الفزلا يزال ينسج على نفسه من جهلة
 حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويضير الفزلا غيره وربما
 قتلوه اذا فرغ من نسجه لان الفزلا ينف عليه فيريد الخروج منه
 فيشمس وربما غمز بالايدي حتى يموت لئلا يقطع الفزلا ليخرج الفز
 صحيحاً فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي اهلكه اهله وماله وتنعم
 ورثته بما شقي هو به وقد اشار الى ذلك ابو الفتح البستي بقوله

ألم تر ان المرء طول حياته

معنى بامر لا يزال يعالج

كدود كدود الفز ينسج دائماً

ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وقال اخر

بفني الحريص يجمع المال مدته

والحوادث ما يبقى وما يدع

مادة الحرير فيأخذ في النسج على نفسه بما يخرج من فيه وفي هذا الوقت يكون لونه ابيض وجسمه عبارة عن عدة حلقات يرى في الاخيرة منها شي يشبه القرون ولا يزال يلف خيطه على نفسه في نحو ثلاثة ايام او اربعة الى ان ينفذ ما في جوفه ويكمل عليه ما بينه حتى يصير كهيئة الجوزة ويبقى فيه محبوساً قريباً من عشرة ايام ثم يثقب عن نفسه تلك الجوزة بواسطة مائع يخرج به ويصيب به طرف الخيط من الداخل فيلين ويسهل عليه قطعه فيقطعه ويخرج من الجوزة في صورة فراش ابيض او ازرق له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وقد يكون ما ينسجه على نفسه نحو ثلثائة متر وعند خروجه يهيج الى السفاد فيبحث الذكر على الانثى ويسافدها فيلصق موخره بموخرها ويلتصقان مدة ثم يفترقان وعند ذلك يكون قد فرش له خرقة بيضاء فتتشر الانثى عليها البذر الذي تقدم ذكره وهو بيضا وتبيض منه الواحدة نحو خمسمائة بيضة وفي عقب ذلك يموت كل من الذكر والانثى ويفعل بالبذر كما تقدم وهكذا

هذا اذا اريد البذر فان اريد الحرير ترك في الشمس يوماً او بعض يوم وذلك بعد فراغه من النسج بعشرة ايام فيموت وهو سريع العطب ويقال انه يخشى عليه من الفار والعصفور والنمل والوزع وكثرة الحر والبرد وقد الغز فيه بعض الشعراء فقال
وبيضة تحضن في يومين * حتى اذا دبت علي رجلين

من البيض ودب على الارض وذلك في اوائل فصل الربيع ويكون هذا الدود عند خروجه شبيه الذر في قدره ولونه ويخرج في الاماكن الدفيئة انا كان مصوراً في حق بغير حوض وربما تاخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن فيخرج فاذا اخرج اطعم ورق التوت ويقال انه احسن غذاء له واحسنه ورق التوت الابيض وقد عرف بالتجربة ان مقدار عشرة دراهم من البزر يخزوي على اربعين الف دودة وعند اول خروجه من البزر يكفيه من ورق التوت من ١٦ درهما الى ٢٠٠ درهم ثم انه ينمو جسمه ويعظم بالتدريج حتى يصير قدر الاصبع وكلما كبرت الدودة وازداد حجمها زاد اكلها حتى يصل ما ياكله في اخر الامر الى نحو مائة وسبعين اقة في اليوم الواحد وفي اثناء ذلك يغير هذا الحيوان جلده اربع مرات في نحو اربعين يوماً وعند تغيير جلده في كل مرة منها يمرض ويقل اكله ويكون في حالة خدر وضنك وضجر وكاننا ضاق عليه جلده وصار لا يسعه فاذا اراد نزعه اخرج من جوفه طرف خيط من الحرير يثبت في شي ما يجانبه ويتمسك به فينزع جلده ويخرج منه كما يخرج الانسان من ثوب ضيق عليه وحيثئذ يفيق ويستريح ويعود لحالة النماء والاستكثار من الغذاء حتى ياتي وقت نزع الجلد الثاني بعد نحو اربعة ايام فيعاوده الضعف ويفعل فعله السابق حتى ينزعه ويخرج منه وهكذا حتى ينزع جلده الرابع وحيثئذ يكون قد بلغ اشده وامتلا جوفه من

خلفها فيحملها ويمشي بها الى حجره واذا اتاها مستقبلاً لا يقاومها لانها تغلبه ومن شان هذه الدابة انها تبني لنفسها بيتاً حسناً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخروطاً من اسفله الى اعلاه وله في احدى جهاته باب مربع ومنه تعلمت الاوائل وضع النواويس لموتاهم

المعامرة الخامسة والاربعون

دود القز

ومن عجيب هذه الحيوانات الصغيرة دودة القز وهي ايضاً في اخر عمرها تصير طائرأ اذا جناحين على نحو ما ذكرت في ارضة الجوخ ويقال لدودة القز المذكورة الدودة الهندية ايضاً ومن بديع امرها انها تكون اولاً مثل بزر التين ثم تكون دوداً والظاهر ان هذا البزر بيض في داخله هذا الحيوان فاذا جاء ابانه تحرك وخرج

وأشكالها شي كثير وشرحه يطول

وكان قد وصلنا إلى محلها فقال يعقوب وها نحن قد وصلنا
 وإظنك تريد أن تستريح فإن شئت اخترنا الكلام في هذا المقام إلى
 وقت آخر فقام الشيخ إلى محله فرأى أن الإنكليزي وولده لم يحضرا
 بعد فجلس برهة ثم قال ليعقوب لقد قطعنا المسافة في عجائب
 درسناها وغرائب سردناها وهو أولى من التكلم في ما لا يعني من
 أمر زيد وعمرو وقد اتخفتني بما شرح خاطري وسرني كثير السرور
 فاني أميل بمجامع قلبي إلى النظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع
 قدرته الباهرة وعجائب صنعته الزاهرة إذ بذلك يعيش الإنسان
 عارفاً بربه مفوضاً إليه جميع أموره بقلبه وقلبه فيرضى عنه ربه
 ويعطف عليه قلب كل من رآه فيحبه وقد تذكرت بما ذكرت لي
 من دود الخشب دابة الأرض التي أكلت منساة نبي الله سليمان عليه
 السلام فإنه حين توفاه الله كان متوكئاً عليها فبقي كذلك حتى
 أكلت هذه الدابة منساته فسقط على الأرض فعلم موته

فقال يعقوب ما معنى المنساة وما هذه الدابة وما فعلها

فقال الشيخ المنساة العصا والدابة في الأصل كل ما دب على
 الأرض ولكن لما كان فعل هذه كفه في الأرض أضيف إليها لقب
 دابة الأرض والمراد بها الأرضة وهي دويبة صغيرة قدر نصف
 العدسة تأكل الخشب والورق فإذا مضى لها من العمر سنة ثبت
 لها جناحان تطير بهما والنمل عدوها وهو أصغر منها فيأتيها من

سكنها مسكناً يحيط به مع كمال الاحكام والضبط وكلما كبر وسع
 في مسكنه وستر جسمه من غير ان يشعر احد به فاذا اراد احد
 كشفها وازال عنها ما صنعتها من بيتها صنعت غيره في الحال مع
 كمال السرعة

ومن عجيب امر هذا النوع انه لو وضع على قطعة من القماش
 ذات اللون مختلفة عمل بيته بلونها فيكون مركباً من قطع ذات
 اللون كالوان اصله وهذه الدودة هي المعروفة بارضة الجوخ واذا
 ماتت خرج منها حيوان ظريف الشكل بهيئ المنظر ذو جناحين
 يطير بهما وهو من انواع الحيون الذي يقال له عند العامة ابو
 دقيق وهناك ديدان مائة لا تكفي بثوب رقيق كما اكتفت الارضة
 بل تعمل لها مسكناً من مواد صلبة كالرمل والخزف وتبنيه بمواد
 معروفة لها وقد تبنيه من صغير الحار او من بعض حشائش تقطع
 اطرافها وتلفها على نفسها لفاً محكمًا وتسير بها في قاع مجاري المياه
 العذبة

واغرب من هذا كله دودة الرصاص وهي دودة صغيرة تثقب
 الرصاص حتى اذا وصلت من عمقه الى ما يكفي لسكنها سكنت
 وسكنت وكثيراً ما وجدت هذه الدودة ساكنة في الرصاص
 الموضوع في خراطيش البارود العسكرية وقد تاكل الصفائح المعدنية
 التي توضع على السقف في البلاد الباردة
 وبالجملة فانواع الحشرات الصغيرة واوصافها وطبائعها

فترتب على ذلك صرف اموال كثيرة في تقوية الجسور وتجديد
الخشب

وقد راوا في هذا النوع كراهة طبيعية لصداء المعادن كالحديد
والنحاس فمضى كان في الخشب شي ما ذكر لم يؤثر فيه فلما علم
الناس ذلك منه صاروا يضعون في الخشب الذي يكون في الماء
مسامير غليظة ويكسون السفن بالنحاس احتراساً منه وهذا الحيوان
ايضاً من جملة انواع المحار وهو كدودة طويلة في داخل محارة
ذات فلتتين تكسو جميع بدنه ويتناسل هذا النوع بالبيض كباقي
المحار ويبيضه كروي الشكل ولونه اصفر يضرب الى الخضرة ويكون
في اول امره كديدان صغيرة وبعد قليل من الزمن يظهر له شعر
دقيق يسبح به في الماء فاذا عثر بنخشة تعلق بها وثقبها ودخل في
جوفها فيكبر فيها شيئاً فشيئاً ويكسى بالمحار فبلوغه الى غايته
واستكمال آلاته يكون في داخل الخشب لا خارجه ولهذا النوع
كغيره خصائص وكيفيات يطول شرحها ويتسع القول في عدها
وهناك نوع من الحيوان المائي غريب له عادة عجيبة وذلك انه
يتجامل على المحار بكل حيلة حتى ياكل ما في جوف المحارة من
الحيوان ثم يسكن فيها ويسير بها الى حيث يشاء ويتقي بها شر
عدوه كما يتقي المقاتل بدرعه ويتحصن بمحصنه وهناك نوع اخر
كالدود ايضاً لطيف الطبع ذو احساس ومن شأنه ان يجعل
لنفسه وقاية تقيه عوارض الجو فيعمد الى الاقشعة فيجعل له في

على فمه هذا الضوء الكهربائي وبالجملة فحيوانات البحر تجل عن الحصر فمنها نوع يعرف عند البحارة بدود الخشب لانه يالف الخشب الذي يكون في الماء فيأكله كما يأكل دود البر خشب البر وقد شوهد هذا الحيوان يحرق الخشب المغطى بالماء ايا كان لا يبالي بصلابته بالغة ما بلغت ويسلك في داخل هذه الاخشاب في طرق مختلفة فتارة تكون تابعة لاتجاه الياف الخشب وتارة تكون مقاطعة لها على انحاء مختلفة ومع كل ذلك لا يرى على ظاهر الخشب ادنى تلف ولا تغيير

وقد شوهد ان الواحد من هذا الحيوان متى عارضه في طريقه مانع يمنع من التادي والاستمرار فيه عدل الى غيره بحيث لا يختلط طريقه بطريق غيره وبهذه الكيفية يتلف باطن الخشب ويفرغ جوفه بالكلية مع بقاء سطحه الظاهري سليماً لا يرى فيه اثر فان كان ذلك الخشب حاملاً لشيء من الانتقال كالعمد والنخازيق التي توضع في اس المبانى المائية كالقناطر والارصفة ضعف بحكم الضرورة عن حملها ومقاومة ثقلها فيندق ويستقطبما عليه وقد شوهد تلف كثير من السفن بسبب هذا الحيوان

وفي القرن العاشر من الميلاد كادت مملكة الفلمنك تلف بسبب فعل هذا الدود فانه اكل الخشب الموضوع في الجسور المعمولة لمنع ماء البحر الملح عن ارض الزراعة حتى كادت تضئعل وتزول بالكلية ويحل بالبلاد واهلها الحرَب والويل والعطب

فم الحجر قبضة من الملح فيخزق ذلك الحيوان الرمل ويخرج من
 محل اخر فيسارعون الى القبض عليه فانه ان اقلت منهم وفاتهم
 لا يقدرن عليه بهذه الحيلة مرة ثانية وشكل هذا الحيوان كشكل
 محار اصطواني وله في نهاية غشائه فتخان احداها يمتص بها الماء
 اللازم لاستخراج ما فيه من اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره
 والثانية يقذف بها ذلك الماء بعد استخلاص الاكسجين منه ومن
 هذا الجنس من المحار نوع يحفر حجره في الارض في ابي موضع اراد
 منها سواء كان في الطين او الحجر او الصوان او الرخام لا يبالي
 بصلابة الارض مهما كانت ولهذا يسمونه لغني الاحجار تشبيهاً له بمن
 يقطع الاحجار بالبارود بالكيفية المعروفة باللغم وهذا الحيوان يمكث
 طول حياته في ظلمة حجره ولم يعلم احد كيفية حفره ولا رضاه بهذا
 المحبس مدة حياته

وفي هذا النوع بعض طول وغلظ وله في غشائه فتخان
 ايضاً احداها دقيقة يخرج منها قضيب ذو شعبتين احداها يمتص
 بها الماء اللازم لاستخراج اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره وهي
 مادة غذائه والثانية يقذف بها هذا الماء بعد اخذ خواصه كالذي
 قبله واما الفتحة الثانية وهي اغلظ من الاولى فيخرج منها رجليه وهي
 قصيرة غليظة واهل تلك الجهات ياكلونه نيئاً من غير كراهية
 ويعبدونه من مستلذات ماكلهم ولهذا النوع في الظلمة لمعان وضوء
 كهربائي يشاهد في الليل حتى اذا اكله احد من الناس ليلاً شوهد

المسامرة الرابعة والاربعون

دود الخشب وغيره

فقال يعقوب الآلام على المحار طويل حتى انه افرد بالتأليف
وانواعه كثيرة جداً وقد رايت ذات يوم بساحل البحر شيئاً مغروراً
في الرمل على هيئة المتبر الذي تضع فيه النساء الابرفسالت عنه رجلاً
من اهل تلك الجهة فاخبرني انه نوع من المحار من عادته ان
يخفر حجره في الرمل ويعتمه بقدر مترين فاكثر وله رجل مخروطية
غليظة في اخرها استطالة تيسر له بواسطتها ان يرتفع الى قم حجره
مع كمال السهولة فاذا احس بادنى شي رجع في الحال وكمن في
حجره بحيث لا يظهر منه شي البتة

ومن غريب امره انه عند جزر البحر (اي انحصاره) عن
الشاطئ يعرف حجره بحروق صغيرة في الرمل يخرج منها فتاقيع
من الماء فاذا نزل في البحر واراد العود الى حجره اهتدى اليه بها
واذا اراد الصيادون ان يخرجوه من حجره ليصطادوه وضعوا فوق

في مدته وذلك التاريخ يوافق مدة سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهكذا كانت الدينانير المضروبة في مصر الى القرن الثالث من الهجرة ولم يزل ينقش على الدينانير اسم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى القرن السابع من الهجرة ثم بطل ذلك وصار لا يرسم الا اسماء الملوك والقاهم واسماء البلاد ويقال ان ذلك كان في زمن السلطان مراد بن اورخان سنة ٧٦١ من الهجرة ولعل هذا كان بالنظر الى ان الدينار او الدرهم ربما يقع على الارض او يقع في يد من يتهاون بصيانة ما عليه من الاسماء الشريفة والآيات القرآنية فاخير تنزيها عن نقشها على النقود ويقال ان اول من وضع اسمه على النقود هو ابو جعفر المنصور العباسي في سنة ١٥٢ من الهجرة

فهذا ما حضرني الان ما يتعلق بالدينار الذي جرننا اليه مجت اللؤلؤ والمحار وهو مجت ظريف قطعنا به معظم الطريق من غير سامة ولا ملل فان كان عندك فيه مزيد فاتحنا به لتقطع فيه ما بقي من مسافة الطريق

الوقت صار الذي يكتب على النقود عبارات من القرآن او الحديث
او غيرها من العبارات الاسلامية وقد وجد دينار اسلامي قديم
فوجد في احد وجهيه ثلاثة اسطر تحت بعضها هذه صورتها



وعلى الوجه الآخر هكذا



ولم يذكر اسم البلدة التي ضرب فيها ولا الملك الذي ضرب

واشرب وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالاً والدرهم التي
 كان وزن العشرة منها ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل
 هي السهرة الحفاف والتقال وتقسها نقش فارس ففعل ذلك عبد
 الملك وامره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ان يكتب
 السكك في جميع بلدان الاسلام وان يتقدم الى الناس في التعامل
 بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم
 والدنانير وغيرها وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد
 الى السكك الاسلامية ففعل عبد الملك ورد رسول ملك الروم
 اليه بذلك يقول انه عزوجل مانعك ما اردت ان تفعله وقد
 تقدمت الى اعالي في اقطار البلاد بكذا وكذا وباطال السكك
 والطروز الرومية فقبل ملك الروم افعلم ما كنت تهددت به
 ملك العرب فقال لا انما اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لاني
 كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الان فلا افعل
 لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذي قال وثبت
 ما اشار به محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الى اليوم ثم
 رمى يعني الرشيد الدرهم الى بعض الخدم (اه مع يسير تصرف)
 قال وفي مرة الزمان وجد عبد الملك بن مروان في سنة
 ٧٥ من الهجرة دنانير مضروبة من مدة اربعمائة سنة من قبله
 مكتوب عليها اسم الاب والابن والروح فضرها دنانير جديدة
 ضرب عليها اسم الله ورسوله وبعض ايات من القران ومن ذلك

مكروماً وتمع به بمائة الف درهم لجهازه وبثلثائة الف درهم لنفقته
وحبس الرسول عنده الى موافاة محمد بن علي فلما وافاه اخبره
الخبر فقال له محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس
بشي من جهتين احداهما ان الله عزوجل لم يكن ليطلق ما تهدد
به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخرى وجود
الحيلة فيه قال وما هي قال تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون
بين يديك سككاً للدرهم والدنانير وتجعل النقش عليها صورة
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احدهما في وجه
الدرهم والدنار والاخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم
والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك
الدرهم والدنانير وتعد الى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الاصناف
الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن
سنة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعاً
واحداً وعشرين مثقالاً فتنجزها من الثلاثين فتصير العدة من
الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل
الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير
على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت انما هي
الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمر
رضي الله عنه بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة
الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوس خور) اي كل

ارغب اليك الى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز الى ما كان
 عليه اولاً فقراء عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب
 اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه ويقول انك قد استخفنت
 بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقلت الهدية فاضعفتها
 فحجريت على سبيلك الاول وقد اضعفتها ثالثة وانا احلف بالمسيح
 لتأمرن برد الطراز الى ما كان عليه او لا أمرن بنقش الدنانير
 والدرهم فانك تعلم انه لا ينقش شي منها الا ما ينقش في بلادي
 ولم تكن الدرهم والدنانير نقشت في الاسلام فينقش عليها شتم
 نبيك فاذا قرأته ارفض جبينك عرفاً فاحب ان تقبل هديتي وترد
 الطراز الى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها وتبقى
 على الحال بيني وبينك فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه
 الامر وغلظ وضاق به الارض وقال احسبني اشأم مولود ولدني
 الاسلام لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم
 هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكث محوه من جميع مملكة
 العرب اذ كانت المعاملة تدور بين الناس بدنانير الروم ودرهمهم
 فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به
 فقال له روح بن زنباع انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكمك
 تتعد تركه فقال ويحك من فقال عليك بالباقر من اهل بيت
 النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ولكن ارتج علي الرأي فيه
 فكتب الى عامله بالمدينة ان اشخص الي محمد بن علي ابن الحسين

العزير بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وإن يامر صناع القراطيس أن يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله أنه لا اله الا هو قال وهذا طراز القراطيس خاصة الى وقتنا هذا لم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شي منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل الى بلاد الروم منها اتشخر خبرها ووصل الى ملكهم وترجم له ذلك الطراز فانكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم الى ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء اصاب فقد اخطأت وإن كنت قد اصبحت فقد اخطأوا فاختر من هاتين الحاليتين ايتها شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تشبه محلك واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الاعلاق حاجة اشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية وكانت عظمة القدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما وافاه ضعف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال اني ظننتك استقلت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني على كتابي فاضعفت الهدية واني

وارسل يلومه ويقول له ان لم ترجع عن مثل هذا كتبت اسم
 نبيكم على النقود بصورة تغتاز منها فغضب لذلك عبد الملك
 واستشار خالد ابن يزيد فاشار عليه باستحداث نقود اسلامية
 للتعامل بها بدل نقود الروم (اه)

وقال في حياة الحيوان في ترجمة عبد الملك بن مروان وهو
 اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدينار
 نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية قال ولهذا سبب وهو اني
 رأيت في كتاب المحاسن والمساوي للامام ابراهيم بن محمد البيهقي
 ما نصه قال الكسائي دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه
 وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وامر بتفريقه في
 خدمه الخاصة ويده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً
 ما يحدثنني فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب
 والفضة قلت ياسيدي هو عبد الملك بن مروان قال فما كان
 السبب في ذلك قلت لا علم لي غير انه اول من احدث هذه
 الكتابة فقال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان اكثر من
 بمصر نصرانياً على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان
 طرازها اباً وابناً وروحاً فلم يزل ذلك كذلك صدر الاسلام كله
 يمضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك بن مروان فتنبه
 له وكان فطناً فينما هو ذات يوم اذ مر به قرطاس فتظر الى طرازه
 فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وامر بالكتاب الى عبد

وكان قطر الدينار القديم قدر ١٩ من الميللي متر وهو مساوي
 لقطر البندقي القديم الوارد من بلاد البنادقة والروم وبلاد
 الفلنك ويساوي أيضاً قطر الفندقلي والزر محبوب

وكان يوجد على النقود من قديم الزمان صور مرسومة عليها
 وقيل انها بقيت كذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 والي بكر وعمر ثم الى سنة ١٨ من الهجرة بدون ان يحصل فيها
 تغيير ما وكانت تشابه النقود الكسروية على ما ذكره المقرئ ثم
 اضاف اليها عمر لفظ الحمد لله في بعضها ولا اله الا الله في البعض
 ومحمد رسول الله في البعض واثبت اسمه في بعضها ايضاً

وضرب في زمن معاوية دنانير فيها رسم انسان متقلد سيفاً
 وكذلك ضرب في زمن عبد الملك بن مروان دنانير مؤرخة في
 سنة ٧٦ عليها صورة ورسم عليها في مدة الظاهر ركن الدين
 بيبرس في سنة ٦٥٨ من الهجرة صورة سبع وكانت تعرف
 بالظاهرة

ويقال ان اول من استحدث المعاملة الخالية عن الصور عبد
 الملك بن مروان وان الذي اشار عليه بذلك خالد بن يزيد ابن
 معاوية وقال له ان الملوك الذين عظموا اسم الله جل ذكره على
 النقود متعمم الله بطول الحياة وقال بعضهم كان السبب في ذلك
 ان عبد الملك المذكور كتب اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم
 في كتاب ارسله الى ملك الروم فاغتاظ ملك الروم من ذلك

الضرب ٢٠ صندوقاً مملوءة دراهم جديدة ومنعت المعاملة بالقدية
وامر بردها في ثلاثة ايام فكان الناس يستبدلون الدرهم الجديد
باربعة قديمة وجعلت قديمة الدينار ١٨ درهما من الدراهم الجديدة
قال ولم يزل التعامل بالدينار مستمراً بمصر وسائر البلاد الاسلامية
الى مدة السلطان صلاح الدين فكانت اجرة الاجير وثن البضائع
وخراج الارض تقدر بالدنانير وكانت الدنانير المتداولة بمصر
مختلفة فمنها ما كان من ضرب مصر ومنها ما كان وارداً من بلاد
الروم وكانت الدنانير الواردة من الروم تعرف بالهرقلية

وكان يتعامل الناس ايضاً بالعملة المعروفة بالبندقي نسبة الى
مدينة البنادقة (ونديك) من بلاد ايطاليا

وقد وجدت دنانير مضروبة في مصر باسم احمد بن طولون
سنة ٢٥٤ من الهجرة وضرب القائد ابو الحسن جوهر الصقلي بمصر
في زمن المعز لدين الله سنة ٣٥٨ دنانير كانت تسمى المعزية نسبة
الى المعز

وضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٨ من
الهجرة دنانير بعيار اقل مما قبله كانت تعرف بالناصرية

وكانت العرب في الاصل تتعامل بقطع من الذهب والفضة
غير منتظمة الشكل بين مربع ومستدير وغيرهما ثم اخضت بالشكل
المستدير في زمن عبد الله بن الزبير ايام خلافته بمكة وذلك سنة
٦٤ من الهجرة

وللدرهم قرش وتسع وعشرون فضة باعتبار الدرهم وهو قيراط ١٦
 يزيد قيراطين عن الدرهم الشرعي وذكر فيه ان حضرات العلماء
 المنوطين بالافتاء في مجلس الاحكام المصرية قرروا بعد المخابرة مع
 ناظر دار الضرب وتحقيق الاسعار والاوزان بحسب اسعار الذهب
 والفضة الغالين على المضاف ان الواجب في الدية الشرعية
 باعتبار الاسعار الجارية وقتئذ بالنظر لقيمة الغالب في الفضة اي
 باعتبار الثلثين من الفضة والثلث من المضاف خمسة عشر الف
 قرش وثلاثة وتسعون غرشاً وثلاثون فضة بالعملة المعروفة بالصاغ
 الديواني وذلك قيمة عشرة الاف درهم شرعي واذا اعتبرت الدية
 من الذهب الغالب على غيره بالمعنى المذكور في الفضة تبلغ اربعين
 الف قرش وسبعائة واثنين وستين غرشاً وعشرين فضة بالعملة
 المذكورة وذلك قيمة الف دينار والدينار هو المثلث كما مر
 (اه المراد منه)

وذكر المقرئ ان قيمة النقود في السبعة القرون الاول من
 الهجرة اعتبرت تغيرات كثيرة ومنها الدينار فكان في سنة ٣٦٢ من
 الهجرة يساوي خمسة عشر درهما ونصف درهم وفي زمن الحاكم بامر
 الله ابي علي المنصور بن العزيز كثرت الدراهم كثرة عظيمة وكثر
 فيها الغش فصار الدينار يبادل باربعة وثلاثين درهما وعلت
 اسعار الاشياء وضجر الناس من ذلك فامر بجمع الدراهم الموجودة
 فجمعت وضربت جديداً بعيار اعلى مما كانت عليه وتقل من دار

عياره في تلك الاوقات وهو ٩٨٧ بالنسبة للاف ووزنه بالجرام
 ٤٢٨٢ جراماً وهو اصغر من المئقال الشرعي بجزء من سبعة
 وثلاثين تقريباً فان وزن المئقال الشرعي الذي هو درهم وثلاثة
 اسباع درهم يساوي علي حسب ذلك ١٦ باره و٥٧ غرشاً بالعملة
 الديوانية المذكورة (هـ)

وقد وجدت هذه القيمة قريبة مما يستنبط من رسالة الشيخ
 الذهبي المتقدم ذكرها فانه بين فيها مقدار نصاب الزكاة من كل
 نوع من انواع النقود المتداولة في مصر فقدر النصاب من الجنيهات
 المصرية باحد عشر ونصف وربع وهي بمبلغ ١١٧٥ غرشاً والنصاب
 عشرون مثقالاً من الذهب فيخص كل مئقال باره ٢٠ وغروش
 ٥٨ وكذلك من العملة الفرنسية المعروفة (بالبتو) فان النصاب
 منها بمقتضى الرسالة المذكورة خمسة عشر وثلاث فالمئقال فيها
 يساوي نحو ٨٩ غرشاً وكلاهما قريب مما مر ذكره وقس عليهما
 غيرها قال وقيمة المئقال من ذهب البنتو بما فيه من الاضافة
 تساوي الان في مدينة باريس خمسة عشر مثقالاً ونصف مئقال
 من فضة الريال المعروف بالشنكو بما فيها من الاضافة ايضاً
 والاضافة عندهم في كل من الذهب والفضة تكون بقدر العشر
 وقد صدر منشور من جانب الحكومة المصرية في اوائل شهر
 ربيع الاخر سنة ١٢٧٥ في تعيين مقدار الدية الشرعية فقدر فيه
 للدينار وهو المئقال اربعون غرشاً وثلاثون فضة وخمسة جدد

ويوجد في بعض البنادقة ما هو بهذا المقدار ويسمى الشخص وقالوا
انه معيار للمنتال الشرعي كما افاده الشيخ الصوفي فالمنتال المصري
منتال شرعي ورابع خمسه فالعشرون من المناقيل المصرية واحد
وعشرون بالمنتال الشرعي واما الدرهم فقد علمت انه شرعي وقد
حررناه على درهم الملك الاشرف المنوم بجنمه المحرر على الدرهم
الشرعي فوجدناه مثله (اه المراد منه)

واما عيار الدينار وقيمه فقد كنت تكلمت في ذلك مع رجل
من نبهاء الصيرافة وكان يعرف باثقان لغة الفرنسيين وكثرة
الاطلاع على كتبهم فقال لي نقلاً عن بعض مؤلفهم كان عيار
الدينار في الاصل عند جميع الامم عالياً جداً يكاد يكون ذهباً
خالصاً فقد عثر على دينار مضروب في مدينة دمشق سنة ٩٧ من
الهجرة وحرر عياره في دار الضرب بمدينة باريس فوجد في عيار
٩٩٧ بالنسبة للالف يعني $\frac{22}{22}$ قيراط ٢٢ ويقرب منه الدينار
الذي ضرب في زمن ابن طولون فانه كان عياره ٩٩٦ وكان
يعرف بالاحمدي فيين هذا العيار وعيار صنف المحبوب الذي
كان يضرب بمصر مدة استيلاء الفرنسيين عليها تفاوت كبير
وفرقت ظاهر لانه كان عياره $\frac{24}{22}$ قيراط ١٦ يعني ٦٩٨ بالنسبة
للالف وقيمة الدينار الذي كان التعامل جارياً به الى القرن
الثالث من الهجرة اربعة عشر فرنكاً وواحد وخمسون سنتياً وذلك
يساوي بالعملة الديوانية الميرية المعروفة بالصاغ (وهذا باعتبار

اخماس وقاسوا المتقال على الدرهم بالنسبة السابقة وجعلوا ذلك
 على وزن ما قدر به اليونان لكن لا يخفى ان المتوسط في الخفة
 والرزانة انما يعلم بمراعاة اوقات الاستنبات من الفصول الاربعة
 الزمنية واما كنهه كما افاده ابن ابي الفتح الصوفي في رسالته تحفة النظار
 في انشاء العيار وذلك قد لا يتيسر فالاقرب بل العمدة على
 التحرير بالخردل البري فيؤخذ منه خمسون خردلة ويجرر بها
 صنجة لحمس حبة الخرنوب ويجرر بالمجموع صنجة للخمسين وبالمجموع
 صنجة لاربعة اخماس وبالصنجة الاولى والثالثة صنجة للحبة وتسمى
 قيراطاً فمجموع الصنج الاربع قيراطان وخمسان وذلك سبع درهم
 وعشر متقال فيركبان على هذه النسبة كما مر فالمتقال اربعة
 وعشرون قيراطاً والدرهم ستة عشر قيراطاً واربعة اخماس قيراط
 والقيراط مقدار مائتين وخمسين خردلة وجعله السادة الخنفية
 مقدار ثلثائة خردلة حيث قالوا المتقال عشرون قيراطاً والدرهم
 اربعة عشر قيراطاً وهو اصطلاح روعي فيه النسبة بدون كسر
 فندبر وقد حدث في عرف مصر جعل الدرهم الشرعي ستة عشر
 قيراطاً والمتقال درهما ونصف درهم فيكون القيراط المصري مقدار
 مائتين واثنين وستين خردلة ونصف خردلة ويكون المتقال
 مقدار ستة آلاف خردلة وثلثائة فيزيد عن المتقال الشرعي قيراطاً
 مصرياً وسبع قيراط فالمتقال الشرعي من القيراط المصرية اثنان
 وعشرون قيراطاً وستة اسباع قيراط كما هو مقتضى النسبة الشرعية

من الفضة الصافية فان الذهب حينئذ يكون اقل من الفضة
 بثلاثة اسباعها كما هو معلوم . هذا كلامه والذي اعلمه من كلام
 ما قدمنا ذكره ان الثقل النوعي للذهب الصافي بالنسبة للماء
 المقطر تسعة عشر وربع وثقل الفضة الصافية ايضاً عشرة ونصف
 وعلى هذا يزيد وزن الذهب عن مثل مساحنه من الفضة ثلثي
 مرة وثمان مرة تقريباً لا ثلاثة اسباع فلو اخذنا كرة من الفضة
 الصافية ووجدنا وزنها مثقالاً مثلاً ثم اخذنا كرة من الذهب
 الصافي مثل مساحتها ووزنها لوجدنا وزنها مثقالاً وثلثي مثقال
 وثمان مثقال تقريباً لا مثقالاً وثلاثة اسباع فليظنر

ثم قال الذهبي وانما قاسوا على هذه النسبة لغلبة استعمال
 الدرهم والمثقال في التقدين مع اشتها المثل في الذهب والدرهم
 في الفضة وانما قدروا بالخرجل البري لكونه نوعاً واحداً لا يختلف
 خفة ووزانة كما نقله المميزي وغيره فالتقدير به منسق مطرد
 بخلاف باقي الحبوب فانه مختلف فلا يصح التقدير به نعم اذا كان
 الحب متوسطاً في نوعه خفة ووزانة صح التقدير به كما صنع
 المتأخرون روماً لقلة العدد حيث قدروا الدرهم من الخردل
 البستاني الاحمر المعتدل المتساوي بالف حبة ومن الششم الهندي
 الاسود البالغ المعتدل المتساوي بمائة واربع واربعين حبة ومن
 الشعير الاعزل الملائن المعتدل بخمسين شعيرة وخمسين ومن
 حب الخرنوب الاصم المعتدل المتساوي بستة عشر حبة واربعة

فمنها عشرة دراهم على وزن عشرة مثاقيل وعشرة على ستة مثاقيل
وعشرة على خمسة مثاقيل فاخذ عمر رضي الله عنه ثلثاً كيلا تظهر
المخسومة في الاخذ والاعطاء فنلت عشرة ثلاث وثلث ستة اثنان
وثلث خمسة واحد وثلثان فالمجموع سبعة وان شئت فاجمع المجموع
فيكون واحداً وعشرين فنلت المجموع سبعة ولذا كانت الدراهم
العشرة وزن سبعة وهذا يجري في كل شي حتى في الزكاة ونصاب
السرقه والمهر وتقدير الديات (انتهى)

ورأيت للشيخ مصطفى الذهبي الشافعي المصري رسالة في
تحرير الدرهم والمثقال حررها سنة ١٢٧٢ من الهجرة قال فيها
اما الدرهم والمثقال فقد نصوا على انها لم يخلفا جاهلية واسلاماً
يعني ان مقدارها في الاسلام لم يتغير عما كان في الجاهلية مما حرره
اليونان فقد تعامل الناس به حين ورود الاسلام مع سكوت
الشارع على ذلك فالدرهم والمثاقيل الواردة في الزكاة وغيره
محمولة على ذلك وليست مبهمه خلافاً لما توهمه بعضهم ونقل ابن
الرفعة في التبيان والسروجي في شرح الهداية والسيوطي في قطع
المجادلة والمقرئزي وعبد القادر الصوفي وغيرهم ان اليونان قدروا
الدرهم باربعة الاف ومائتي حبة من حب الحمردل البري وقدروا
المثقال بستة الاف حبة من ذلك فالدرهم سبعة اعشار المئقال
اي نصفه وخمسه والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم فالعشرة دراهم
سبعة مثاقيل وذلك على قياس نسبة الذهب الصافي لمثل مساحنه

لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب وها هنا مباحث

الاول قد ذكروا انه معرب ولم يذكروا من اي لغة عرب
وقد وقع في البرهان وغيره من كتب اللغة الفارسية بالياء كما هو
في العربية فيظهر كما في الاوقيانوس انه مركب من لفظتين
احدهما (دين) والثانية (آر) الاولى بمعنى الطاعة والمحشمة
والاسلوب والدولة والسلطنة والثانية بمعنى المحضر والمحصل بصيغة
اسم الفاعل من احضر وحصل فيكون معنى دينار محصل ما ذكر
لانه سبب تحصل ذلك

الثاني قالوا ان اصله دنار ثم قلبت النون ياء والذي في
الكتب الفارسية دينار بالياء كما مر على انه فارسي وقد وجد في
كتب العربية بالياء ايضاً فالظاهر انهم توهموا فيه انه عرب على
دنا بابدال الياء نوناً ثم استعملوه بقلب نونه ياء للتخفيف او اصله
عربي برأسه اصله دنار ثم خفف بالابدال المذكور

الثالث الدينار قطعة مضروبة من الذهب للتعامل بها
والمعتبر في مقداره شرعاً مثقال من الذهب كما هو مذكور في
الكتب الفقهية في باب الزكاة وغيره وترى الفقهاء تارة يقولون في
نصاب زكاة المال انه عشرون مثقالاً وتارة يعبرون بالدينار
ومرادهم بالدينار والمثقال شي واحد والمثقال المعتبر شرعاً درهم
وثلاثة اسباع درهم قال الخطاوي في حاشية على شرح الدراعم
ان الدراهم كانت في عهد عمر رضي الله تعالى عنه مختلفة

وابيضه واخضره وانواع الجواهر فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة الفارسية حمل اليه في الفئ فلما رآه قال ان امة ادت هذا الى اميرها لامناء ثم فرقه فوقع منه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه قطعة في قسمة مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر الف دينار



المسامرة الثالثة والاربعون

الدينار

فقال يعقوب الحديث شجون ارجوك ايها الاستاذ ان تمنّ بشرح لفظ الدينار ومعناه فكثيراً ما اسمعه في العربية ولا اعرفه قال الشيخ لفظ الدينار قال صاحب القاموس وغيره انه معرب اصله دنار بتشديد النون فابدل من احدى النونين ياء

زنته أربعة مثاقيل ونصف أربعين ديناراً وعقد أربعة ونصف
 وربع بخمسة وخمسين ديناراً وعقد خمسة مثاقيل بخمسة وستين
 ديناراً وعقد خمسة وربع بخمسة وسبعين ديناراً وعقد خمسة
 ونصف وربع بتسعين ديناراً وعقد ستة بمائة دينار وعقد سبعة
 بمائة وخمسين ديناراً

ويتضاعف بهذه النسبة إلى أعظم ما يوجد منه في الوزن
 والغبطة فيه بحسب جودة أوصافه التي تقدم ذكرها وخلوه من
 العيوب وعيوبه التصديف وعدم الاستقرار (أي عدم الاستدارة)
 والصفرة والانبراض وهو فتح اليباض وحصته وعدم رونقه وسعة
 الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن (أه مع تصرف وإختصار)

وقد سمعنا بكثير من هذه الأحجار الثمينة كانت للموك في
 الأزمان الخالية قومت بأموال كثيرة على نحو ما ذكرت وقد أورد
 الشيخ محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي أشياء من ذلك في
 كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر فمنها درة حملها مسلم بن
 عبد الله العراقي إلى الرشيد فابتاعها منه بتسعين ألف دينار
 وعرفت بالدرة اليتيمة لأنها لم يوجد لها إذ ذاك في الدنيا نظير
 وكان للمتوكل سجة فيها مائة حبة اشترت كل حبة منها بالف
 مثقال قال وكان فيما أهدى ملك الهند إلى كسرى جام ياقوت
 أحمر فتحه شبر مملوء دراً قيمة كل درة ألف وخمسمائة مثقال وكان
 لاثروان بساط الشتاء مرصع بازرق الجواهر وأحمره وأصفره

وزنها درهان و حبة مثلاً او حبتان كما مر اذا اجتمع فيها شرائط
الجودة كانت قيمتها سبعمائة دينار فان كانتا اثنتين على الصفة
المذكورة كانت قيمتهما الفي دينار كل واحدة منهما بالف دينار
بشرط اجتماعها بالآخرى والعقد المتعارف عند اهل بغداد خمس
وثلاثون حبة اقل ما يكون وزنه سدس مثقال وهي اربعة
قراريط قيمة عشرة عقود من هذا العقد ثلاثة ارباع دينار عقد
ربع مثقال عشرة عقود بدينار عقد ثلث مثقال عشرة عقود بدينار
وربع عقد نصف مثقال عشرة عقود بدينارين عقد ثلاثة ارباع
مثقال عشرة عقود باربعة دنانير عقد مثقال عشرة عقود بعشرة
دنانير عقد مثقال وربع بخمسة عشر العشرة عقد مثقال ونصف
بعشرين العشرة عقد مثقال ونصف وربع بخمسة وعشرين العشرة
عقد مثقالين بخمسة وثلاثين العشرة عقد مثقالين وربع باربعين
دينارا العشرة عقد مثقالين ونصف بخمسين العشرة عقد مثقالين
ونصف وربع بسبعين العشرة عقد ثلاثة مثاقيل بثمانين العشرة
عقد ثلاثة وربع بتسعين العشرة عقد ثلاثة ونصف بمائة وعشرة
العشرة عقد ثلاثة ونصف وربع بمائة وخمسين العشرة عقد اربعة
مثاقيل بمائتي دينار العشرة فان كان نهاية في الجودة والصفاء
والمائة كانت قيمة العقد الذي زنته اربعة مثاقيل كل عشرة عقود
ثلاثمائة دينار لكل عقد ثلاثون دينارا ويخرج بعقوده حيثئذ من
باب العشرات الى باب الاحاد فتكون قيمة العقد الواحد الذي

البياض وكثرة الماء والاشراق واستواء اللون واستواء استدارته
 وشكله واكتنازه وما لم يكن كذلك فالآفات افسدته منها انه
 ربما كانت الدرّة لم تتم تربيتها وربما لصق بها شي من لحم الحيوان
 فصار كالصدي والوسخ فافسد لونها وربما كانت كدرة او كان
 فيها ماء او دودة او كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذا من آفات
 دخلت على الدرّة في ممر التربية لها واما فساد شكلها فمن قبل ان
 الحبة تقع في موضع من اللحم الذي في الصدفة غير مستو فتتجسد
 الدرّة على صورة الموضع الذي ضمها فحيد الجوهري في الجملة هو
 المدحرج اي المستدير من جميع جهاته الصافي الشفاف الكبير المحرم
 الكثير الوزن النقي اللون الضيق الثقب وجيد اللولو الدق هو
 الابيض النقي من الوسخ ثم ذكر تفصيل اثنائه على حسب ما كان
 قبل فقال اذا كان وزن الجوهرة مثقالاً وهي مستوفية لشرائط
 الجوده كانت قيمتها ثلاثمائة دينار فاذا كانت جوهرتين كل واحدة
 منها زنتها مثقال وها بهذه الصفة وبشكل واحد لا يفرق بينهما
 في الشكل والصورة كانت قيمتها اكثر من سبعائة دينار لاجتماعها
 وتناسبها في النظم واذا كان وزن الاثنتين مثقالاً وها بهذه الصفة
 كانت قيمتها مائة دينار واذا كان وزنها ثلثي مثقال كانت قيمتها
 خمسين ديناراً ورأيت في بعض النسخ نيفاً وعشرين ديناراً واذا
 كان وزنها نصف مثقال كانت قيمتها عشرين ديناراً فاذا كان
 وزنها ثلث مثقال كانت قيمتها خمسة دنانير والدرّة وهي التي

القرن السابع عشر للميلاد والحادي عشر للهجرة اشترى ملك العجم
لولوة بالفي الف وسبعمائة الف فرنك ويوجد عند ملك العجم
الآن سبعة كل حبة منها قدر حبة الجوز لا يقدر لها قيمة وكذلك
عند امير مسقط لولوة لا نظير لها على وجه الارض والذي يوجب
للولو ارتفاع قيمته وزيادة ثمنه كبر حجمه وحسن لونه وقد كنت
سمعت في ما يسمى به الكبير والصغير منه تفصيلاً لا يحضرني
الآن

قال الشيخ يطلق على الكبير والصغير منه اسم الجوهري ويخص
الكبير باسم الدر والصغير باسم اللؤلؤ ويسى ايضاً الحب واللؤلؤ
الدق ولولو النظم

قال يعقوب فهل للكبر والصغرية حد معين
قال الشيخ نعم قال التيفاشي في كتاب الاحجار كل ما زاد
عن وزن درهين ولو حبة واحدة في الجوهرة المفردة سمى في
اصطلاح الجوهريين دراً فاذا نقصت في الوزن عن درهين ولو
حبة ايضاً سميت في اصطلاحهم حبة بشرط اجتماع سائر الاوصاف
الجيدة في الدرّة فان كانت زنتها اكثر من درهين ولو ثلاثة مثلاً
او اكثر الا ان فيها عيباً من عيوب الجوهري فانها تسمى ايضاً في
اصطلاحهم حبة ولا يعتبر وزنها مع عدم اجتماع الاوصاف الجيدة
فيها والجودة في الجوهري تكون استكمال خواصه المطلوبة فيه اما من
حيث الكمية فبالعظم وكثرة الوزن واما من حيث الكيفية فبشدّة

الاف الف فرنك التزماً

وليس هذا النوع مخصصاً بجزيرة سيلان بل يستخرج أيضاً في
 جهات متعددة مثل جهة بنجال وبحر الصين والهند والبابونيا
 وغيرها وبلغ مقدار ما يتحصل في الجهات الهندية في السنة الواحدة
 من اللولو والصدف نحو العشرين الف الف فرنك

ومن يتجر في اللولو والصدف اهل السواحل المقابلة للعجم
 اعني سواحل بلاد العرب قال بعضهم ان الذي يتحصل من جهة
 البحرين خاصة في كل سنة يقرب من ستة الاف الف فرنك وان
 اخراجه في هذه الجهات في شهر يولييه وشهر اغسطس وما زال
 اللولو في جميع الازمان عند جميع الامم مستعملاً في حلي النساء
 وزينتهن وكان الرومانيون يكتلون به بعض ملابسهم وتجانهم
 وبعض فرشهم ويقال ان كلوباتره وضعت مرة في قدح الشراب
 لولوة قيمتها الف الف فرنك وخمسمائة الف فرنك

ثم سرى اتخاذه والافتخار به من الرومانيين الى المشرقيين
 ثم الى الاوروبيين وفي كتب التاريخ انه في سنة ١٥٧٢ للميلاد
 وسنة ٩٨٧ للهجرة اهدي الى فيليب ملك اسبانيا لولوة في حجم
 الكمثرى وانه وجد سنة ١٦٠٥ من الميلاد وهي سنة ١٠١٤ من
 الهجرة عند امرأة من اسبانيا لولوة بلغت قيمتها احدى وثلاثين
 الف بنديقي وان البابا ليون العاشر اشترى من بعض جوهريه
 البنادقة لولوة بلغت ثمنها ثلاثمائة الف وخمسين الف فرنك وفي

عيونها متفاوتة في القلة والكثرة والضيقة والسعة وقد جعل لكل واحد من هذه الغرابيل نمرة على حسب ما فيه من العيون فما كانت عيونته عشرين كانت نمرته عشرين وما كانت عيونته ثلاثين كانت نمرته ثلاثين وهكذا

فاللؤلؤ الكبير الحبات الذي لا يمر من شي من هذه الغرابيل يقال له من الدرجة الاولى والذي يمر من غربالٍ نمرته مائة فاكثر الى ثمانمائة يطلق عليه اسم الدرجة الثانية والذي يمر من نمرة الف يطلق عليه اسم الدرجة الثالثة

واما الصدف الذي يخرج من محار اللؤلؤ فهو الطبقة الباطنة للحجارة لا الظاهرة وهو ثلاثة انواع فضي وابيض واسود فالاول يجلب من الهند والصين والبيرو والثاني يكون من صخور مخضرة او حمراء والثالث من صخور زرقاء مشوبة بسواد ويكون فيه عروق حمراء او زرق او خضر

واوان استخراجها من البحر في جهة سيلان شهر فبراير او شهر مارث ومدة استخراجها شهر واحد والمستغلون باستخراجها بهذه الجهة قريب من مائتي مركب وقد تحصل منه في سنة ١٧٩٧ من الميلااد وهي سنة ١٢١٢ من الهجرة ثلاثة الاف الف وستائة الف من الفرنكات وزاد في السنة التي بعدها نحو ثمانمائة الف فرنك ثم في ابتداء سنة ١٨٠٢ للميلااد الموافقة لسنة ١٢١٧ من الهجرة اعطي من قبل الحكومة الانكليزية لمن تعهد به في مقابلة ثلاثة

هذا على محييء ضمير صاحب الحال في اخر الجملة الحالية فان
الماء مبتدا وغامره خبره والجملة حال من ضمير نصف العائد الى
الغائص وهذا ضعيف قليل وروي برفع النهار والجملة حال منه
ولا رابط فتقدر الواو وقوله وشريكه بالغيب ما يدري وفي رواية
رفيقه اي لا يعرف رفيق هذا الغائص حاله لكونه يغيب تحت
الماء ومنيته هي ما يتمناه وصدفية حال من الضمير في قوله بها
وقوله الا تشري اي الاتسيعها والصواري الملاحون وسجودهم لها
لعزتها ونفاستها والتجر مصدر تجر يتجر تجراً وتجارة من باب نصر
فهذا بعض ما يتعلق بهذه الايات من الشرح اما ما ذكرت من
كيفية استخراج الصدف من البحر فقد رايت في بعض الكتب
العربية ككتاب التيفاشي في الاحجار نحواً منه ولكني لم اجد فيما
رايت منها كيفية استخراج اللؤلؤ من ذلك الصدف بعد اخراجه
من البحر

قال يعقوب العادة في ذلك ان يفرز ما استخرجه كل واحد
منهم على حدته ويترك حتى يموت الحيوان ويتعفن فيفتحون
الصدف ويخرجون اللؤلؤ من جوفه وبعد ذلك يضعون اللحم
في قدر ويوقدون عليه بالنار لتذوب مواده فيخرجون ما يجذونه
في داخله من اللؤلؤ وجميع ما يوءخذ قبل الغلي له اناس ينظفونه
في سمط او اكثر ثم يجلونه بترابه او بتراب الصدف ولاجل ترتيب
اللؤلؤ على حسب تفاوت درجاته ينزلونه من غرابيل من نحاس

صفة الاربعة والاضافة لفظية والنجر بفتح النون وسكون الجيم
الاصل يعني ان هولاء الاربعة اصلهم مختلف والوانهم مختلفة وقوله
القوا اليه مقالدا الامر اي ملكوه زمام امرهم والمقالد جمع مقلد وهو
المفتاح وكذلك يجمع على مقاليد والاقليد المفتاح ايضاً معرب
ككيد الفارسي وجمعه مقاليد على غير قياس والاقليد ايضاً برة
الناقة وهي حلقة تحبل في انفها والسحجاء بتقديم الجيم على الحاء هي
الطويلة الظهر واراد بها السفينة وقوله فانصب اسقف الخ اراد به
انه التي نفسه في البحر غائصاً ليستخرج الدر والاسقف بفتح الالف
والقاف من السقف بفتحين وهي طول في انحاء ولبد بكسر الباء
اي متلبد وقوله اشفى فعل ماض يقال اشفى على الشيء اذا اشرف
عليه ويح الزيت يقذفه من فيه كما هي عادة الغائص قال
المسعودي غاصة هذا البحر (يعني البحر الذي فيه صدف الدر)
يكون معهم دهن له في الماء بريق فاذا راوا حيواناً مؤذياً ارسلوا منه
شيئاً فارتج في البحر صاعداً فتراه تلك الحيوانات فتفزع منه وتنفر
عنه وكل من قوله اشفى وقوله يبع فاعلمها ضمير اسقف وملتص
وما بعده من الوصفين نعوت لاسقف وقوله قتلت اباه الخ اي ان
اباه هلك في حب هذه الدرة او في تحصيلها فقال هذا الغائص
اتبعه في الهلاك او استفيد مالا كثيراً والرغبة ما يرغب فيه وقوله
نصف النهار روي بفتح النون والصاد والفاء ونصب النهار من
قولهم نصفت الشيء اذا بلغت نصفه وهو بهذه الرواية يذكر في النحوت

التي مراسيه بتهلكة * ثبتت مراسيها فأتجري
 فانصب استقف رأسه لبد * نزع رباعيناه للصبر
 اشفى بجم الزيت ملتمس * ظمان ملتهب من الفقر
 قتلت اباه فقال اتبعه * او استفيد رغبة الدهر
 نصف النهار الماء غامره * وشريكه بالغيب ما يدري
 فاصاب منيته فجماء بها * صدفة كمنية الحجر
 يعطى بها ثمناً ويمنمها * ويقول صاحبها الا تشري
 وترى الصواري يسجدون لها * ويضمها بيديه للتجر
 فلتلك شبه الماء لكنها * طلعت ببهجتها من الخدر

قال يعقوب لقد اجاد هذا الشاعر في حسن اسلوبه ولكني
 قد استعجم عليّ فهم بعض هذه الايات فارجوان تم فضلك عليّ
 بشرح ما يحتاج الى الشرح منها

قال الشيخ نعم قوله كجمانة البحري الخ اراد به تشبيه محبوبته
 بالجمانة التي استطرد في صفتها والجمانة بضم الجيم واحدة الجمان
 وهو اللؤلؤ وقيل حبات تصاغ على شكله من الفضة والمراد هنا
 الاول وقوله جاء بها غواصها من لجة البحر يوافق ما مر في كلامكم
 من ان صدف الدر يوجد في المحلات العميقة من البحر بعيداً عن
 الشاطئ وصلب الفواد بضم الصاد اي قويه وشديده وهو صفة
 الغواص وقوله رئيس اربعة يوافق ما ذكرته في صفة الغواصين
 من انهم يتناوبون الغوص خمسة فخمسة وقوله متخالي الالوان

نصف دقيقة فيغطس الواحد منهم بهذه الكيفية ثلاث
مرات متوالية وان كان الجو موافقاً ربما غطس الواحد منهم نحو
خمسة عشر مرة على التوالي وكثيراً ما يخرج من انوف الغطاسين
وافواهم واذانهم بعد خروجهم من البحر ماء مختلط بدم وربما تغتالم
حيوانات الماء خصوصاً الحيوان المسمى بكلب البحر فانه يتقرب
نزولهم ليفترسهم

فانظر كيف يجعل الانسان نفسه عرضة للتهلكة لاجل
الحصول على معيشته ويرى النساء والبنات يتجملن بهذا اللؤلؤ
ويتجملن به ولا يبالين بان الحبة الواحدة منه ربما فقد بسببها
واحد من الناس فهذه كيفية استخراج المحار من البحر

فقال الشيخ ذكرت بما حكيت من صفة استخراج هذا المحار
قصيدة للاعشى ميمون مدح بها قيس بن معدي كرب الكندي
تغزل في اولها محبوبته الى ان شبهها بالدرة ثم استطرد فوصف
الدرة وحسنها ومن استخراجها من محلها وكيف عانى الشدائد في
تحصيلها فقال وقد ذكر محبوبته

كجماناة البحري جاء بها * غواصها من لجة البحر
صلب الفواد رئيس اربعة * متخافي الالوان والنجر
فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا * القوا اليه مقالداً الامر
وعلت بهم سحجاء خادمة * تهوي بهم في لجة البحر
حتى اذا ما ساء ظنهم * ومضى بهم شهر الى شهر

كتطر الماء في الاصداف در * وفي جوف الافاعي صار سما
وقيل غير ذلك

فقال يعقوب الصحيح المحقق الان هو ما ذكرته لحضرتكم
ويوجد محاره في عدة بجان في جهات مختلفة مثل البحر الاحمر في
سواحل العرب وفي سواحل مملكة بابونية بجز الهند وفي سواحل
الكاليفورنيه بامريكا ومعرفة كيفية استخراجها من الامور المهمة في
جهات وجوده

وهذا الصدف في العادة يوجد على الصخور في المحلات العميقة
من البحر بعيداً عن الشاطئ والعادة في استخراجها بجهة سيلان ان
تجتمع المراكب المعدة لذلك وتسير الى ان تقرب من موضعه ويكون
في كل مركب عشرون رجلاً عشرة لخدمة المركب وعشرة
يتناولون في الغوص عليه خمسة فخمسة وكيفية ذلك ان يشد
كل منهم في احدى رجليه حبلًا فيه حجر لسهولة نزوله الى قاع
البحر بسرعة ويجعل في رجليه الاخرى حبلًا اخر فيه شبكة كالمخلاة
ويأخذ بيده اليمنى حبلًا ثالثًا قد شد طرفه الاخر بالمركب ليصعد
به بعد انتهاء عمله ويسد انفه بيده اليسرى حين يلقي نفسه في
البحر فاذا وصل الى قاع البحر حول المخلاة التي في احدى رجليه
الى عنقه ثم يجمع ما يجده من المحار ويضعه في تلك المخلاة فاذا
ضاق نفس الواحد منهم في اثناء الغوص هز الحبل الذي بيده
فيشدونه الى سطح الماء وغاية ما يمكن للغطاس ان يكث تحت الماء

فحصل لهم بسببه فوائد عظيمة حصلوا منها اموالاً جسيمة حتى كانت اعظم اسباب غناهم وكان السبب في ذلك انهم رأوا في داخل بعض اللؤلؤ اشياء دقيقة مثل رملة او بيضة سمكة فاستنبطوا من ذلك ان اللؤلؤ يتكون في داخل المحارة من حدوث عارض خارجي مثل ما ذكر فتجملوا على ادخال شي من هذه الاجسام واشباهها بين فلتقي بعض محار لم يكن حدث فيه لؤلؤ ثم نظروا فيه بعد ذلك فراؤهُ قد صار فيه لؤلؤاً فعملوا صحة ما ذهبوا اليه واستعملوا ذلك في كثير من انواع المحار فنجحت اعمالهم وكثر اللؤلؤ عندهم وعظمت تجارتهم وزاد انتفاعهم وقد حقق اهل الفن ان اللؤلؤ يحدث في المحار من مرض يعرض لحيوانه عند دخول جسم غريب في جوفه فيضر بصحنه ويتراكم حول هذا الجسم الغريب في كل سنة مواد صدفية يتكون منها اللؤلؤ فتارة يكون كبيراً وتارة صغيراً ومنه ما يوجد ملتصقاً بالمحارة وما يوجد في داخل غشاء الحيوان نفسه

فقال الشيخ رأيت في بعض الكتب ان هذا اللؤلؤ يتكون من مطر ينزل في شهر نيسان فتتلقى بعض قطراته الحبات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحبات صار سماً نافعاً وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤاً وعلى هذا قول الشاعر
ارى المعروف عند الحرّ دينا * وعند النذل منقصة وزما

لما جهله ولا يقف عند علم الظواهر فانه حجاب يمنع من معرفة
 السرائر كغائص البحر لاخراج الدر يكتفي بمعرفة نفاسته وغلو ثمنه
 وعزته. ويغفل عن معرفة اصل خلقتة والاسباب التي نشأ عنها
 والمواد التي تولد منها مع ان معرفة ذلك ربما ادت الى معرفة
 امور يقوى بها ايماننا ويتسع بها معاشنا

المسامرة الثانية والاربعون

اللؤلؤ

فقال له يعقوب ان ما ذكرته حق ومعرفة الاصل في كل
 شي احق ولذلك لما وقف الهنود واهل الصين على كيفية تكوين
 اللؤلؤ في بطن المحار تحايلوا في تكثيره بكل حيلة حتى كثرت
 التجارة فيه عندهم وزادت عما كانت عليه في الازمان السابقة

الأ لما يظهر لهم فيه فائدة خصوصية او تضطربهم اليه حاجة وقتية
 ولا يلتفتون الى ما ذكر ومن ذلك مسألة الودع مثلاً فان كثيراً
 من العالم يتخذونه زينة ويضعونه على رؤس اولادهم زعماً منهم ان
 في ذلك حفظاً لهم من بعض الامراض فتراهم يميزون بعض انواعه
 على بعض وبهذا التمييز تعلو القيمة وترخص من غير ان يلتفت
 البائع ولا الشاري لحاله وخلقته وكيفية معيشته وما فيه من عظيم
 الخلقه وعجيب الصنع وبعض الناس يزعم ان فيه سرّاً وان به
 يمكن ان يطلع على ما في الغيب بواسطة جمعه بين الكفين ونثره
 والتامل في اوضاعه عند وقوعه على الارض ويستنبطون من
 ذلك بزعمهم اموراً من المغيبات يعتقدون صحتها ويصدق العامة
 بعضهم بعضاً في ذلك بل كثير من ضعفاء من يدعي العلم وبعض
 اصحاب المظاهر يتوهمون صدق ذلك وهذا كله مما لا يعلم له اصل
 ولا يعرف له وجه فان الله سبحانه وتعالى كما خلق عالم البر
 وجعله انواعاً كذلك خلق عالم البحر وجعله انواعاً ومن عالم
 البحر نوع هذا المحار ومن هذا النوع الودع كل ذلك لحكم ازلية
 واسرار على عوام المخلق خفية فحق على كل ذي نظر سليم وعقل
 مستقيم ان ينعم نظره ويمعن فكره فيما يراه من مصنوعات الله ليعرف
 مزيتة وسره ويطلب من خالقه الهداية الى الوقوف على سرها
 اودع فيه من الحكمة الباهرة والصنعة الزاهرة ليزيد علمه ومعرفته
 ويكمل به منفعتة ولا يغتر بما علمه وحصله لانه كالعدم بالنسبة

كمان الذي ينشأ منه في البحار بخالف ما ينشأ منه في المياه العذبة
والانهار وقد صار هذا الحيوان مما يستدل به على عمر الارض وما
مضي عليها من الزمن بحسب ما يوجد في طباقها واعماقها من اثاره

المسامرة الحادية والاربعون

الودع

فقال الشيخ كم لله في الكون من اسرار عظيمة وبدائع غريبة
لا يفقهها كثير من العالم فهذا المحار يراه كثير من الناس من غير
ان يتأملوا فيما فيه من عظيم صنع الصانع الحكيم وحسن تديره
وعجيب حكمته وانما يشتغلون بما يقع تحت نظرهم من شكله ولونه
وهيئته من غير ان يعرفوا فيه حيوان ام لا وان كان فيه حيوان
فما حاله وما كيفية معيشته فعادة عامة الناس ان لا يوجهوا افكارهم

دهته اي حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالارجل فيتعلق ببعض الصخور والاحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه اذ ذاك لا يكون الا قدر خمس ميلي متر واحد اي بقدر جزء واحد من خمسة الاف جزء من المتر وبعد ثمانية اشهر يصل طوله الى نحو ثمانية ميلي مترات او عشرة وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الاسواق الا اذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو المعتبر بين ارباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها الا اذا بلغ هذا السن

وعالم المحار عالم كبير وعدده كثير حتى قيل انه اكثر المملكة الحيوانية عدداً وقد اختلفت اقوال الناس في ظاهره وباطنه فزعم بعضهم ان هذه المحارة او الصدفة الظاهرية التي تشاهد من الخارج هي عظم الحيوان والذي في داخله لحمه يعني ان هذا الحيوان يكون عظمه خارجاً وقد جعل وقاية للحمه ولحمه من الداخل على خلاف باقي الحيوان وقال اخرون وهو المرجح عند الاكثرين ان الحيوان انما هو اللحم وليس هذا المحار جزءاً من جسمه وانما يتكون من فضلات يبرزها الحيوان فتتراكم على بعضها وتختلف في الكبر والصغر بحسب كبره وصغره ومن النعم الالهية والاحسانات الربانية عموم وجوده في بحار الدنيا وانهارها ومحار كل جهة اوصاف وخصائص تتميز بها تخالف صفات ما يوجد في غيرها من الجهات

في البيضة كثرة الدجاج في البيض الى ان يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة اشهر من بؤته الى اخر مسري وفي هذه المدة يكون البيض في طيات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الام فيتغذى منها ويكون في طيات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة حين ترفد عليه وتحضنه وحينئذ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ولا ترى افراده از ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون في اول اطواره مصفراً كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون اخر الامر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في طيات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تذفه الام في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط ابيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار تتميز لونها عن لون الماء وحينئذ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت اليها الا المشتغلون بامرها المعانون لتربيتها ومن الغريب ان هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن اصله محاطاً بمادة تتكون منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون اذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز افراده الا بالنظارة المعظمة ويكون له حينئذ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حول اصله وينزع اليه متى

الكلام عليها ثم منها تنوزع في جسم الحيوان
ومن هذا يعلم ان هذا الحيوان له دورة دموية لكنها ليست
كالدورة في الحيوانات الكبيرة وإنما هي كالدورة في السمك
وبعض حيوانات غيره

وهذا الحيوان يستنشق في الماء ما يحتاج اليه من الهواء كالسمك
فله خياشيم يفصل بها من الهواء الذائب في الماء ما يلزم له من
الأكسجين ومحل هذه الخياشيم تحت الغشاء وهي ذات طفتين
فيهما شعوب شعرية رقيقة أشبه بأسنان المشط وتجرد هذا الحيوان
عن الراس لا يوجد له مخ كما في غيره من الحيوان وإنما يكون أول
عصبه بقرب الفم فيرى هناك عصب غليظ يتفرع منه فرعان
أحدهما يتجه إلى المعدة والآخر إلى الكبد وينتهيان بعصب واحد
يكون خلف الكبد فالفرع الأول يوجه الاحساس إلى الفم ومواقبه
والثاني إلى الخياشيم

ويظهر ان لهذا الحيوان حاسة اللمس ومستقرها الفم وليس له
سمع ولا بصر

ومن غريب خواص هذا الحيوان انه يجتمع في الواحد منه
أعضاء التناسل الذكورية والانثوية فيكون الواحد لنسله أباً وأماً
معاً ونسله في أول اطواره بيض مصفر اللون كثير العدد إلى الغاية
حتى ان أهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق إلى ان
قدروا للحيوان الواحد منه نحو ألف بيضة ومدة تربية هذا الحيوان

الاعضاء المضغية له شفتان غشائيتان رقيقتان وفيه اربع زوائد
 كل واحدة منها مثلثة الشكل ذات ثلاثة اسطحة مستوية وهي
 بمنزلة الخرطوم يتناول بها غذاءه ويدخله في فمه فيخدر منه الى
 معدته وهذه المعدة على شكل الكثرى ويتصل بها معاء رفيع
 معوج يتجه بالليل الى جهة الامام ثم ينخفض قليلاً ثم يرتفع ويمر
 بعد ذلك خلف المعدة بحيث يكون قريباً من الفم وينعطف الى
 الخلف في طريق تقاطع طريقه الاولى حتى يكون في الجهة الخلفية
 من العصب المتصل به الحيوان بالحارة كما مر وهناك ينتهي ذلك
 المعاء بفتحة في ظهر الحيوان يقال لها الخاتم ويحيط بالمعاء وبالمعدة
 ايضاً الكبد وهو اكبر اعضائه كلها حتى انه وحده يعدل معظمها
 ولونه مسود وفيه مائع مصفر اللون هو اليلغم وفم هذا الحيوان
 ينطبق على معدته وقلبه لحمي مغزالي الشكل موضوع تحت كبده
 محيط بجزء من اخر المعاء احاطة تامة وهو كما في الحيوانات الكبيرة
 مركب من جزئين احدهما الازين والآخر البطين ومن البطين
 يخرج عرق يتفرع ثلاثة افرع احدها يوجه الدم الى الجزء العلوي
 من الحيوان اي الى الفم وما به من الزوائد المتقدم ذكرها والثاني
 يوجهه الى الكبد والثالث يوجه السائل الغذائي الى سائر الجسد
 وليس الدم في هذا الحيوان احمر كما في غيره من الحيوانات الصغيرة
 بل هو شفاف عديم اللون وهو يمر من اذين القلب الى البطين
 ومنه الى العرق الغليظ الذي تتفرع منه الفروع الثلاثة التي قدمنا

محارتها مركبة من فلتتين احداها كبيرة وهي التي يلتصق بها ما في
الباطن والغالب فيها ان تكون محدبة ذات سمك وهي السفلى
والثانية العليا وهي اصفر وارق سمكاً من اختها واقل تحديداً وها
ملتصقتان ببعضهما بعصب متصل بالحيوان فيه مرونة يتيسر معها
للحيوان فتحها واطباقها باخنياره فيرى في وسط الحارة من الداخل
بقرب اتصال الفلتتين ببعضهما نفرة بيضاء فيها عصب سميك ابيض
اللون متصل بالحيوان هو الآلة له في تحريكها كما مروباطن الحارة
املس ذو لمعان كالمعان اللؤلؤ واما ظاهره فذو طبقات او ثنيات
متراكبة بعضها فوق بعض وهذا الحيوان محمول على السكون
والاستقرار وعدم الانتقال عن محله بالاخنيار فينشأ من صغره على
الصخور في قاع البحر ويثبت عليها حتى يرى كأنه قطعة منها وانا
تاملت في هذا الحيوان عند فتح محارته وجدته قطعة لحم متجمعة
قليلة الشفافية سنجابية اللون بيضية الشكل مظروفة في غشاء رقيق
ناعم قابل للانقباض والانبساط ذي طبقات متعددة وله فلتتان
مفتوحتان في معظه وهو شبيه برأس البرنس ينتهي دقيقه عند
مجمع فلتتي الحارة وفي دائر كل فلتة من هذا الغشاء زوائد فيها
شعور يدها الحيوان ويقبضها باخنياره ويظهران بها نوع احساس
وبواسطة هذا الغشاء يمتص الحيوان بعض المواد الجيرية من الحارة
وفي مجمع طرفي الغشاء من جهة انتاج الحارة يوجد فم الحيوان
مستعرضاً وهو فم كبير قابل للتمدد عديم الفكين اي عد

بجبهة الامريكا فرأته يوماً وقد جمع من هذا النوع شيئاً كثيراً
فسألته عن فائدته وعما في جوفه واصل مادته فاخذ منه واحدة
ففتحها وصار يريني ما في جوفها ثم قال لي اعلم ان الله سبحانه وتعالى
قد اتقن كل شي خلقه لا فرق بين كبير الحيوان وصغيره حتى
المضغة والعلقة وادع فيه ما يلزم لبقاء شخصه ونفسه وخص كل
نوع بزايها تميزها عن غيره من انواع جسسه ومن ذلك حيوان
المحار فان لحمه بارد رطب مخاطي ليس فيه عظام من الداخل
ولكونه على هذه الحالة جعل الله له وقاية نقيه من جميع العوارض
وتحفظه من آفات البحر وحيواناته وهذه الوقاية وهي المحارة او
الصدفة تارة تكون شكلاً مخروطاً على هيئة البرج وتارة تكون
شكلاً مستديراً كالدرقة وتارة تكون كدرع الحرب وغير ذلك وتارة
تكون قطعة واحدة كما في الحلزون وتارة تكون قطعتين فاكثر
وهي الميديا وبحسب هذه العقود في القطع وعدمه اتقسمت الى
ثلاث رتب اصلية

الاولى ذات الصدفة

الثانية ذات الصدفتين

الثالثة كثيرة الصدف

وهذا الذي وضع بين يديك على المائة يعرف بالميديا وهي
في الرتبة الثانية ومسكنه في الغالب قاع البحر في مواضع يتخذها على
صورة الجزائر والتلال واذا نظرت الى الواحدة منها وجدت

في الاحواض وصرفه عند الحاجة بالاخيار وفي قاع الحوض احجار
من الصخر موزعة في جهاته وحول كل من الاحجار قطع من
الخشب مثبتة حوله ثم حول كل جملة من الصخر خشب غيرها
وكلها متصلة ببعضها بواسطة حبل مربوط فيها محيط بجميعها
ويربط في هذا الحبل حزم من الحطب وفروع الشجر تدلى في الماء
فعند حصول الفقس يجتمع البيض على الصخور وعلى الاخشاب
ويتعلق بالحزم المدلاة في الماء ويبقى كذلك الى ان يكبر وعند
ذلك يكون اخذه باليد سهلاً فيأخذون منه ما ارادوا ما يجدونه
قد بلغ حد الانتفاع به وما وجدوه لم يصل الى تلك الغاية ابقوه
حتى يصل اليها

فقال الشيخ اريد ان اعرف تفصيل احوال هذا الحيوان بقدر
الامكان وكيف اهتدى الانسان الى معرفة ما ذكرت من طريقة
تكثيره وهل هذه الطريقة حادثة ام قديمة

فقال يعقوب هذه الطرق كانت معلومة من قديم الزمان
وكان الرومانيون وغيرهم يستعملونها وقد عرفها المتأخرون منهم
ولكثرة سفري في البجار صار بيني وبين اربابها الفقه وبعض
حيواناتها معرفة حتى عرفت هذا الحيوان وكنت اظن قبل ان
اعرفه انه لا شي في جوفه وان كان فيه شي فانما هو خرف او مواد
صلبة الحاقاً لما بطن منه بما ظهر هذا ما كنت اظنه فيه الى ان اتفق
لي في بعض الاسفار ان اجتمعت باحد الطبيعيين وكنت اذ ذاك

فقال الشيخ يعقوب لقد عجبت من تقديم ذلك المحاربين
يدي مع وجود غيره من الماكل الشبيهة فلم اعرف لذلك من مزية
فقال يعقوب انما فعل الرجل ذلك تطيباً لحاطرك
واحنفاً بامرك ودلالة على العناية بشانك فان الافرنج قاطبة
يحبون اكل هذا المحارب حياً زائداً واكثر من يتعاطاه الامراء
والاكابر من اهل المدن الاوروبوية

فقال الشيخ كنت اسمع ان اهل اسكندرية ياكلون شيئاً يشبهه
يسمونه بام الحلول وانهم يصنعونه بالسوابل والافاويه والبهارات
ويجملون منه الملححات وكذلك بلغني انهم يتعاطون نوعاً يسمونه
بلج البحر يطبخونه مع الارز فيكون عندهم لذيذاً ولكني لم اذق شيئاً
من ذلك فلا اعلم طعمه وهل هو ماخوذ من هذه البحار او غيرها
وما كيفية صيده

فقال يعقوب ان الصيادين يصطادونه من البحر الملح بشباك
مخصوصة وطرق معروفة لم غير الطرق المعتادة في صيد السمك
وفي كثير من جهات اوروبا ترى اقواماً من الاهلين يشتغلون
بتربيته وتنميته في معامل مخصوصة قد اصطنعوها بسواحل البحر
يربونه فيها كترية المصريين للفراريج في معاملها وان كانت الكيفية
مختلفة فان المعامل التي نحن بصدها عبارة عن احواض واسعة
مصنوعة بالقرب من ساحل البحر ينالها الماء في وقت المد وينحسر
عنها في وقت الجزر وقد جعلت لها ابواب تقفل وتفتح لامسك الماء

المغصوب وكشفت عنهم الكروب وانا ارجو لهم ببقائك نيل كل
مرغوب والفوز بكل مطلوب

المسامرة الاربعون

المحار

قال ناقل الحديث وبينما هم في هذا الكلام از حضرت
صاحبة المنزل اشارت بالقيام للطعام وكان الاتفاق على ان
يكون الاكل على عادة المشرقين فوضعت الاطعمة دفعة واحدة
واكلوا جميعاً بايديهم من كل صحفة ولم يخصص احد دون اخر
بشيء الا انهم وضعوا امام الشيخ طبقاً فيه محار من المعروف بالمدينة
فعافته نفسه واني ان يتعاطى منه لعدم تعوده على تعاطيه فاكلوا
وشربوا ثم ارادوا ان يتحدثوا فيما بقي من اخبار تلك الحوادث لكن
لضيق الوقت تعجل الشيخ بالانصراف فاستأذن وقام وتبعه يعقوب
فركبا العربية وسارت بهما

المجلس رأى رجلاً جالساً فقال له ألك حاجة قال نعم ادني
 اليك فاني مظلوم وقد اعوزني العدل والانصاف قال ومن
 ظلمك قال انت ولست اصل اليك فاذا ذكر حاجتي قال وما
 بحجيتك وقد ترى مجلسي مبدولاً قال يحجيني عنك هيبتك
 وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية اخذها مني
 وكيلك غضباً بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج ادبته باسي لئلا
 يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك ياخذ غلتها وانا
 اؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم فقال هذا كلام تحتاج
 معه الى بيعة وشهود واشياء فقال ذلك الرجل أيؤمنني الوزير
 من غضبه حتى اجيب قال نعم قد امتك قال البيعة هم الشهود
 واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شي اخر فما معنى قولك بيعة
 وشهود واشياء واي شي هذه الاشياء ان هي الا الجور وعدوك
 عن الحق فضحك الوزير وقال صدقت والبلاء موكل بالمشطوق
 واني لا ارى فيك مصطنعاً ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له
 مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من اصحابه وكان
 من امر ذلك الرجل قبل ان يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته
 له اذا قيل له يا فلان كيف الناس يقول بشر بين مظلوم لا ينصر
 وظالم لا يتصرفلما صار من اصحاب الوزير وردت عليه ضيعته
 وانصفه قال له الوزير ليلة كيف الناس الان قال بخير قد
 اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاحجاف ورددت عليهم

المتضمنة للمباهاة والافتخار بما فعلوه من القبائح وأرتكبه من الفضائح ومع ذلك لم تكن هذه الأهوال خاصة بمرسيليا واهلها بل كانت في جميع جهات المملكة بأسرها فكم من بلدة حرق وضيعة خربت وقرية نهبت قال فما كان احد يسمع في تلك الاوقات عن جهة من الجهات الا ما يسوء الفؤاد ويحرق الأكباد

فلما وصل الرجل من حكاية حديثهم الى هذا المحل قال يعقوب (وكان مع الشيخ) سبحان الله العظيم قد قدر الله على طائفة الممالك بهذا العقاب فاصابهم في كل جهة من الارض فان ما حصل لهؤلاء بمرسيليا حصل مثله لآخوانهم بمصر وامثالهم البينجرية بالتسطينية سواء بسواء وكان ذلك في اوقات متقاربة فان ما وقع بمصر كان في سنة ١٢٢٦ من الهجرة وما حصل بمرسيليا كان في سنة ١٢٢١ منها كما مر والذي حصل في التسطينية كان سنة ١٢٤١

فعند ذلك قال الشيخ هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله قال الله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) وقال (وسيعلم الذين ظلموا اى متقلب يتقلبون) قال بعض الحكماء من سلب نعمة غيره سلب غيره نعمته والحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه والله لو ان الجنة وهي دار البقاء اسست على حجر من الظلم لاوشك ان تخرب حكي ان بعض الوزراء جلس يوماً للمظالم فلما انتفى

متجاهرين بالاقوال الفظيعة والتحريض على قتل كل من يتي الى نابليون او عائلته او يميل للجمهورية وهجموا على مواضع كثيرة من جملتها محل كان به نحو ثلثائة من الضباط الضعفاء المعروفين بالسقط اصحاب المعاش فاخذوهم عن اخرهم وذبحوهم ذبح البقر وكذلك فعلوا بنحو اربعمائة من طائفة المالك فقتلوهم عن اخرهم ولم يرقوا لاطفالهم ونساءهم بل الحثوم برجالهم وابائهم ولم يكن لذلك من سبب سوى ان هولاء المساكين كانوا اظهروا الفرح عند عودة نابليون فبقي ذلك في نفوس القوم وحقده عليهم حتى بطشوا بهم في هذه الواقعة وفعلوا معهم اموراً شنيعة واحوالاً فظيعة نشعر منها الجلود ويكاد يرق عندها الجلود فمن ذلك انهم كانوا عند قتلهم للواحد منهم يقطعونه ارباً يلقونها في الطريق وكانوا ياخذون الواحد فيوثقونه بالحبال ويضربونه بالعصي والخناجر فلا يموت حتى يذوق انواع العذاب واشد العقاب

ثم قال ذلك الرجل وكان في جملة من مات الاولاد (يعني اولاده) وامهم قال وكان من يمر في اي طريق من طرق المدينة وما حولها حينئذ انما يربين ريم القتلى ويخوض في دماء الجرحى حتى اخلطت ريم الرجال بريم النساء وكان اولئك المفسدون في خلال ذلك يتكلمون بكل ما تشتم منه النفوس وفعلوا ما لم يفعله المحوس فكانوا يطوفون حول القتلى راقصين مسرورين فرحين مستبشرين رافعين اصواتهم بالاغاني والاشعار

احداً منهم الا رأيتهم مهتماً بهذا الامر مشغولاً به فلا يجتمع منهم
 اثنان فاكثر الا على الخوض في حديث هذه الحادثة سواء كان
 ذلك في محلات النزهة والفسحة ومواضع التهوية او الكنائس والدور
 والازقة والميادين بحيث لم يبق فيما اظنه احد من الفرنسيين الا
 تكلم في هذه المادة وما يترتب عليها من النتائج المؤلمة والعواقب
 الوخيمة فغلب الوهم على قلوبهم لاعتقادهم جميعاً انه لا بد من
 دخول العدو باريس وتصرفه في اهلها بالغلبة والتهر وهذا
 الخوف كان عاماً لجميعهم ما عدا حزب الملك ومن اتبعه فانهم
 وجدوا فرصة لظهار ما في نفوسهم وبأباً للوصول الى اغراضهم فنبوا
 من نومهم وقاموا من مهد خمولهم واجتمع عليهم كل من اراد الانتماء
 والانضمام اليهم او رغب في السلب والنهب معهم فاجتمع بهم اهل
 الشر والفساد جميعاً فلم يبق قاتل ولا لص ولا قاطع طريق الا
 انضوى اليهم واختلط بهم وانتشروا في ارجاء المدينة فكان اول
 ما فعلوه انهم هجموا على العساكر ورموهم بالرصاص وقابلهم العسكر
 بمثل ذلك بحكم الضرورة فقتل من الفريقين خلق كثير واخر
 الامر انهزمت شزيمة العسكر فخلا الجو لاولئك الثائرين ولم يبق
 لهم مانع وهجموا على البيوت وعلى الدائرة البلدية فجرى منهم من
 الرذائل والفساد ما لا يدخل تحت حصر واخذوا يبرق الجمهورية
 وحرقوه في ميدان كان منصوباً به هيكل نابليون الاول ثم سطوا
 على ذلك الهيكل فكسروه وداسوه تحت ارجلهم ثم داروا في الازقة

ابتدروها فكانوا يوقدون نيران الفتن خفية ويلقنون كل من
وجدوه كراهة الحكومة الامبراطورية واتباعها حتى انهم اكثروا من
الطعن في حق راس العساكر المحافظين بمرسيليا حيث كان هو
المانع لما يقصدونه من الفساد وكثيراً ما اخبر باقوالهم ومقاصدهم
وانهم يتمنون حيلة لسفك دمه وهو مع ذلك لا يخرج عن الطريق
الذي الزم نفسه بسلوكة من الرفق في المعاملة وحسن الخلق والمجاملة
بل استمر على استعمال ما يوجب الصلح والاصلاح لاطفاء الفتن
وحصول الامن بين الرعية وكثيراً ما رأى بعينه تعدي بعض
هؤلاء الاحزاب وفطم ابواب الشر بالنزاع والمخاصمة مع عساكره
من غير مقتضٍ لذلك فكان لا يستغزه الغضب ولا يغير طبعه
معهم ما يقع منهم ظناً منه انه على طول الايام اذا تمهدت قواعد
الحكومة على اصول من العدل متينة تنجلي قلوب الاحزاب ويزول
ما في نفوسها من الضغينة فانهم جميعاً امة واحدة وابناء وطن واحد
فلا بد ان يصفوا البال وتحسن الاحوال قال ولم يعلم بما خفي
في خبايا الغيب فاخطأ ظنه وخاب امه وضاع عليه تدبيره وعمله
وذلك انه لما وقعت الواقعة المشهورة بجهة (واترلوا) انهزم فيها
جيش نابليون فانتشرت الاخبار في جميع نواحي المملكة ومن الجملة
جهة مرسيليا فشاخ فيها الخبر يوم الاحد لعشر بقيت من شهر جونيوس
سنة ١٨١٥ لليلاد وهي سنة ١٢٣١ للهجرة وذلك بعد ستة ايام من
تاريخ الواقعة فخاض في حديثها الناس واشتغلوا بها فكنت لا تجد

من هذه الجموع المختلفة الاف مؤلفة وانتشروا في المدينة وشبوا في طرقاتها نار الفتن التي احلت بهم القضاء وهجموا على فريق العسكر واكرهوه على ان يقوم معهم لمنع الامبرور من دخول ارض فرنسا فخرج معهم بعسكره وساروا لتعطيل الامبرور عن الخروج من البحر لكن الله قدر خروجه من البحر قبل وصوله اليه فلم يبلغوا مقصدهم ورجعوا الى المدينة خائبين فصاروا يقوون جموعهم فعظمت قوتهم وازداد كرب الاهالي المتقطعين لاشغالهم من تعديهم وظلمهم لهم وكانوا يزعمون ان الملك اذا قام بجيوشه يقاوم حزب الامبرور نابليون ولم يخاطر بهالم ان الامبرور متى وضع قدمه بارض فرنسا اجتمع حوله خلائق كثيرة من عساكره القديمة والجديدة وغيرهم استالم اليه ما كان له من الشهرة وكثرة الفتوح والنصرة فكان الامر على خلاف ما زعموا ولم يقاومه حزب الملك بل فرّ بعائلته ودخل نابليون ارض فرنسا واخذ بعنان الحكومة كما كان فتضعع راي هولاء الاشرار وتفرق شملهم وترتب على نزول الملك عن سرير الملك وخروجه من باريس تغيير جميع حكام الجهات والمديرين ومن جملتهم حكام المديرية التي مركزها مرسيليا فتغير حاكمها وحضر لقيادة العساكر بها رئيس غير الاول وكان يجب الصلح والاصلاح فاجتهد في منع اسباب الفساد وقع اربابه بطريق الانصاف والمساواة وتسكين الفتن حتى انحسرت الامور ومع هذا كان المفسدون كلما وجدوا للفتنة فرجة اوسعوها او فرصة للشر

شنيعة وقتلوا كل من كان له ميل اليه بالقوة وشاع ذلك حتى كان امراً مشهوراً وتاريخياً على طول الزمن مذكوراً وهجموا على محلات رجال الحكومة وقتلوهم وقتلوا اتباعهم ولم ينجُ مدير المديرية من ايديهم الا بالفرار الى ميدان الفسحة وهجموا على هيكل الامبرور الذي كان منصوباً في ميدان المدينة فكسروه ورموه واقتلعوا جميع ما كان في ذلك الميدان من الاشجار والنبات والازهار وحرقوا ما كان به من انواع الزينة والزخرفة وبالجملة فلم يحترموا تربة كانت هناك وان كانت لاحد مشاهير رجالهم بل حفروها ودمروها حتى لم يبق لها اثر هذا والسبب في تغالي اهل هذه المدينة في الميل الى الملك ان عائلته كانت دائماً تعدهم برد المزايا التي فقدوها وتشوقهم برجوع مزايا اخرى كانت لهم من قبل وسلبتها منهم حكومة بونابرت فلما خلع من الملك اول مرة جمعوا من رجالهم حزباً عظيماً عينوه لترغيب من يريد الدخول في العسكرية فانضم اليهم اهل الشقاوة والمفسدون واخلاق من العملة والفعلة واستمروا على ذلك نحو احد عشر شهراً من خلعه ولهذا لما بلغ هولاء الاشرار خروجه من جزيرة الب ودخوله ثانياً ارض فرنسا خافوا على انفسهم من عاقبة فسادهم وايقنوا بجلول العقاب بهم دفعة واحدة ورفعوا لواء العصيان ورجعوا اهالي المدينة ومن حولها وخصوصاً العمال في المعامل وفي المخازن العسكرية وكذلك كل من وجدوه من الفقراء والمساكين فتجمع

وصلوا الى ذكر حوادث الايام فقال الشيخ للرجل ارجوك ان تفي بما وعدت به انفاً من حكاية ما حصل في قتل اولئك المساكين الاغراب وما حصل بهم من انواع العذاب والعقاب فتنفس الرجل الصعداء وقال ان اهل مرسيليا وما جاورها من البلاد بل اهل فرنسا على الاطلاق منقسمون فرقا فثمنهم في السلطنة المملوكية ومنهم من يميل الى الامبراطورية ومنهم من يحب الجمهورية ولكل قوم كلام في ترجيح رايهم ليس هذا محله وكل فرقة من هذه الفرق مع الاخرى في فرنسا كسعد وحرام في مصر والقيسية واليانية في بلاد الشام فمتى كانت الحكومة امبراطورية كانت الغلبة لمن يتبعها والعكس بالعكس فمن ذلك لا ينقطع من بينهم عرق الشقاق ولا تزال الدماء بينهم تراق في الحارات والاسواق ومن ذلك مسألة الاغراب التي سمعتها فانها انما نشأت من تلك التعصبات وذلك ان اهل مرسيليا كانوا اول من نصب لواء العصيان في القومة الاولى على بونايرت فلتحمها مدة حكومته ما لحقها من الذل وضياع المزايا التي كانت مبنها زمن الحكومة المملوكية لانها كانت وقت ذلك معافاة من الكمارك والعوائد وكان ذلك من اقوى اسباب ثروتهم وسعة تجارتهم فلذلك كانوا يثمنون عود الحكومة المملوكية حتى انهم من شدة كراهتهم له ولبن اتبعه لما شاع الخبر بانخطاطه في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر لهيلاذ وهي سنة ١٢٢٠ للهجرة قاموا جميعاً وقام معهم اهل البلاد والمديريات التابعة لها ففعلوا باتباعه افعالاً

ولولا اني كنت غائبا في ذلك الوقت لقتلت فيمن قتل ولما عدت وجدت عيالي جميعاً قتلوا مع والدتهم وشرح ما حصل في تلك الايام طويل ولو مكثت طول عمري اذكر لك من اخبارها لكان ما اذكره بالنسبة لما اتركه اقل من القليل

فقال الشيخ اودان اعلم كيف كان قتل المساكين الاغراب وكيف سلمت الحكومة في ذلك فان مثل هذا لم يسمع به في بلاد البربر ولا بين سكان البادية فكيف يكون في الملل المتمدنة ام كيف يحصل من ملة يقال فيها انها بلغت من التمدن غايتها

فقال ذلك الرجل ان طباع هذه البلاد غريبة جداً لانهم دائماً في فتن ومحن ويودون دائماً تغير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم فان شئت وتفضلت عليّ انت ومن تحب بالزيارة في منزلي فهناك نتروح بذكر البلاد واتلو عليك شيئاً مما وقع في هذه الحادثة من الصلاح والفساد فسكت الشيخ فنظر ذلك الرجل الى الانكليزي فقال اما انا فقد دعيت عند بعض الاحباب ووعدته في هذا اليوم بالذهاب واود ان اخذ معي برهان الدين وان اراد حضرة الشيخ ان يتوجه معك ويصطحب يعقوب معه فالراي له فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعاً فذهب الشيخ ويعقوب مع الرجل الى منزله فقابلتهم زوجته احسن المقابلة وحيثهم تحية الاكرام والمجاملة واجلستهم في المكان المعد للضيوف وامرت باحضار القهوة والدخان فشرّبوا ثم شرعوا في التبسط بانواع الكلام الى ان

كل على حسب اقتداره وتزوجنا من نسائهم وتخلقتنا باخلاقهم
وتهمياً بنا بهياتهم واكتسب كل منا على حسب سعيه وكده واعاننا
على الكسب في هذه المدينة انها مينا واشغالها كثيرة وامور السعي
والعمل والكسب فيها متيسرة وبهذه الكيفية تيسرت معيشتنا
ورضينا بقضاء الله وقدره وان كان حب الوطن لا يبرح من
بالنا وافكارنا لا تفر عن ذكر اهلنا وبقينا على هذه الحال الى ان
تعصبت الدول على دولة فرنسا واتفقوا على خلع الامبراطور
واشخاصه الى جزيرة الب للاقامة بها وردّ الحكومة الى الملك لويز
الثامن عشر من ملوكهم فعند ذلك حصل لنا ولكل من كان قد
اتى اليه من الذل والاهانة ما كان سبباً في مفارقتنا لمرسيليا ولو
كنا نعلم الغيب لكنا جميعاً هاجرنا من هذه البلاد قبل ان ينزل
بها ما نزل من المقدور وما هو في علم الله مستور ومسطور فكنا
نحوار بعائة نفس بعيالنا وكانوا يسوموننا كل يوم من العذاب ما
لا قدر على وصفه الى ان حصلت الحادثة التي رجع فيها بونابرت
الى السلطنة مدته الاخيرة المعروفة عند اهل هذه البلاد بمحكومة
مائة يوم لانه لم يتم بها الا هذه المدة فلما انقضت حصل لنا وللجميع
من انتسب اليه غريباً كان او غير غريب ما يعجز عن استيفائه
اللسان ويكل في حصره البيان وحاصل الامر ان جميع المالك
والمهاجرين الذين كانوا معنا وعيالهم واولادهم قتلوا في وسط
حارات مرسيليا وشوارعها بكيفيات يشتمز منها الطبع ويحجها السمع

ومسقط راسي التاهرة ولي بها اقارب ولا اعلم الان ما فعل الله بهم
وكانت اقامتي معهم بمصر في خط الازبكية ولي حكاية غريبة في
سبب مفارقتي لهم فقال الانكليزي اظنك ممن كان حضر مع نابليون
بونابرت حين خرج من مصر فقال نعم فقال له كيف تبعته وتركت
عائلتك واهل بيتك قال الرجل في مدة اقامة الفرنسيات بمصر
كان قد اخلط بهم بعض اهلها حتى دخلوا تحت طاعة الفرنسيين
وانضموا اليهم فممنهم من كان في خدمتهم وممنهم من دخل في عسكرهم
وقليل منهم شاركهم في التجارة فكنت ممن دخل في العسكرية
فاثمت فيها مدة الى ان حصل الصلح بينهم وبين المصريين وكان
في من كتب اسمهم في العسكرية كثير من القبط المصريين ونصارى
الشام ومن بقي من المالك الذين كانوا بها قبل دخول
الفرنسيين اليها ولما وقع الصلح وتاهب جيش الفرنسيين للرحيل
خرج من العسكرية من خرج وبقي من بقي فكنت ممن بقي وكان
عمري اذ ذاك قريبا من ثلاثين سنة وكان السبب في بقاء من
بقي مع الفرنسيات ان اهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل
في زمرة الفرنسيات بالقتل وبغيره فلذلك اخترت البقاء معهم
والمهاجرة الى بلادهم وعلى اى حال فالقسمة غلبت وخرج معهم
من خرج الى ان وصلنا مرسيليا فثنا من اقام بها ومنا من بقي في
العسكرية وسار مع نابليون فكنت ممن اقام بمرسيليا فرتب لنا من
جانب الحكومة مرتبات لكنها لم تكن كافية فاخذنا في الاسباب

وارتياح اهل ارضه ونزهتهم وتسليمهم عن كثير من الهموم المكدة
والاعمال المتعبة فلذلك ترى اطباق اهل هذه الارض ولا سيما
النساء على تلك الاشياء حيث وجد فيها الكبار واهل العجز والهرم
تعويض ما فقدوه من ملاذ الشباب وهي من تحائف الشباب
وجملة آياته التي يحصل بها على تمام ملاذه الداخلة تحت قدرته
الحاضرة بين يديه

المسامرة التاسعة والثلاثون

حكاية المصري الغريب

قال الناقل وبينما هم كذلك اذا بانسان هرم دخل عليهم فسلم
بلسان عربي فصيح فرد عليه الشيخ وولده وحياه الانكليزي على
حسب العادة واذنوا له بالجلوس فجلس ثم تاملوا في هيأته ولغته
فعرفوا انه ليس من اهل البلدة فقال الشيخ لعلمكم من اهل مرسيليا
قال لا وانما انا ساكن بها منذ مدة طويلة وانا من جهة مصر

التي يشاهدها العازم عقب عزمه فيستشئهمون ببعض ويتبنون
بعض فقال عليه الصلاة والسلام اذا تطيرت فامض وقبل ذلك
تنبه كثير من العرب لبطان تلك الاشياء فان بعض الناس
كان يرى المشائم فيقدم فيصيب ما اراد على اتم وجه حتى قال شاعرهم
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال اخر

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه

ويقضي اله الخلق ما كان قاضيا

واما السماع واستعمال آلات الملاهي فاجازها بعض بشرط
امن الفتنة بالوقوع في محظورات الشرع وعدم اللهو والاشتغال عن
الواجبات في اوقاتها ومنعها بعض لما يغلب فيها من السهو والغفل
عن اداء الواجبات والنظر في المصالح والسعي لها في اوقاتها
قال الانكليزي ان ميل الانسان بطبعه الى ما يجدد نشاطه
ويعود على فكره بالراحة من الاشتغال بما يكدر قواه من استماع
الاصوات الحسنة والنظر الى المناظر الجميلة والاشتغال بالامور
الملمية هو الذي بعث الافكار على اصطناع الات الطرب وتحسينها
وانتجان ما يناسبها وكان ذلك من الاعمال العائدة على كثير من
اهل هذه البلاد بالثروة حتى نظمت في الاعمال التي يبني الناس
عليها امور معاشهم ولا غرو ان يشتغل الانسان بما فيه كسبه

هذه اخنك وما اظنها تاركك حتى تملق فلم يجبها وقام فاستقبلي
 وحياتي واخذ يصنع بي صنعه السابق وهو يقول
 وكيف لا اتمخها خياريها * وهي فتاة قد كفني عاريها
 وان امت تمزقن خمارها * وتجلعن من شعرها صدارها
 فما عشت لانزعه كما لا يفارقني الحزن على صخر فحرم الشارع
 المخاطرة بالاموال

واما نفس اللعب فقد ندب الى السباق والنضال وفعلا
 بين يديه واناب الغالب لما في ذلك من الجهد والمنفعة وقد عمد
 لها في الفقه باب السبق والرمي

واختلف الائمة فبعض اجاز النرد وحرّم الشطرنج وبعض
 اجاز الشطرنج وحرّم النرد واما الانصاب فهي حجارة او اشيا اخر
 كالصفر يصورونها في اشكال مختلفة وبعضها كان مصورا قديماً
 موروثاً للاخلاف عن الاسلاف كانوا ينصبونها ويتقربون عندها
 بانواع عباداتهم ويقولون ان هذه الانصاب تشهد لنا باعمالنا عند
 ربنا وتشفع لنا فحرم ذلك وكفر فاعله ومعتقده واما الازلام فهي
 ثلاثون قطع من الخشب مكتوب على واحد امر وعلى واحد ناه
 والثالث عطل لا كتابة عليه فكان الرجل اذا عزم عزمًا خلط
 تلك القداح في جراب ثم اخرج منها واحداً فان كان الامر فعل
 وان كان الناهي ترك وان كان العطل اعاد العمل فنهى عنه ذلك
 في اشياء كثيرة من جنسه كزجر الطير والحيوانات والاحوال

والأسف على عدم النجته ويحسدون من تخرج له الانصبه لكونهم
استاثروا بالمحظوظ والنجوت دونهم فهذا صنف من الميسر هو اكرم
الاصناف واخفها ضرراً

ثم ان العرب كانوا يلعبون بلعب كثيرة كشطرنج الهند ونرد
الفرس والمسابقة على الخيل والابل والترامي بالنبال الى اغراض
وهو النضال في اشياء كثيرة وكانوا يتراهنون في ذلك باخطار
كبيرة كمائة من الابل مثلاً يجعلونها خطراً في الرهان فربما اصبح
الواحد صعلوكاً معسراً وامسى شريفاً ذا ثروة وافرة ولذلك كانوا
يسمونه الميسر لما فيه من يسر قوم وان كان فيه عسر اخرين

يحكى ان تماضر المشهورة بالحنساء اخت صخر دخلت يوماً على ام
المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى صدرها منسوج من شعر صنعته
من شعر راسها عند فقد اخيها على عادة نساء الجاهلية اذ كانت المرأة اذا
فقدت عزيزاً لها حلفت شعرها ونسجته صداراً فقالت لها عائشة
رضي الله عنها الم ينهك الاسلام عن ذلك فقالت الحنساء يا ام
المؤمنين تزوجت فتى من فتيان قومي ذا يسار فقامر حتى اعسر
واملق فشكوت ذلك لصخر اخي فاخذ بيدي وقام الى ابله فصدعها
نصفين وخيرني فذهبت بنصف ماله فقامر به زوجي حتى انفده
فرجعت الى اخي ففعل فعلته الاولى وقامر زوجي حتى رجعت
الثالثة وانا فيما يعلم الله من الاستحياء فانا من وراء البيت وصخر
اخي مضطجع واضع راسه في حجر امراته فلحنني المرأة وسمعتها تقول

المسامرة الثامنة والثلاثون
الميسر والانصاب والازلام

قال الشيخ الميسر لعبة كانت لهم يلعبونها في مجلس الشراب صورتها انه يجتمع عشرة فتيان هم اللعبة ومعهم رجل يستامنونه يسي الياسر في يده خراب يسي الربابة قد وضع فيه قطعاً من الخشب مسواة تسمى القداح الواحد قدح على واحد نقطة وعلى اخر تقطان وهكذا الى السابع ويغفلون ثلاثة منها ولكل قدح اسم يخصه وهي الفذ والثوم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنج والسفيج والوعد وينحرون جزوراً ويمزقونها ثمانية وعشرين جزءاً بعدد النقط التي على القداح ثم يخرج الياسر القداح على اسماء الاشخاص قدحاً قدحاً فكل من خرج له قدح اخذ من الجزور بعدد ما على قدحه من النقط ومن خرجت لهم القداح الغفل يغرمون ثمن الجزور

ثم انهم يعطون اللحم لمن حضر من فقراء الحي لا ياكلون منها كان ذلك منهم على وجه الفتى والتكرم وكثيراً ما كان يتولد من ذلك شر بسبب ان الذين يغرمون ربما ادركهم الشخ والندم

الاحكام الشرعية في مسمى الخمر واحكام الاشربة فقال قوم كلما
 خامر العقل وخالطه وغيره عن حاله الاولى فهو خمر وحكمه حرمة
 شرب قليله وكثيره وفساد بيعه وشرائه وحرمتها وقال قوم مسمى
 الخمر عصير العنب يترك في الاواني حتى يغلو ويشتد ويقذف
 بالزبد وغيره يسمى سكرًا والحكم حرمة قليل الخمر وكثيرها نيئة
 فاذا طبخت حتى ذهب ثلثاها حل ما دون السكر منها كما هو
 الحكم في بقية الاشربة فاتفقت كلمة المسلمين على حرمة السكر والحكم
 عليه لما فيه من الفساد الذي لا يخفى دون ما فيه الاختلاف السابق
 لرعاية مصالح العباد حسب اختلاف البلاد

فقال الانكليزي ان ما قلته حق والتقدم به حسن اذ لامزية
 لعاقل ان كل ما يؤدي الى فساد في الجمعية وخلل في نظامها
 توجب السياسة والانظار الصحيحة المنع منه والاخذ على ايدي
 الناس فيه فليت اهل بلادنا اقتصروا على موضع الحاجة منه ولم
 يتجاوزوه الى السرف هذا واسأل حضرة الشيخ تفسير الميسر
 والانصاب والازلام والامام بما دار بين مقرري الشريعة المحمدية
 من القول في احكام ذلك والسامع واستعمال الات الملاهي

الولاية بعلة الاصطياد والنظر في احوال الاموال العازبة في
مراعيها فيميلون الى بعض الغياض لتحصيل اهوائهم على وجه
الاستخفاء الفرقة الثالثة الفتيان الذين وجدوا من انفسهم القوة
والثخوة والنجدة فهولاء كانوا يتجاهرون. بذلك اعتماداً على قواهم
واجتماعاً بشدتهم والالسة اخذة فيهم بالملامة وهم لا يعتبرون حتى
جاء الاسلام ومضى شطر منه وهم على تلك الحال لم يزعمهم عنها
حكم صريح بات حتى انزل قوله جل ذكره (ومن ثمرات الخيل
والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً) فاقصر بصفة الحسن
على الرزق ليفهم السامعون فبح السكر ثم قال اناس منهم عمر بن
الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أفتنا في الخمر المذمومة للعقول
المتلفة للاموال فاوحى اليه صلى الله عليه وسلم (يسئلونك عن
الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس فكف قوم وبقي
اخرى حتى قام بعضهم يصلي اماماً في صلاة جهرية فقرأ قل يا ايها
الكافرون اعبدوا ما تعبدون فنزل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا
لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكانوا
لا يشربون في وقت ثاني عليهم فيه صلاة وهم سكارى ثم نزل قوله
تعالى بالحكم البات والتحريم الصريح يا ايها الذين امنوا انما الخمر
والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان (الايات)
فانتهى جميع المسلمين عن استعمال ما ذكر وشرعت فيه العقوبة
الحديدية في الشرب والتعذيب في غيره ثم اختلف المجتهدون في تقرير

وللناس غوغاءً واصوات منكرة كما هو شأن اهل المنادمة والمقامة
قال الشيخ عجبت من انهماك اهل هذه البلاد في استعمال هذه
الاشربة وما يتبعها من الملاهي والملاعب وتأتمهم في انواعها وانبيها
وقد نشاء من ذلك افناء كثير من الاموال وشغل معظم الاوقات
فيما يعود على الابدان بالمضار وعلى العقول بالاختلال وعلى الاعراض
بالاهمال حتى ان ذلك كثيراً ما يكون سبباً لاتلاف الانفس
والخروج من الشرف والعزة ولذة الحياة الى الخمسة والذل والم
العيش مع ما هم عليه من توجه الافكار وانبعث العزائم من
رجالهم ونسائهم واطفالهم الى ما يعود على وطنهم وسكان ارضهم
والمحميين بهم بالشرف الاكبر والمحظ الاوفر والالفة التامة والرئاسة
والمملك الثابت حتى انهم تخطوا ذلك الى ارادة تنبيه الامم لما تصلح
به احوالهم وتذا مروا على ذلك وظهرت مساعيمهم فيه فلقد كانت
جاهلية العرب في ذلك اسد رأياً واحسن حالاً فان حلماءهم
وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الاشربة والملاعب من
تهيج الشرور وفساد المعاملات واخراج الاموال عن صورة
الصالح تناهوا عن ذلك واخذوا على ايدي الشبان فيه فصاروا
ثلاث فرق الفرقة الاولى اولو الاحلام والنهي ومنهم الذي يقول
لا اشرب ما يشرب عقلي والذي يقول وقد قيل له الا تشرب ما
يزيد في جراتك وساخك لا اصبح سيد قومي وامسي سفينهم الفرقة
الثانية الشبان المقهورون وهؤلاء كانوا يتباعدون عن ابائهم وذوي

تجلسوا يتحدثون ويتناولوا ما تيسر من الطعام وحكى الشيخ ما
 أصابه في ليلة من الفراق والتمسق

الساعة السابعة والثلاثون

السكر

يقال الانكليزي ان اسخمت فمربنا تنشى في البلدة ونطوف
 في طرفاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح
 النفس فوافقه الشيخ على ذلك وفاموا فطافوا في شوارع المدينة
 مجومون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات
 واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة
 للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة
 هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانهم
 ما يجسرهم من الخلق المتخلعة حول دوائر الممر وعليها الاشربة
 الملونة بالالوان المختلفة في الوانى المصنوعة على الاشكال الغربية

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي
 يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمنني في غربتي واذا قدرت
 عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهني الصبر على ما قدرت والرضى
 بما قضيت وثبتني على ديني وقوّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي
 واهلي ومن يلوذ بي في عيادك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني
 من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل
 الضلال والفساد ولا تنزع قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون لمحجهم
 على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير
 واجعل عظمتك ملء قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا
 نسمع الاّ ذكرك ولا نتمثل الاّ نبيك وامرك واهدنا الى صراطك
 المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى
 الله عليه وسلم وبحق من اصطفته من عبادك الصالحين واصفيائك
 الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى
 الاسحار حتى ختمه بقوله) اللهم امرنا روعاتنا واستر عوراتنا
 واذهب غيظ قلوبنا وجنبنا وساوس الشيطان واعذنا منه يا رحمن
 حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى
 نفوز بنعيم جنتك ثم تزل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول
 سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدياً ما فرض
 عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند
 ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

فجلسوا يتحادثون وتناولوا ما تيسر من الطعام وحكى الشيخ ما
اصابه في ليلته من الارق والقلق

المسامرة السابعة والثلاثون

السكر

فقال الانكليزي ان استحسنتم فقم بنا تمشي في البلدة ونظرف
في طرقاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح
النفس فوافقته الشيخ على ذلك وقاموا فطافوا في شوارع المدينة
يجمون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات
واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة
للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة
هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانتهم
ما بجزرتهم من الخلق المتخلقة حول دوائر المرمر وعليها الاشربة
الملونة بالالوان المختلفة في الاواني المصنوعة على الاشكال الغريبة

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي
 يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمنني في غربتي واذا قدرت
 عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهني الصبر على ما قدرت والرضى
 بما قضيت وثبتني على ديني وقوّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي
 واهلي ومن يلوذ بي في عبادك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني
 من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل
 الضلال والفساد ولا تزغ قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون المحجّم
 على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير
 واجعل عظمتك ملء قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا
 نسمع الاّ ذكرك ولا نتمثل الاّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك
 المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى
 الله عليه وسلم وبحق من اصطفيته من عبادك الصالحين واصفيائك
 الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى
 الاسحار حتى خذه بقوله) اللهم امن روعاتنا واستر عوراتنا
 واذهب غيظ قلوبنا وجبننا وساوس الشيطان واعذنا منه يا رحمن
 حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى
 نفوز بنعيم جنتك ثم تزمّل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول
 سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدياً ما فرض
 عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند
 ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

حزيناً وصار يتردد في حجرتة شمالاً ويمينا وبقي علي هذه الحال من
 الارق وهجم عليه جيش الخواطر والقلق ولما لم يجد للنوم طريقاً
 وصار في مجر افكاره غريقاً عمد الى شباك حجرتة ففتح عساه يسئلي
 بروية المارة في الطرق وصار ينظر منه وينصت بسمعه ولكن كان
 انقضى جزء عظيم من الليل وانقطع المرور من الطرق ودخل
 كل احد مضجعه فلم يجد احداً يمر من الطريق الا القليل النادر
 وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فلم تكن من ليالي القمر بل كانت
 سوداء الأهاب حالكة الجلباب قد ارخت على المدينة ذبول
 ظلماتها وغطت على جميع اطرافها وانحاءها ثم نظر الى السماء فلم ير
 الا الكواكب وكأنها تبعث اليه مع اشعتها سلام الحبايب وكان
 النسيم يلاطفه ويسليه برقته ويذكره بليال مرت له مع احبته وايام
 نقضت باهل مودته فصار يستعمل النسيم اليهم السلام ويجعله
 واسطة بينه وبينهم في الكلام فلما لم يسمع من يجيبه زاد انينه ونحيبه
 ورفع للسماء اكف الدعاء وقال اللهم يا من تنزه عن المكان وابدع
 بقدرته عوالم الامكان الهى انت الذي رفعت السماوات وزينتها
 بنجوم تجري في بحار الظلمات فدهشت من نورها ابصارنا وتحيرت
 في ادراك حقيقتها افكارنا انت اعلم بحالي ونهاية امالي الهى انت
 الذي حولتني من وطني وصيرتني بين اهل هذه الديار بعيداً عن
 سكني فلك الحمد على ما قدرت ولك الشكر على ما اردت اعوذ
 بك من زوال النعم وموجبات النقم انك على كل شئ قدير الهى

انمودجاً لما ادخرت وارجوان تبليغي سلامي لحضرة اخيك
 ولحضرات من يسال عنا من المشايخ اخواتنا وقبلي لي الاولاد
 والاخوات وارجو منك اتصال المكاتبة في كل بوسطة لاجل
 الاطمئنان عليك وعلى كل من لديك ولا مشقة عليك في ذلك
 اذ ما عليك الا تسليم خطابك لمن تستمين منه خطايي او ارساله
 مع الخادمة الى محل وكيل صاحبنا الانكليزي

المسامرة المأذسة والثلاثون

الارق والصلاة

ثم ختم الخطاب ووضعه في ظرفه وقرأ على حسب العادة ما
 تيسر من القرآن العظيم وتلا اوراده ثم اضطجع في سريره فلم يغمض
 جفنه بنوم وذهب فكره نحو وطنه ومقر اهله وسكنه وتذكر الاحبة
 والاولاد وما هو فيه من الغربة وبعد البلاد فضاع بتلك الخواطر
 لذيد نومه واشتغل قلبه باحوال اهله وقومه فقام من فراشه مكتئباً

فحب المرأة منهم لكلها ربما يعدل حبها لولدها فتجعله جلسها
وضجيعها وانيسها ينام ويقوم معها لا تفارقه وتقبله في فمه وتعانقه
وانواع هذه الكلاب عندهم كثيرة منها ما هو قدر القط فأقل
ومنها ما هو اكبر ومنها ما شعره طويل يقولون انه متولد بين الشياة
والكلاب ومنها ما ابوه ذئب وغير ذلك وهناك نوع تقتنيه الرجال
وتألفه يقولون انه يأتي اليهم من الارض الجديدة المسماة بالامريكا
ولكن لا باس بهذا النوع لان فيه على ما يقال مزية عظيمة وهي
اهتداه لاخراج الغريق من قاع البحر يقولون انه يشم رائحة الغريق
فيغوص في الماء حتى يخرج به الى البر وقد رأيت رجلاً اعى يسحبه
كلب في رقبتة مرجونة صغيرة فاذا رأى انساناً ترك صاحبه
وذهب يستعطي له صدقة وقد صادفنا في مرورنا وحين رأنا ترك
صاحبه واتانا فوقف امامنا وجعل يبصص بذنيه وينظر الينا
ويجرك راسه كجمالة غيره من الكلاب حين يرى من يأكل شيئاً
فيقوم بين يديه طامعاً في ان يلقي اليه شيئاً ما يأكله ففهمنا الغرض
ووضعنا له بعض دراهم في المرجونة التي في عنقه فذهب الى صاحبه
وحرك يده فاخذها من المرجونة وكذلك رأيت بمنزل قريب من
منزلنا امرأة اشارت لكلب من الشباك فصعد اليها فاعطته دراهم
فاخذها منها ونزل واعطاها نصاحبه والامور التي شاهدناها هنا
كثيرة يطول سردها وتعدادها وقد قيدتها في اوراق عندي
انلوها عليك عند عودنا ان شاء الله تعالى وقد ذكرت ما ذكرت

الديوية وفي الليل لا يأوون إلا الى محلات الملاحى ومن الغريب
انهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل احد
منهم الماء في ازالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الاكل
ومن عاداتهم انهم لا يلتزمون ابقاء لحام على حالة واحدة
فربما ارى الواحد منهم ذا لحية طويلة عريضة ثم اراه قصرها كثيراً
او حلقها رأساً فلم يبق الا شاربيه وتارة يبقى الشارب والعنفة وما
حاذها ويحلق ما عداها وتارة يحلق ما حاذى العنفة ويرسل ما
عدا ذلك حتى يكون قريباً من الصدر وتارة لا يبقى الا شعر
العارضين وتارة يجعلها على شكل عريض من اصله ضيق من
نهايته ومنهم من يتركها حتى تطول طولاً مفرطاً ومنهم من يحلق
شعره بتمامه حتى يصير كالامرد واما ما يضعونه على رؤوسهم ما
يعرف عندنا بالبرنيطة فشيء يطول شرحه وقد نظرت بعضه في
مصر وله هنا انواع كثيرة فتارة يكون طويلاً مرتفعاً نحو نصف
ذراع وتارة يكون قليل الارتفاع وتارة يكون ضيقاً من اعلاه واسعاً
من اسفله نازلاً قريباً من الجبهة الى غير ذلك ومن عادات هذه
الجمهات ان نساءها يالفن الكلاب كثيراً ويستتبعنها حيث سرن
وتكون معهن حيث كن ففي هن من اعز الاصحاب والاحباب
حتى ان الانسان في محلات الفسحة يرى في الجمعية كثيراً من
الكلاب وتحفل النساء بهذه الكلاب حباً منهن ويحفل بها
الرجال تقريباً اليهن واكراماً هن لما يعلمونه من منزلتها عندهن

من الطواحين ثلاثة واربعين خمسة منها تدور بالهواء والباقي منه ما يدور بالنجار ومنه ما يدور بالماء وبها نحو سبعمائة من العمال وفي هذه المدينة ايضاً سبعة معامل لعمل (الالوميت) وهي كلمة فرنساوية جعلت على ذلك الكبريت الذي يقال له في مصر كبريت بلا نار وفيها سبعة معامل لعمل الصوفان واثنان وسبعون محلاً لعمل الحلي بانواعه وبها غير ذلك كثير من المعامل كمعامل المشروبات بانواعها والحلويات باشكالها والمخللات باجناسها حتى ان بها معامل مخصصة بما يرسل الى الجهات البعيدة من المواد القابلة للتعفن من الاطعمة كانواع السمك واللحم والفاكهة فيحفظونها في ظروف محكمة بطرق مخصوصة تمنع عنها التلف والتعفن مدداً طويلة فلا يعتريها شيء من ذلك

وكذا معامل الفخار والطوب والحرز وغير ذلك ما يضيق عنه النطاق ولا تسعه الاوراق وما دعاني الى هذا التطويل والاكثار الا علمي برغبتك في الوقوف على ما شاهدناه لتخليقه بحاشية الكتاب الموسوم بغرائب الاخبار وعجائب الامصار ولا احب ان اطيل عليك بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفجور وما ارتكبه على خلاف امر الله سبحانه من مذموم الامور ولكن اذكر لك بعضه عنواناً يكون لما لم اذكره قانوناً وميزاناً وهو اني لم اسع احداً من جميع سكان هذه البقعة بذكر اسم الله تعالى بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون الا بامورهم

خمس وأربعين فيها نحو خمسمائة من العمال وأما معامل تكرير السكر فخمسة وقد بلغ ما دخل مرسيليا من السكر الخام في سنة الف وثمانمائة وثلاث وأربعين للميلاد وهي سنة ١٢٥٩ للهجرة نحو ستة وعشرين الف أوقية مصرية ثم زاد بازدياد التقدم في التمدن والرفاهية فبلغ ما يرد لها الآن منه نحو خمسة وخمسين مليوناً

وأما معامل الحديد فكان لا يوجد منها بمرسيليا قبل الآن بنحو عشرين سنة إلاّ معملان لسبك الحديد خاصة والآن فيها معامل متعددة منها ما هو لأذنته ومنها ما هو لعمل الآلات والابورات البرية والبحرية وغير ذلك وفي هذه المعامل من العمال نحو الفين وخمسمائة والمنحصل منها يومياً نحو ألفي (بنتو) وبها أيضاً معامل متعددة لعمل الرصاص وسكبه في أشكال مختلفة وكذا معامل النحاس والتصدير ويوجد بها من معامل الشمع ثلاثة عشر منها لعمل الشمع المعروف بمن السمك ثلاثة فيها مائتان وخمسون عاملاً ولعمل شمع الدهن عشرة فيها خمسمائة عامل

وأما معامل الدباغة فقد ذكر لي أن عددها الآن قل عمّا كان سابقاً وإنما كانت في سنة ١٨٤٨ للميلاد أعني سنة ١٢٦٥ من الهجرة نحو الخمسين منها لدبغ الجلود الكبيرة أربعة عشر ولدبغ الجلود الصغيرة ستة وثلاثون وكان في كلا النوعين نحو الف وسبعين عاملاً وأما الآن فهي أربعة عشر معملاً منها لدبغ الجلود الكبيرة تسعة ولدبغ الجلود الصغيرة خمسة وكذلك ذكر لي أن بها

القوم واغنياءهم اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشترك على راس مال
قرروه للصرف على انشاءها يدفع منه في كل سنة جزء على التدرج
الى اتمام تسع وتسعين سنة

واخبرت ان معظم اعمالهم الجسيمة تعمل بهذه الكيفية وان
اصل مال الشركة المذكورة عشرون مليوناً من الفرنكات تعدل
(٨٠٠.٠٠٠) جنيه انكليزي من النقود المصرية وانهم قسموا
ذلك المبلغ على اربعين الف سهم فخص كل سهم خمسمائة فرنك
وكذلك رأيت بمرسلياً معامل لاصناف متعددة كعامل الصابون
وتكرير السكر وطرق الحديد وديباغة الجلد وعمل الشمع واستخراج
النيبذ والزيت وقد ترتب على وجود هذه المعامل بعض معامل
اقل منها اهمية الا انها تابعة لها مثل معامل الصور الصناعية
اللازمة لعمل الصابون ونحو ذلك

وقد اخبرني صاحبنا ان عمل الصابون لم يحدث بهذه
المدينة الا في القرن السادس عشر من الميلاد الموافق للقرن
الحادي عشر من الهجرة وانه كان ياتي اليهم قبل ذلك من مدينة
يقال لها جنوا وفي سنة ١٧٨٩ من الميلاد وهي سنة ١٢٠٤ من
الهجرة بلغ الحاصل منه نحو مائتين وخمسة وعشرين الف قنطار
وقد بلغ الان نحو ثلاثة امثال هذا المقدار بسبب استعمال زيت
الابذار واكثر ما يصنع منه يستهلك في ارض فرنسا وقريب من
سدسه يرسل الى الخارج وعدد المعامل الموجودة الان لعمله نحو

عيارات عظيمة ترفع بها الاثقال على غاية من السرعة والسهولة
 فلا يمضي على اكبر سفينة بعض دقائق او درجات الا وقد صار
 جميع ما بها على البر وقد اخبرني الانكليزي ان مساحة هذه المينا
 على وجه التقدير مائة وسبعة وعشرون فدانا من فدادين مصر
 وان نصف هذا القدر للمينا القديمة ونصفه للمينا الجديدة وان محيط
 الارصفة سبعة الاف متر وثمانمائة وخمسة عشر متراً وان التجارة
 تشغل منها نحو اربعة الاف وثمانمائة متر وهناك مينا ثلاثة احدثت
 منذ عهد قريب سعتها قدر مجموع الاثنتين وطول رصيفها ثلاثة
 الاف متر واربعمائة وتسعون متراً فتكون سعة المينات الثلاث
 بمرسيليا نحو مائتين وخمسين فدانا تقريباً ورايت لم لطيفة عند
 ارادة ارساء السفينة ذلك انها اذا قربت من البر يدخلونها في
 خليج يومن به عليها من تايير الرياح عليها واصطدام السفن
 ببعضها وقد وضعوا للسفن في طريقها اربع منارات تهتدي بها وهي
 عبارة عن مبان عالية في راس كل واحد منها فانوس عظيم
 يضيء في الليل وفي اسكندرية ايضاً منارة تعرف هناك بالفتار
 وقد عرفت ان احدى هذه المنارات الاربعة وهي اكبرها يظهر نورها
 على بعد عشرين ميلاً من المينا وارتفاعها اربعون متراً وارتفاع
 الثانية خمسة وعشرون والثالثة اثني عشر والرابعة تسعة وهذه
 ترى على بعد تسعة اميال من المينا ورايت على الارصفة مخازن
 اخبرني صاحبنا انها قد بناها باذن الحكومة جماعة من مشاهير

الدالة عليه ولم نر في اثناء السفر الا ما يسرنا ويصفو به سرنا وقد حصل لنا في السفينة من الاكرام شي زائد على المرام كل ذلك من فضل الله علينا ولطفه بنا واحسانه الينا واما ما كان من صاحبنا الانكليزي ولطفه فلا يستطيع القلم استيفاء وصفه وفي الجملة لم يكن منه الا ما يسر الخاطر ويقر الناظر وقد انقضت ايام السفر ونحن في سرور وانشراح وكأنها كانت بيننا ايام افراح وقد وصلنا نغر مرسيليا وهي اول مدينة لفرنسا وهي بالنسبة للاسكندرية واقعة في الساحل الغربي من البحر المتوسط (بحر الروم) فاقنا بها يومين وعن قريب نرحل عنها قاصدين مدينة باريس تحت مملكتهم ومقر سلطنتهم وكان حصل لي امس بعض توعك خفيف وزال وعادت الصحة بمجد الله الى احسن حال وقد طفت مع صاحبنا ونجنا في البلد فراينا مبانيها القديمة كمصر واحسن منها ما استجد ورايناها مراسي عظيمة يحف بها ارصفة جسيمة فاعجبنى حسن احكامها ومزيد انتظامها ودهشت من كثرة سفن التجارة فيها واخلاف السنة ملاحيا ففهم من العرب والعجم وغيرهم من جميع الامم ومن كثرة السفن ميناها وانضمامها لبعضها لا يكاد يرى الماء من خلالها واعجب من ذلك انهم لا يحتاجون في اخراج البضائع من السفن الكبيرة الى زوارق كالتي رايتها بالاسكندرية بل يقربون السفينة الى الرصيف حتى تتصل به فيربطونها بحلقات مثبتة فيه رباطاً محكمًا ويرفعون منها البضائع كما هي الى البر بواسطة

من سفن الانكليز والباقي من سفن غيرهم ولا شك ان كثرة
مقدار هذه السفن يدل على كثرة حركة التجارة

المسامرة الخامسة والثلاثون

كتاب علم الدين

قال ناقل الحديث فلما وصلا الى هذا الموضع من القول
كان قد انصرف جزء من الليل وطاب المنام فانقطع الكلام
واستأذن الانكليزي للقيام وانصرف الى حجرتة فقام الشيخ وتوضأ
وصلى ما عليه سنة وفرضا وشرع يحرر خطاباً لزوجه واهل بيته
هذه صورته بعد العنوان والسلام

اما بعد فقد قطعنا للحج البحر الاسكندري بحمد الله تعالى في
مدة خمسة ايام قضيناها في صحة ورفاهية وراحة ولم يشغلنا عن
ذكر الله شاغل بل شاهدنا فيها ما يدل على عظيم سلطانه فكنا
اناء الليل واطراف النهار نتضرع اليه وتامل في عجائب مخلوقاته

ومما اوجب كثرة التجارة بمصر وازدياد المنافع لاهلها الاكثر فيها من زراعة القطن وقصب السكر ونحوهما وما وضع فيها من القوانين المفيدة والترتيبات السديدة وما حصل من ترتيب المعاملة وعلائق التجارة بين المصريين وغيرهم من الامم الاجنبية بما اوجب كثرة ورود الاجانب على ارض مصر للتجارة حتى وصلت الى ما وصلت اليه بحيث اذا وقف احد بساحل مينا الاسكندرية تاكد له ذلك بما يراه على السفن الراسية فيها من كثرة الاعلام المتنوعة للامم المختلفة وما يدل على حالة التجارة بمصر في هذه الايام المحاضرة الاطلاع على مقدار ما يباع بها في السنة من اصناف البضاعة ففي سنة ١٨٥٤ للميلاد و ١٢٧١ للهجرة كان مقدار ما بيع فيها من صنف القطن خاصة اربعمائة وثمانية وسبعين الف فنطار بيعت بتسعة عشر مليوناً من الفرنكات وكثرة الرغبة في تجارته لما فيه من زيادة الربح زاد المقدار بعد ذلك فبلغ في سنة ١٢٧٢ للهجرة مقدار ما بيع منه خمسمائة وتسعة وعشرين الف فنطار بثلاثة وعشرين مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات وثن ما ورد الى مصر من الاقمشة في تلك السنة من بلاد الانكليز خاصة نحو سبعة عشر مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات سوى ما ورد من سائر الجهات وكان مقدار السفن الواردة الى مينا الاسكندرية والصادرة عنها نحو اربعة الاف واربعمائة واربع وستين سفينة نحو ربعها

المسلمون اربعة الاف من الحمامات ونحو اثني عشر الف نفس
من باعة الخضراوات ولم تنزل يزداد حسن حالها وتنتقل في درجات
الثروة واليسار والعز والفخار الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد وهي سنة
٩٠٢ من الهجرة

وفي التاريخ المذكور عرف الناس طريق راس العشم الصالح
فسلكته السفن التجارية الى الهند بعد ان كانت تمر من مصر
فاخذت التجارة بعد ذلك تتناقص في الاسكندرية وتناخر وصارت
احوالها تتغير وتتهقر الى ان جاءت دولة محمد علي الاكبر فصارت
تراجع اليها التجارة وتزداد وتكثر وذلك بما حصل في مدته ومدة
من خلفه من عائلته على الحكومة من تسهيل النقل وتأمين الطرق
واستمالة قلوب الاجانب فاتسعت بها موارد الثروة واليسار
وقصدتها التجار من جميع الاقطار فازدادت التجارة والعمارة بها
ازدياداً عظيماً وبلغت مبلغاً جسيماً حتى بلغ عدد سكانها الان
نحو مائتي الف نفس فيهم نحو اربعين الفا من الافرنج وكان عدد
سكانها حين استولى عليها نحو ثمانية الاف نفس

وقد بلغت قيمة الوارد والصادر من البضائع في ميناء
الاسكندرية سنة ١٢٧٢ من الهجرة نحو ستة ملايين وسبع مائة
وعشرين الف جنيه ومعظم ذلك مع الانكليز فان اكثر التجارة
في مصر الان بيدهم وكانت قبلهم مع الجنوبيين في مدة المالك
وقبل ذلك مع الكنعانيين كما مر ذكره

كما ذكرتم قد اصبحت تجارتها وتلاشت بالكلية وكادت تكون
 كما كانت عليه في الاعصار العتيقة المتقدمة العهد فانها في اوائل
 الزمان كانت تجارتها داخلية منحصرة بين اهلها لا حظ فيها
 للاجانب فكانت مسدودة عليهم لا يدخلونها بشي من التجارة واول
 فتح ابوابها لتعاطي التجارة الخارجية ودخول تجار الاجانب ومعاملتهم
 كان في عهد فرعونها المسى ايسامايكوس فانه اول من رخص
 للاغراب في دخول مصر والاختلاط باهلها وذلك قبل الميلاد
 بستائة وست وخمسين سنة وكانوا من قبل لا يؤذن لهم بدخولها
 فلما فتح بابها للاجانب اخذوا يتواردون من كل جهة عليها
 وينسلون من كل حذب اليها فانتسعت بها دائرة التجارة وازدادت
 اسباب الثروة وكانت الامة الكنعانية هي المتسلطة على التجارة في
 تلك الحقبة كما هو شان الانكليز الان وبقي الامر على ذلك الى
 دخول الفرس مصر فدخل معهم القفر والقلة وزال الامن لشدة
 الظلم والجور فاخذت التجارة في الانحطاط والتقهقر ولم تنزل كذلك
 الى وقت البطالسة ففتحوا لها طرقاً جديدة وروابط متينة فانتسعت
 اتساعاً عظيماً امتدت شهرته في افاق البلاد فهرعت لها الناس
 من كل واد وصارت مينا الاسكندرية مركزاً عظيماً للتجارة يرد اليه
 محصول الجهات القريبة والبعيدة من كل جانب فزادت عمارتها
 بهذا السبب وكثر سكانها حتى بلغ عدد اهلها نحو ثلثائة الف
 نسمة ولا مبالغة في ذلك فقد نقل انه كان فيها حين افتتاحها

عليهم وظلمهم لم فتركوا اسباب الكسب والثروة والتقدم واعرضوا
 عن العلوم والفنون فكثرت الخراب بمصر واعمالها وهاجر منها من
 تخلص من ايديهم من اهلها ووقعت العداوة والبغضاء بين هؤلاء
 المحكام ايضاً كما وقعت بين الاهالي وبينهم وكثرت ما بينهم الفتن
 والمحن والشرور وكثرت قتلهم لبعضهم وعاد ذلك بزيادة الخراب
 للبلاد والضرر لاهلها فما كان يرى السائر بها الا ما يسوءه ويجزئه
 من سوء اثارهم وقبيح اطوارهم فكم من اثر قديم اعدموه وقصر مشيد
 هدموه وارض صالحة افسدوها وبلدة عامرة اصحبت خراباً وكانت
 حارات القاهرة في ايامهم ميادين لقتنهم وقاتلم وصدور الاهالي
 اغراضاً لنبلهم فعظم الشر واشتد الامر ولم يزل الحال على هذا
 المنوال الى ان قيض الله هذه البلاد دولة افندينا الاكبر محمد علي
 المرحوم اول هذه الدولة الخديوية فثمر عن ساعد الجهد والاهتمام في
 عمارة ما خرب منها واعادة ما نزع من العلم والمعرفة عنها واخذت
 الاسكندرية من ذلك قسطها كغيرها من البلاد فحسن امرها وكثرت
 سكانها وزادت تجارتها زيادة عظيمة بعد ان كانت تلاشت
 واضمحلت فان التجارة ايضاً يعتريها ما يعتري السياسة والادارة
 والعمارة من التقل والتبدل والتحول

فقال الانكليزي نعم هذا صحيح لا مرآء فيه فكل الناس الان
 يشهدون لمحمد علي المرحوم بما ابداه من الهم العالية في اعادته
 لمصر ما كانت فقدته قبيل ايامه من حركة التجارة فانها قبله كانت

وشهرتها وتناقضت كثيراً عمارتها ولكنها لم تنقطع بالكلية تجارتها فكان يأتي من البلاد الأفرنجية بعض بضائع الأناها كانت قليلة لعدم اعتناء المحكام بما يوجب الأمن على التجارة وانضم إلى ذلك ما ضرب عليها من المكوس والجمارك على غير قاعدة مضبوطة ولا قانون منتظم فلم يزل يتناقض الوارد من البلاد الأفرنجية بجزر الروم وهكذا كان الوارد من جهة البحر الأحمر يتناقض حتى يتنازل إلى قدر يسير ولكنها مع كل ما ذكر كانت حين دخلها عبد اللطيف البغدادي المومخ الشهير في سنة ٧٨٥ من الهجرة قد بقيت فيها بقية ولم تضحل بالمرّة فرأى بها ما حكاه من آثار العارة ووجد أهلها مشغولين بالآخذ والإعطاء والتجارة

وهذه كانت حالها حين استولى عليها السلطان سليم سنة ٩٢٣ من الهجرة ثم أخذت بعد ذلك تفقد بقايا ما كان لها من الصيت والشهرة والتجارة والعمارة بما كان يتولى عليها من ظلم المالك وإتباعهم وإشباعهم فكانت تجارتها وعمارتها كل يوم تنقص عما قبله ولم تزل تنفق وأحوالها تتغير إلى أن جعلت كالسجن لمن يغضب عليهم الباشا بمدينة القاهرة ويرسلهم إليها

ثم أغار عليها نابليون بونابارت بمجنود الفرنسية سنة ١٢١٢ من الهجرة فدخلوها واستولوا عليها ولكنهم لم تطل بها مدتهم فخرجت من يدهم ولكنها عادت لما كانت عليه من الظلم والشر وفساد الأحوال حتى أخذ أمرها وضجر أهلها لكثرة تعدي حكامها

عليها الاغراب وتسكنها التجار ثم تخلصت منهم ووقعت في يد ملك
 فرس سنة ٦٤٨ من الهجرة حين كان الملك لوزير التاسع اسيراً
 بمصر وكان يتكلم مع سلطانها في تعيين ما يفدي به نفسه من
 الاسر ويقال ان ملك فرس لما استولى عليها هدم مبانيها وسلب
 اموالها ثم لم تم من هذه الورطة حتى وقعت في ادهى منها واعظم
 فان الفرنسيين اغاروا عليها في سنة ١٢٦٧ من الميلاد وهي سنة
 ٧٦٩ من الهجرة ثم خرجت من ايديهم ولكنها لم تخرج من سوء الحال
 ونكد الدنيا وحوادث الدهر فانها كانت عرضة لظلم المالك
 الذين كانوا حاكمين في مصر

فقال الشيخ ان كل ما حصل فيها من التقلبات الكثيرة
 والاحوال العسيرة لا يصل الى ما اصابها في مدة المالك الذين
 استولوا على الحكومة بعد انتضاء دولة الفاطميين ودولة صلاح الدين
 وذريته فان بعض من ولي السلطنة من اعقابه اتخذوا منهم خدماً
 وعسكراً وجعلوا منهم معظم رجالهم فكانوا يقدمونهم على غيرهم من
 المستحقين حتى استخذوا على رتب عالية ومناصب جليلة ليسوا لها
 باهل فمن شدة غيهم وسوء بغيهم داخلهم الطمع في ملك ساداتهم
 فزاحمهم في حكومتهم واحقرهم واخرجهم عن سلطنة اجدادهم
 واغضبوها لانفسهم فتأسست سلطنتهم وامتدت زماناً اكثر فيها
 الظلم والجور والفساد فكانت مصر في ايامهم كسفينة في طوفان
 او جيش احاط به العدو من كل مكان واتقطع ذكر الاسكندرية

انقضاء حكومتهم وزوال نعمتهم واستمر الحال على ذلك الى سنة ٦٤٢ من الميلاد وهي سنة ٢٢ من الهجرة فجاءت جيوش امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقودها عمرو بن العاص فحاصر الاسكندرية اربعة عشر شهراً ثم افتتحها ودخلها بن معه من العسكر وضرب على اهلها الجزية فرحل عنها كثير من الاغراب الى بلادهم وانتقل بعضهم الى مدينة مصر التي اتخذها المسلمون قاعدة المملكة وعاصمة البلاد وسموها الفسطاط وهي في موضع بابلون القديمة ومن اثارها التلال الكثيرة الموجودة الى الان بين العيون وباب السيدة وسور القاهرة فكان كما اخذت مدينة الفسطاط في الشهرة اخذت مدينة الاسكندرية في الخمول والانتزاع وصارت تتلاشى تجارتها ويفارقها اهلها ويضحل حالها بعد ان كانت اعظم مدينة في هذه الديار ومركزاً للتجارة جميع الاقطار ثم صارت كل سنة تتاخر وتثقف واستمرت على ذلك قروناً عديدة ومدداً مديدة فلما كانت سنة ١١٦٧ من الميلاد وهي سنة ٥٦٣ من الهجرة هجم عليها الفرنسيس واستولوا عليها ودخلوها ولكنهم لم يلبثوا بها الا زمناً قليلاً ونهض لاستخلاصها من ايديهم الملك الناصر صلاح الدين فاخلاها منهم واجالهم عنها واستردها الى الاسلام سنة ٥٦٤ كما كانت

وفي سنة ٥٩٩ من الهجرة استولى عليها الجنويون وفي مدتهم حصل بعض رواج في التجارة وتقدم في العمارة وصارت تنوارد

بقي بها بقايا منهم كبطليموس الفلكي الشهير وديوكانت وسورابوس
وغليان فحفظوا ما بقي عن الاوائل من آثار العلم والفنون ولولاهم
ما عثر المتأخرون بشيء من اثار المتقدمين وامتدت هذه الاحوال
مدة مأتين وسبعين سنة لم تزد فيها الاسكندرية الا تفهقراً وتاخراً
ومع كل هذا كانت مملكة الروم الشرقية المحقة بها الاسكندرية
احسن حالاً من المملكة الغربية فان شدة الجور والظلم والفجور
والقسوة في المملكة الغربية المذكورة كانت اكثر وادى وامر
ولذلك قام اهل تلك الجهة على ملوكهم مراراً وما من مرة منها الا
صرفت فيها المملكة اموالاً عظيمة وسفكت فيها دماء كثيرة من
غيران يحصل من ذلك كله ادنى فائدة بل كان عاقبة كل مرة
منها زيادة ضعف الاهلين واضمحلالهم وسوء احوالهم وفي تلك
المدة كثرت المنافسات الدينية واتسع الخلاف بين اهل الديانة
النصرانية وكثرت الدور بجهاات الاسكندرية وما جاورها وانقطع
بها كثير من المترهبين الذين هاجروا الى مصر فراراً من جور
حكام البلاد الاخرى لكنهم لبغضهم لدين من تقدم من المصريين
هدموا مبانيهم القديمة وهياكلهم الجسسية وخرّبوا الكثير من البلاد
وهدروا دم من كان بها من العباد حتى اننا لو نسبنا ما فعله ملك
العجم وخلفاؤه بمصر واهلها لم يبلغ معشار ما فعله النصراني بها
وبهذه الافعال الشنيعة تغيرت احوال الامة وتحولت عن بعض
عادتها وطباعها ومعتقداتها وكرهت الروم والرومانيين وتمنت

بقرب ارض مصر دخلتها من غير معارض ولا ممانع فنشاء بها عدة
كنائس وديور وظهر بها عدة من البطارقة والاساقفة المشهورين
وجعلوها محلاً لجميع اعمال المدينة ومظهرًا لاقوالم الخلافية فقامت
بينهم نار الشقاق وانقطعت باختلافهم حبال الوفاق ودخلت
الحكام بينهم في تلك الامور ولم يكن في العادة من شانهم الدخول
في مثلها وترتب على الاخلال وفساد الاحوال ان غنمت هذه الفرصة
الملكة زنوبية المتسلطنة وقتئذ على مملكة تدمر التي كانت مقر
سليمان عليه السلام في قديم الايام وهي في صحاري الشام فاغارت
هذه الملكة على مصر مجنودها واستولت على سرير الاسكندرية وذلك
قبل الهجرة بنحو خمسين وثلاثمائة سنة ولكن لم تلبث قليلاً ان
طردها منها ثم امدتها مملكة تدمر بالعساكر والذخائر فارادت
الرجوع الى مصر لاختها ثاني مرة وكان ذلك في زمن القيصر
ادريانوس فسار اليها من رومة فكسرها واسرها وبقيت مصر في
قبضة الرومانيين كما كانت وفي مدة هذا القيصر حصل في مصر
بعض اصلاح لامورها وتنظيم لاجوالها ولكن لم تلبث ان جر اليها
طمع من ولوا من قبل القياصرة عليها بعض مصائب عظيمة
وخطوب جسيمة اضررت بمصر واهلها ولا سيما اسكندرية فانها
عادت بكثر المضره عليها وعلى من فيها واخذت بتجارها فاعتراها
من هذه التقلبات الضعف العام وزال عنها رونقها فهاجر منها
الى الروم كثير من كانت تفخر بهم من اهل العلم والثروة ولكن

وأدى طول نزاعهم ومغالبتهم لبعضهم الى ان التجاء بعضهم الى
الرومانيين فتوسطوا بينهم في امورهم ودخلوا بينهم حتى آل امرهم
الى ان تمكنوا من مصر وطردوا منها البطالسة واستولوا عليها
وذلك قبل الميلاد بثلاثين سنة فانزلوها عن درجتها وسلبوها
ثوب نعمتها وجعلوها احدى مدنها و اضافوها مع باقي مملكة
مصر الى متسع ملكهم فاخذ قطر مصر من ذلك الوقت في
الانحطاط عما كان عليه من درجات العز والفخر وصاروا يحقرون
اهلها ويؤخرونهم ويقدمون غيرهم عليهم ولا ينظرون بعين العناية
والرعاية اليهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة ادت الى حروب
متتابعة سفك فيها دماء كثير من العباد وخرب بسببها اكثر
البلاد حتى امتدت يد التعدي الى دار كتبها العظيمة فانلفت
معظم كتبها ودرست شهرت مدرستها التي كانت وحيدة المدارس
في تلك الايام واخذ العلم في التفتقر خصوصا عند انقسام مملكة
الرومانيين الى مملكتين شرقية وغربية وكان تحت المملكة الشرقية
استانبول وتحت المملكة الغربية روما وصارت مصر في هذه القسمة
تابعة لمملكة المشرق وذلك في حدود ثلاثمائة واربعة وستين بعد
الميلاد وفي ذلك الوقت كانت درجة مدينة الاسكندرية في التجارة
والعمارة تلي درجة رومة التي هي تحت المملكة الغربية من الملكتين
الرومانيتين وفي هذا العصر اخذت الديانة العيسوية في الظهور
وتصدي نشرها قياصرة الروم وقومهم ولكون هذه الديانة ظهرت

البلاد التي اغار عليها وحاربها فصارت من احسن خزائن
 الكتب واعظها واشهرها ومن كثرة رعايته للرعية وتمسكه بالعدل
 والانصاف في ايامه ومجانته للظلم والحيف في احكامه كثرت
 البركة في محصول الارض واتسعت دائرة الزراعة والتجارة
 وكثرة الارزاق والمكاسب ثم لما قضى نحبه وخلفه في الحكومة
 ولده سار سيرته في الرعية فكثرت العمارة والتجارة وصارت
 الاسكندرية مقصداً لجميع التجار يقصدونها من المشرق والمغرب
 فكان يرد اليها التجار من الهند وبلاد المغرب وآسيا وبلاد الصين
 وجزائر البحر المحيط والبحر الاحمر وسواحل بحر الروم والبحر
 الاسود وغيرها ومنها تفرق البضائع وتوزع على جميع البلاد في
 معمورة الارض فكانت الاسكندرية في تلك الاوقات منفردة في
 ذلك لا يشاركها فيه غيرها وتقل اليها من الاثار القديمة
 والتحف العظيمة من مصر وغيرها كل غريب وعجيب وجع لها
 المعلمون والاحبار من جميع الاقطار فصار اهلها قدوة للناس في
 العلم والفنار وصارت مركز التجارة لجميع التجار الا ان من ولي
 الحكومة من البطالسة بعد بطليموس الاول وابنه لم يسيروا
 سيرتها فحدث في ايامهم الظلم والحجور والاجحاف والغدر فهاجر
 كثير من الناس من ارض مصر الى غيرها من البلاد فراراً من
 ظلمهم وبغيهم ووقع باسهم بينهم ايضاً فاكثروا من سفك دماء
 بعضهم فكانت الاسكندرية في كثير من ايامهم عرضة للمحنة والفتنة

الاستاد من عظمها وفخرها ورفعت قدرها حتى انتقل تحت السلطنة
 الى الاسكندرية فهرع الناس اليها وكثرت عمارتها وانحط من
 قدر منف وعزها واهبتها بقدر ما زاد في عز الاسكندرية ورونقها
 واستوطن الروم في مدة الاسكندر مدينته هذه الاسكندرية فكانوا
 اكثر سكانها اذ كان منهم معظم جنوده وغالب رجاله ثم كثر
 عددهم في مدة من خلفه من البطالسة حتى دخلوا جميع بلاد
 مصر ولم تخرج البطالسة في ايامهم عن النهج الذي نهجه لم
 الاسكندر من عدم التعرض لاهل البلاد التي دخلت تحت
 طاعته في شيء من عاداتهم وما هم عليه وكان اول هذه البطالسة
 بطليموس لاغوس فلما ولي الحكومة بعد الاسكندر سنة ٣٢٤ قبل
 الميلاد سار في المملكة سيرة حسنة ورتب امورها ترتيباً عاد عليها
 بعظم الفائدة واستوجب لاهل البلاد ومن عنده من الاغراب
 مزيد الامن والاطمئنان على ما بأيديهم من الاملاك والاموال
 مضافاً ذلك الى امنهم على الانفس والاهل والعيال فعمت الامنية
 وكثرت العارة والثروة والمدنية وكان بطليموس لاغوس المذكور
 محباً للعلم واهله محبداً في تعليمه وتعميمه فانشأ في الاسكندرية
 مدرسة عظيمة شاع صيتها بين العباد فقصدتها الناس من اقاصي
 البلاد وجعل فيها خزانة للتخف جمع اليها ما قدر عليه من النوادر
 والطرف وانشأ بها دار كتب عظيمة جعل فيها قدراً وافراً من
 الكتب النفيسة مما جمعه من اكثر المعابد المصرية وما غنمه من

ولم تخلُ أيضاً من ذكرها الكتب العربية

قال الشيخ هي كما ذكرت عظماً وشهرةً وقدما وقد زعم بعض المؤرخين ان كلمة منف في اللغة القبطية بمعنى ثلاثين وان سبب تسميتها بذلك هو ان يبصر بن حام بن نوح عليه السلام خلف ثلاثين نفساً منهم اربعة ذكور وهم مصرايم وفارق وماج وياج فنزجوا وتناسلوا وكثروا وكان مصرايم اكبرهم وكانوا قبل بناء منف يسكنون بسبخ المقطم فلما بنوها انتقلوا اليها وسكنوها وسميت بهذا الاسم بعدد دم كذا زعم ولكني سمعت من بعض من يعرف علم اللسان المصري القديم ان لفظة منف اصلها باللسان المذكور (منفر) وهي مركبة من كلمتين احداها من ومعناها المحل والثانية (نفر) ومعناها العظيم او الخصب فركب اللفظان تركيباً مزجياً وجعل مجموعها على هذه المدينة وكان يقال لها عند اليونانيين منفيس ثم قيل لها منف وكانت مقر الفراعنة من قديم الزمان فكانت من اعظم المدن المصرية ابهة ورونقاً وسعة حتى قيل انها كان لها سبعون باباً من الحديد والصفرة وكانت الانهار تجري من تحت منازلها واقنيتها فيجسبون الماء كيف شاؤوا ويرسلونه كما ارادوا قيل وفي ذلك يقول الله جل ذكره حكاية لقول فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون

فقال الانكليزي قد بقيت هذه المدينة على ما ذكرت ايها

متصلة بالمينا الشرقية المعروفة بالمينا القديمة وكان بينهما جسر يمتد من رأس التين الى المدينة وكانت السفن تنتقل من احدها الى المينا الاخرى من فتحات كانت في ذلك الجسر وقد هجرت الان تلك المينا القديمة وصارت غير صالحة لوقاية السفن والامن عليها فلا يوجد بها الان الا قليل من السفن الصغيرة ويشاهد الفئار السالف ذكره لاهل السفينة في لجة البحر على بعد عشرين ميلاً منه فاذا رآوه احتسوا على سفنهم من ان تقع على الصخور التي عند ساحل البحر ولهذا الغرض جعل هذا الفئار للدلالة على مدخل المينا كما هو الشأن في غيره من امثاله في سائر الممالك وانما يكون الدخول الى المينا من البوغازات المذكورة بدلالة جماعة من اهل الاسكندرية يعرفون برؤساء البوغاز يأتي احدهم للسفينة وهي مسافرة فيلزمها بالارشاد والدلالة حتى تخرج الى متسع البحر وكذلك وهي داخلة حتى تلقي المراسي وهذه عادة جارية من قديم الزمان لكثرة ما في البوغاز من الاعوجاجات والصخور المعترضة في اثنائه

ولما انشأ الاسكندر هذه المدينة استوطنها ونقل مقر السلطنة اليها وكان قبل بمدينة منف القديمة التي يقال انها اول مدينة عمرت بعد الطوفان وقد خربت وبني عند اطلالها قرية يقال لها ميت رهينة عند مدينة الجيزة ومدينة منف هذه من اشهر المدن القديمة ذكراً واعظها فخراً وكثيراً ما ذكرت في الكتب الافرنجية

بعمود بوميوس وهو قائد روماني مشهور وهذا العمود هو الذي
يقال له عندكم عمود السواري ولعل لفظة السواري هذه من لفظة
سویر المذكورة

وفي غربي اسكندرية اعني جهة باب العرب والقباري يرى
الانسان ابواباً منحوتة في الصخر وهي ابواب قبور ومعابد للنصارى
استحدثوها عند ظهور الديانة النصرانية ولما كان موضع الاسكندرية
بعيداً عن مجرى النيل ليس به من الماء العذب ما يستطاب
الشرب جعل لها خليج يتصل بالنيل ويوصل اليها ماءه في اوان
ارتفاعه وقد جعل فيها صهاريج واسعة يخزن فيها الماء لاوان
انحطاط النيل ولم يكن على ساحل بحر الروم ميناء اعظم سعة من
ميناء الاسكندرية فانها تكفي كثيراً من المراكب ويمكن ان يكون
فيها مائتان وخمسون سفينة وعند اتصالها بالبحر سلسلة من الصخر
تمتد من الشمال الشرقي من عند الصخرة القائم فوقها المنار المعروف
بالفنار الى الجنوب الغربي حتى تنتهي الى جزيرة المرابط وهي
مغطاة بالماء تضرب فوقها الامواج وفي طول هذه المسافة
ثلاثة مداخل تعرف بالبوغازات تمر منها السفن الواردة
والصادرة اولها البوغاز الشرقي وهو منحصر بين صخرتين احدها
الى جهة الشرق وتسمى الجوانية والثانية الى جهة الغرب وتسمى
صخرة الحوت وعرضه نحو اربعة الاف متر وعمق مائه نحو ستة
امتار وبعده البوغاز المتوسط ثم القبلي وكانت هذه الميناء في القدم

ارضها فكانت على شكل البرنس المقدوني وكان يشقها شارعان
عظيمان متقاطعان احدهما يشقها من الشرق الى الغرب طوله
فرسخ وفي احد طرفيه باب كانوب وهو مضاف الى اسم مدينة
كان الى جهتها وهي التي يقال لها الان ابو قير وفي الطرف
الآخر باب نكروبوليس وهذه كلمة يونانية بمعنى المقبرة والشارع
الثاني يشقها شمالاً وجنوباً وطوله ثلث فرسخ وفي احد طرفيه
باب الشمس على البحيرة وفي الطرف الآخر باب القمر على المينا
وكانت سعة كل من هذين الشارعين مائة قدم وعندها كانت
المعابد والهياكل والمباني الفاخرة والعمارات العظيمة وكانت المدينة
منقسمة اربعة ارباع اعظمها واغنىها الربع الذي كان بين الشارع
الكبير والبحر وكان فيه المدفن الذي كان يسمى صوما وبه اودعت
جثة الاسكندر حين مات فوضعت في تابوت من الذهب ودفنت
فيه ومحل الان تل يعرف بكور الديماس وكان فيه ايضاً دار
الكنب (الكنبخانة) العظمى وبيت التحف ودار الملوك والملعب وكان
هناك قطعتان من الصخر عظيمتان من الاحجار المعروفة بالمسلات
من اقدم الاثار المصرية وها باقيتان الى الان وقد وقعت احدهما
ولم تزل الثانية قائمة بمكانها ويسميا الناس مسلة كلوبطرة ومسلة
فرعون وفي محل رقوده القديمة (السيرابيوم) وهو مدفن الحيوانات
التي كانت مقدسة في دينهم وهناك عمود سوير وهو مضاف الى
اسم الملك سوير الروماني الذي وضعه ويعرف عند الافرنج

لا يخضع لغيره ولا يلبث ذلك ان يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالبا على الملك وتفاخراً بالمال حتى ينسوا بذلك اضعافهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ثم لا يزدادوا في ذلك نصرة الا احدثوا هنالك استعانة بك فان دنوت منهم كانوا لك وان تأيت عنهم تعزروا بك حتى يثب كل منهم على جاره باسمك وفي ذلك شاغل لم عنك وامان لاحداثهم بعدك ولا امان للدهر وقد اديت للملك ما رايتَه حظاً وعلياً حقاً والمملك ابعد روية واعلى عيناً فيما استعان بي عليه والسلام الابدي على اهل السلام فليكن على الملك . اه . قال الشيخ فهذا ما علق بخاطري من ترجمة تلك المكاتبات فهل تعلم كيف كان بناء هذا الثغر وسببه

قال الانكليزي يقال ان الاسكندر لما استولى على ارض مصر في جملة ما دخل تحت حوزته من الممالك اخذ يدبر فكره فيما يتأتى له بواسطة ارتباط علائق المعاملة بين الامم المختلفة التي استولى عليها في جهات متفرقة من الارض فرأى انه لا بد له من اتخاذ مركز معين تتحد به علائق هذه الامم ورأى ان يكون هذا المركز بساحل البحر المتوسط اعني بحر الروم فاختر لذلك محل رفوده المتقدم ذكره فبنى به الاسكندرية ووسمها باسم نفسه رغبة في تخليد ذكره وان يبقى اسمه ببقائها ويذكر كلما ذكر اسمها ولما انشأها جعل تقسيم الدور والازقة بها على حسب وضع

فكتب اليه ارسطاطاليس
المؤيد المهدي لة الظفر من اصغر خوله ارسطاطاليس

اما بعد فقد تقرر عندي من مقدمات فضل الملك وبين
تقيته وبروز شأوه وما ادى الى حاسة بصري صورة شخصه ووقع
في فكري على تعجب رايه ايام كنت اودّي اليه من تعليمي اياه ما
اصبحت قاضيا على نفسي بالحاجة الى تعلمه منه وقد ورد كتاب
الملك بما رسم لي فيه وانا فيما اشير به على الملك كالعدم مع
الوجود ولكني غير ممتنع من اجابته

فاقول ان لكل تربة لا محالة قسا من كل فضيلة وان
لنارس قسمتها من النجدة والقوة وانك ان تقتل اشراهم تخلف
الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب اذنيانهم على
مراتب ذوي اخطارهم ولم يتبل الملوك قط ببلاء هو اعظم عليهم
من غلبة السفلة وذل الوجوه واحذر المحذر كله ان تمكن تلك
الطبقة من العلية فان نجم منهم ناجم على جندك واهل بلادك
دهمهم ما لا روية فيه ولا منفعة معه فانصرف عن هذا الراي الى
غيره واعمد الى من قبلك من العطاء والاحرار فوزع بينهم مملكتم
والزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على راسه
وان صغر ملكه فان التسي بالملك لازم لاسمه والمعتقد له لتاج

اسعدتنا بالامور التي اصبح لنا بها الناس دائنين فانا مضطرون
 الى حكمك وغير جاحدين لفضلك والاجنباء لرايك لما بلونا من
 جدى ذلك علينا وذقنا من جنى منفعتة حتى صار ذلك تجرعه
 فينا وترشيجه لعقولنا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه
 استمداد الجداول من البحار وقوة الاشكال بالاشكال وقد كان فيما
 سبق الينا من النصر وبلغناه من النكاية بالعدو ما يعجز القول
 عن وصفه والشكر على الانعام به وكان من ذلك ان جاوزنا
 ارض الجزيرة وبابل الى ارض فارس فلما نزلنا باهلها لم يكن
 ريثا تلقانا نفران منهم يقتل ملكهم طلبا للحظوة عندنا فامرنا
 بصلبها لتجرعها وقلة وفاءها ثم امرنا بجمع من هناك من ابناء ملوكهم
 وذوي الشرف منهم فرأينا رجالاً عظيمة اجسامهم واحلامهم يدل
 ما ظهر من روئيتهم على ان وراه من قوة بأسهم ما لم يكن معه
 سبيل الى غلبتهم لولا ان القضاء ادالنا منهم ولم نر بعيداً من
 الراي ان نستأصل شافتهم ولتختم بمن مضى من اسلافهم لتسكن
 بذلك القلوب الى الامن من جرائمهم ورأينا ان لا نعجل ببادرة
 الراي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم فارفع الينا رايك
 فيما استشرناك بعد صحنك عندك وتقليبه على نظرك على عادة
 ارائك المسعفة والسلام على اهل السلام فليكن عليك وعلينا

فانك محمد قولي فلم يلتفت اليه دارا واقاما يتحاربان مدة ثم ان الاسكندر دبر حيلة وهو انه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الاسكندر فقال يا معشر الفرس قد علمتم ما كان من مكاتبكم لنا ومكاتبنا لكم من الامان وقد طال القتال فمن كان منكم على غير قتال فليعتزل وله الوفاء بالعهد فاتهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا فكان من اسباب خذلان دارا ثم وثب على دارا رجلان من اصحابه قطعناه من خلفه وكان الاسكندر نادى من ظفر بدارا فلا يقتله فجاء به الرجلان الى الاسكندر فنزل عن فرسه وقعد عند رأس دارا وبه رمق فقال والله ما همت بتلك ولقد نهيت عنه واني ليغز علي مصابك فاسألني حوائجك فقال تقتل فلاناً وفلاناً والذين قتلاني فاني كنت محسناً لهما فقال سمعاً وطاعة واحضر الرجلين فقتلها وقال هذا جزاء من يتجراً على ملكه وتفرق ملك فارس ثم صار الاسكندر الى بابل وجلس على سرير دارا واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه وشرع في هدم بيوت النيران وقتل الموابذة

وكتب الى استاذة ارسطاطاليس يستشيريه فيمن بقي من عظام الفرس بما معناه

اما بعد فان دوائر الاسباب ومواقع الفلك وان كانت

اود لو كان عندي صورتها فهل في حفظك ايها الاستاذ شيء
منها

فقال الشيخ نعم قرأت في بعض التواريخ ان الاسكندر لما
ولي مكان ابيه قطع ما كان يرسله ابوه كل سنة الى ملك الفرس
من القطيعة ويقال انها كانت الف بيضة من الذهب فلما قطعها
كتب اليه دارا يتهدده وبعث اليه بكرة وصولجان وخرقة فيها
سمسم وقال له انت صبي فالعب بهذه الكرة فان ادبت الاتاة
والابعث اليك بجنود عدد هذا السمس واتيت بك في الوثاق

فكتب اليه الاسكندر

اما بعد فقد تبينت بالكرة والصولجان فان الدنيا مثل
الكرة وسألعب بها واضيف ملكك الى ملكي واما السمس فقد
تبينت ايضا به لانه بعيد عن الحرافة والمرارة واما البيض
فان الدجاجة التي كانت تبيض قد ذبحتها واكلت لحمها
فغضب دارا وسار اليه مجموعه وسار الاسكندر بمجموعه فالتقيا
على نصيبين فلما هم دارا بالتقال بعث اليه الاسكندر بنصحه
ويقول له ايها الملك لا تفعل فان دماء الملوك لا تجوز اراققتها
وهدم البيوت القديمة غير محمود والبغي ذميم العقبى والحرب غير
مأمون العاقبة واصحابك قد ملوك وكرهوك لسوء سيرتك فارجع

وقال بعض المؤرخين كانت راقوتي هذه جعلت في قديم الزمان
محطة عسكرية لمنع اليونان من دخول مصر وكانت الفراغنة قد
أعدت ما جاورها من الأرض لرعي الماشية وإقامة الرعاة بها لإعانة
العسكر عند الحاجة اه . ثم لم يزل ظلم الفرس بمصر حتى كثرت
بها الفتن وتوالت عليها المحن ونزع كثير من أهلها أيديهم عن
الطاعة والانتقاد وفزعوا للسلاح واستعدوا للحرب فنشب الشر
بين الفريقين وحصل من ذلك مصائب كثيرة وخطوب عظيمة
أضر أمرها باهل البلاد وأضعفت الحكومة وهنت قواها ومنه نشأ
تمزق اجزائها وتفرق كلمتها وتبع ذلك غلبة الروم في جهات
متعددة اتصروا فيها فكان في ذلك ازدياد شهرتهم وقوة كلمتهم
وانتصار العلم على الجهل بنصرتهم ولكنهم جرت عليهم عادات
الايام في تنقلها وتداولها بين الناس وتحولها فتقهتروا بعد تقدمهم
حتى غلبت المقدونيين ومن ذلك الوقت اتسع صيت المقدونيين
وعظمت دولتهم وقويت شوكتهم ووصلتهم بظهور الاسكندر الأكبر
بين اظهرهم فجاب بهم الاسكندر بلاد الفرس وتسلط عليهم ودوخهم
وأستولى على ممالكهم في مدة دارا ملكهم ودخلت مصر تحت قبضته
وكان ذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد اي بعد مرور قرنين من
استيلاء كبيشاش على مصر وقد قرأت في بعض الكتب العربية
بعض مكاتبات ظريفة دارت بين دارا والاسكندر وبين
الاسكندر وارسنطاطاليس في ذلك قد شد عني عبارتها وكت

واخذت مملكة الروم ايضاً في ابتداء عزها وشهرتها وهذا بسبب
من هاجر اليها من المصريين الذين رحلوا عن اوطانهم فراراً من
مظالم الفرس وعدوانهم فاستوطنوا بلادهم ونقلوا اليهم كثيراً مما كان
عندهم من صنائع مصر وعلومها وفنونها وكان مجل الاسكندرية
بلد صغير في محل مرتفع على البحر يقال له راقوفي اوفوده

قال الشيخ يويد هذا ما قرأته في كلام بعض مؤرخي الاسلام
قال بيت الاسكندرية غير مرة وكان اول بنائها بعد
الطوفان في زمن مصر ايم بن بصر بن حام بن نوح عليه السلام
وكان يقال لها اذ ذاك مدينة راقوده ثم بنيت بعد ذلك
مرتين (هـ)

قال الانكليزي آيا ما كان هذا المحل في الازمان العتيقة فقد
آل امره قبل بناء هذه المدينة الموجودة الان الى ان صار به على
ما نقل الينا من علمه قرية صغيرة تعرف بالاسم المذكور يسكنها
جماعة كانت تقبهم به فراغته مصر لمنع من يطوفون في البحار من
ان ينزلوا بارضهم وكان الفراغته يكرهون الملاحة واهلها كراهة
شديدة ولذلك اقاموا هولاء المحافظين بهذا المحل لمنع من عساه
يريد النزول به ممن يحب الملاحة وكان المحافظون الذين
يسكنون هذا المحل من اعراب البادية النازلين في الصحراء خلف
الجبل الغربي فان هذا المحل كان منقطعاً عن الناس بعيداً
عن العمارة مجرداً عن المزارع والمراعي فلم يكن يرضى بسكناه غيرهم

في اقصى درجاتها واحوال التقدم والتمدن فيها واصلة الى غاياتها
 وكانت حينئذ اهلها في عيش رغيد وطالع سعيد وخير مزيد
 مشغولين بجدهم وجهدهم في ازدياد عزمهم ومجدهم والاستكثار من
 اسباب سعادة الحال ونماء الارزاق والاموال وما زالوا كذلك الى
 ان خانها الزمان فسلط عليها الفرس فاغاروا عليها تحت قيادة
 ملك من ملوكهم يقال له كمبيشاش او كمبيز فدمر مبانها وغير
 مغانيها وخرب معابدها ومعاهدها واسر اهلها واذنم وقهرهم وبسط
 فيهم يد الظلم والجور والعدوان حتى تركوا اعمالهم وتخلوا عن
 صنائعهم ومساعيمهم واضطر كثير منهم الى الفرار والتغرب عن الديار
 ومن ذلك الحين اخذت مصر في التقهقر واحوالها في التغير وكان
 ذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين وخمسمائة عام
 وكانت قبل ذلك قلة يَوْمها الناس من جميع الافاق لطلب
 العلوم والفنون والارزاق حيث كان ما عداها من البلاد في
 ظلمات الجهل وهي من بينها مضيئة بانوار العلم والفضل فاصبحت
 بعد ذلك تشكو لغيرها مادهمها وازال نعيمها ونعمها وسلبيها ما كانت
 فيه من رغد العيشة وحرمتها بسبب سطوات هذا الجبار الظالم
 القدار الذي لم يكن ظلمه قاصراً على الاحياء بل تعدى ايضاً الى
 الاموات فاخرج اجسامهم من قبورهم فاحرقها وذرى رمادها في
 الهواء

وفي ذلك الوقت كانت مملكة الرومانيين في ابداء نشأتها

يوماً تريض خسيس القدر ترفعه

الى السماء ويوماً نخفض العالي

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مرسلية وتقلب حالها
تاريخ الاسكندرية وتغيراتها والشيء بالشيء يذكر فان مدينة
الاسكندرية ايضاً قد توالى عليها احوال كثير وتقلبات كبيرة من
سعد ونحس ونعيم وبؤس فقد جرعها الدهر كووس صابه وشهده
واذافها من حلوه ومره وقلبها بين خصبه ومحلّه فما من قرن مرّ
عليها الا وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله فسبحان من له
الدوام والبقاء ولا يعتريه التغير والفناء

المعاصرة الرابعة والثلاثون

شذرات

من تاريخ مصر والاسكندرية ومراسلة الاسكندر ودارا وارسطاطاليس

فقال الانكليزي نعم قد اصاب الاسكندرية ومصر ايضاً من
ذلك ما اصاب سائر البلاد وقد تقلب الينا من سير الاقدمين
واخبار السالفين ان مصر قبل انشاء الاسكندرية بعدة قرون
كانت في احسن خالة واوفر نعمة فكانت العلوم والصنائع بها

طوله اربعائة متر بواي يسمي وادي دو كفاور يمر فوق عقود من
البناء عالية شاهقة يبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً وكمية الماء الوارد
الى حوض التصفية الذي يقسم منه الماء على جهات البلد تبلغ في
الثانية الواحدة عشرة اثنان مكعبة وهي نحو مائة وست عشرة قرنة
من قرب مصر اعني القرب الكبيرة المعروفة في مصر بالحمازي اما
بالقرب الصغيرة المعروفة بالكثافي فتبلغ نحو مائتين وعشرين قرنة
وبما ذكر صارت هذه المدينة الى ماثراة من العمارة والبهجة

وحسن الحال

فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تنتقل فيها الاحوال وديار
الحال من المحال وقد قال تعالى وهو اصدق القائلين (وتلك
الايام نداؤها بين الناس) والبقاع كالناس تشقى وتسعد كما قال
القائل

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن
والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد كما انه لا يخلو من
التغير والتنقل احد

هي المقادير مجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

درجات ولا تزيد درجة حرارتها عن ست وثلاثين درجة فهي
من هذه الحثية لا تخالف الاسكندرية من اعمال مصر الا قليلا
واما من حيثية التجارة فكل من هذين الثغرين يخرج منه من
اصناف التجارة نحو اربعمائة تونولاته (والتونولاته عبارة عن ٨٠٠
اقة تقريبا) الا ان السفن الواردة الى ثغر مرسيليا اكثر من السفن
الواردة الى ثغر الاسكندرية فان عدد ما يرد في السنة الى
مرسيليا نحو خمسة الاف وما يرد الى الاسكندرية نحو ثلاثة وفي
الايام السابقة كان المانع من زيادة تقدم مرسيليا قلة المياه العذبة
بها فكان اهلبا واصحاب السفن الواردة اليها ياخذون ما يلزم
لشربهم من الماء العذب اذ ذاك من نهر صغير قريب من موضع
المدينة لكنه كان يجف في غالب اوقات السنة فكان يلحق اهل
البلد والوافدين عليها من الاغراب من ذلك ضرر عظيم ولم
يزل الحال على ذلك الى ان عمل لها خليج طوله سبعة وثمانون
الف متر بلغت مصاريفه نحو مليونين من الجنيهات المصرية فتمت
بذلك لم اسباب الرفاهية والراحة وتلذذوا بانواع التلذذات التي
كانوا محرومين منها من قبل كالتمتع بكثرة البساتين والمحدائق
وفساقى الماء في الميادين وحصل للناس من ذلك مزيد الراحة
بسبب تقسيم المياه على المنازل وايصاله الى جميع طبقاتها مع السهولة
ومن هذا الخليج جزء عظيم يبلغ طوله خمسة وعشرين الف متر يمر
في جوف الجبال من تحت الارض فلا يراه احد ومنه جزء يبلغ

وفي سنة ٤٢٦ من ظهور المسيح اي قبل الهجرة بمائتي سنة حصل لهذه المدينة من ملوك فرنسا كثير من النصب والشدة حتى انحط قدرها انحطاطاً بالغاً وبقيت الازمان الطويلة في اضمحلال وسوء حال خصوصاً لما تغلب عليها العرب في سنة ١١٧ بعد الهجرة فهدموا اكثر مبانيها واذلوا اهلها وخربوا عماراتها فصارت بهذه الاسباب في اسوء حال واخذت في التنازل الى زمن شرلماني فجعلها في حمايته من سنة ثمانمائة من الميلاد وهي سنة ١٨٤ من الهجرة فاخذت في الارتقاء والتقدم من ذاك الوقت ونمت علائقها التجارية مع غيرها واشتهرت بالسياحة في البحار كما كانت اولاً وجلبت من جهات اسيا واسبانيا اهل الصنائع والحرف وغيرهم فسكنوها فعاد اليها فخارها وشهرتها في التجارة والصناعة واستمرت على هذه الحالة الى سنة ١٨٨٥ من الميلاد اعني سنة ٢٧٢ من الهجرة ثم اضيفت في هذا التاريخ الى مملكة فرانس فقويت شوكتها وحسن امرها بمساعدة ملوك الدولة فاخذت تجارتها في النمو والتقدم حتى صارت اعظم الثغور الفرنسية وفي سنة ١٨٠١ من الميلاد و ١٢١٦ من الهجرة كان عدد اهلها تسعين الفا وخمسمائة فقط والان بلغ مائتين وخمسة وثلاثين الفا اعني ان اهلها زادت في تسع وستين سنة مائة واربعة واربعين الفا وخمسمائة فهذا دليل على تقدمها ورفاهية اهلها واعندال هوائها فلم يكن البرد فيها شديداً جداً ويهدر ان تنزل درجاتها في الشتاء عن الصفر اكثر من ثمان

قيائلهم واهلهم فاستقبلوهم واسكنوهم معهم فزادت قوتهم وقويت شوكتهم وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد واحداثوا عدة من المدن والثغور مثل نيث واونيب واتسعت دائرة تجارتهم وسارت في جميع البحار خصوصاً بمساعدة الرومانيين ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة وبقي الامر على ذلك الى ان اسست القسطنطينية فاخذت منها شهرتها وتحوّلت التجارة اليها وذلك في حدود ثلاثمائة سنة من ظهور المسيح ومن ذلك الحين اخذت مدينة مرسيليا في الانحطاط والاضمحلال وبعد ان كانت منفردة بالشهرة في سياحة البحار والتجارة اصحبت كغيرها من الثغور آخذة في التنازل وفي تلك الايام كان امر القوم مفوضاً الى ستائة من رجالهم يقبضون مدة حياتهم في تدبير احوال جمهورهم وكان الشرط في انتخابهم لهذه الوظيفة ان يكونوا من اهليها المولودين بها وان يكون لهم اولاد ذكور وكانت الدعاوي والقضايا مفوضة الى خمسة عشر شخصاً منهم ينظرون فيها على مقتضى قوانين موضوعة وكان بت الحكم مفوضاً لثلاثة من المعتمدين وكانت عادتهم ان تكون قوانينهم الجاري على مقتضاها فصل الدعاوي مشهورة ومعلقة بمحيطان المجال الشهيرة من المدن ليتكّن كل واحد من الاهلين من الاطلاع عليها ومعرفتها بنصوصها وموضوعاتها وتلك القوانين كانت لا تخالف قوانين اليونان في شيء

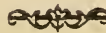
المسامرة الثالثة والثلاثون

مرسيليا

ومن ذلك هذه المدينة واهلها فقد ثقل عليها كل من
الامرين وشربيت من الكاسين واعترها من الخبز وضده ما اعترى
غيرها كالاسكندرية وغيرها وملخص ما اعلمه من امرها انها قبل
المسيح بستائة سنة اي قبل تاريخ الهجرة النبوية بالف ومائتين
واربعين سنة تقريبا كانت لقوم يعرفون باسم ليجور او (ليغور) وكان
لم جزء عظيم من خليج ليون واغلب ارض خليج جينوا فهاجر اليها
بعض الاروام اعني سكان اسيا الصغرى او الاناطول من مدينة
يقال لها فوسيه محيت اثارها الان فنزلوا بهذه البقعة وسكنوها
وكانت ارض فرانس اذ ذاك لقوم يقال لهم الجملوا (او الغالية)
وكان لهم ملك يقال له نانوس فطرد قوم الليغور من هذه البقعة
الى ان تولى واقم مكانهم اولئك المهاجرين لمساعدتهم له واتحادهم
معها فاستوطنوها واستمروا بها واخذوا في اسباب التقدم فانتسعت
شهرتهم وعظمت ثروتهم فحسدتهم من جاورهم وحاربوهم مرارا ولكن
لم يفوزوا منهم بطائل ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من

فما التيه اذ لا يخفى انه مضى عليها قرون عديدة وما من قرن
 الا وتقلبت فيه حوادث لو جمعت لملاّت مجلدات فكيف لو
 جمعت حوادث القرون كلها لكن لا يخفى ان نتيجة المحاولات في
 جميع البقاع والقرون متقاربة فتاريخ كل امة كتاريخ غيرها
 وكذا كل بلدة لا فرق في ذلك بين المدن والقرى اذ النتيجة
 لا تخرج عن احد شيئين خير وشر ومن الاول تكون اللذة
 ومن الاخر يكون الالم وتسلط الاثنين لازم لكل فرد من افراد
 الخليقة فلا يدوم احد على حالة واحدة وكذلك البقاع فكل
 حالة مقترنة بضعها

الدهر لا يبقى على حالة * لا بد ان يقبل او يدبر
 فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لن يصبر

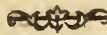


ونحو ذلك واطن ان لكل امة في يومها خواص تشبه هذه وان
 كان لا يحضرنى الان ما هي . وقد حان وقت الطعام فقاموا
 وركبوا عربة ورجعوا الى مقرهم وفي اثناء الطريق قال
 الانكليزي للشيخ ان البوسطة الى مصر ترسل غداً وعن قريب
 نساfer فان كان عندك مکتوب تحب ارساله فاعطنيه لارسله مع
 خطاباتي

فقال الشيخ نعم اريد ان ارسل بعض كلمات للاولاد في
 داخل مکتوب برهان وسأكتبها ان شاء الله في اللوكاندة .
 قال فكيف وجدت هذه المدينة . قال حسنة لطيفة وانما ارجو
 منك ان تخفني ببعض انبائها لآكون على علم بها وباحوالها
 فقال الانكليزي هذا بعض ما يجب عليّ وسأقص عليك
 ما اعلم من امرها بعد وصولنا الى مستقرنا فلما وصلوا دخل كل
 منهم حجرتة وازال ما به من غبار الطريق وغير ما لزم تغييره
 ثم حضروا الى المائدة فاكلوا ثم قاموا الى حجرة الشيخ وقد حضر
 برهان ومعه يعقوب الذي كان اصطحب به في السفينة وقد تكلم
 معه الانكليزي بعض كلمات ففهم منها لياقته للخدمة وانفق معه
 على شروط الخدمة وما يلزم اداؤه وكان فيما قاله له ان برهان
 الدين صغير ويحتاج لدليل بدله ومرشد يرشده فاعظم واجب
 عليك العناية به والملازمة له ففرح برهان بذلك ثم ان الانكليزي
 قال للشيخ قد طلبت مني بعض اخبار هذه المدينة . وانا متفكر

.لا يسهم كل على قدر حاله . فقال الشيخ هل هذا اليوم عندكم
 يوم عيد فقال الانكليزي لا بل العادة في جميع بلادنا التفرغ والتخلي
 عن الاشغال كل يوم في هذا الوقت واما يوم الاحد فيعطل
 الناس فيه اشغالهم ويخرجون بعد الظهر للتنزه فهو عندنا
 كيوم السبت عند اليهود ويوم الجمعة عند المسلمين غير ان
 عاداتهم في يومهم تغيرت عما كانت عليه في صدر الاسلام فان
 بعضهم قد يشتغل فيه كباقي الايام ولم يبق له من الاحترام الا
 صلاة الجمعة واما اليهود فعلى اصل عاداتهم لا يشتغلون في
 يومهم بشيء وكذلك طائفة البروتستانت من النصارى خصوصاً
 الانكليز لا يشتغلون بشيء في يوم الاحد واظن انك لا تجد في
 هذه العادة باساً اذ في ذلك اليوم تفرق كل امة لقضاء لوازمها
 كل بحسبه فالفقير يتفرغ لقضاء لوازمه المنزلية وتنشيط قواه
 البدنية وتنظيف ثيابه وجسده وصاحب الوظيفة يقيم بمنزله
 لمؤاساة عائلته او لتنهيم اشغال نفسه مما يتعسر عليه في غير
 هذا اليوم فضلاً عما يحصل فيه من المزايا كتزاور الاصحاب
 وعبادة المرضى وغير ذلك من الأمور اللازمة لدوام الجمعية
 فقال الشيخ نعم العادة ولكل امة عادة على حسب شرائعهم
 ومقتضيات احوالهم وليوم الجمعة عندنا اعمال تطلب فيه كصلاة
 الجمعة والاغتسال لها والتبكير لصلاتها والصلاة على النبي صلى
 الله عليه وسلم فيه والصدقة والنظافة والطيب بالروائح الحسنة

القول وتفاخروا بالمعائب وانحطوا عن كل شرف وفضيلة وتحلوا
 بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية
 ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية وقد بدا المسخ في السمائل
 والاخلاق المنذر بظهوره على الصور (انتهى المراد منه)
 فقال الانكليزي وقد تكلم الافرنج ايضا على هذه الشجرة
 الخبيثة واطنبوا في ذمها وذكر مضارها ومفاسدها



المسامرة الثانية والثلاثون

يوم العطلة

ثم انهم ارادوا الانصراف فطلب الانكليزي خادماً المحل
 فأتى له بورقة مكتوبة فيها اصناف ما اخذوه فدفع الثمن وارضى
 الخادماً ثم خرجوا يتفرجون على المدينة الجديدة وازقتها وشوارعها
 الى ان وصلوا الى ميدان من ميادينها المعدة للفسحة فوجد الشيخ
 به غالب اهل البلد من ثني وفقير وكبير وصغير في احسن

العارف فيها واحذر من افساد بشرتك وتلاف اخلاقك باستعمالها
 ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الا اراذل الناس ومع ذلك
 فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة وكان قد تبع الامير
 سودون الشخوني رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجينية من ارض
 الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق واتلف ما هنالك
 من هذه الشجرة الملعونة وقبض على من كان يتلغها من اطراف
 الناس ورذلائهم وعاقب على فعلها بقلع الاضراس فقلع اضراس
 كثير من العامة في نحو سنة ثمانين وسبعائة وما برحت هذه
 الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد احمد بن
 اويس فاراً من تيمورلنك الى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعائة
 فتظاهر اصحابه باكلها وشنع الناس عليهم واستعجوا ذلك من فعلهم
 وعابوه عليهم فلما سافر من القاهرة الى بغداد وخرج منها ثانياً واقام
 بدمشق مدة تعلم اهل دمشق من اصحابه التظاهر بها وقدم الى
 القاهره شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيه
 عدة اجزاء مجففة كعرق اللقاح ونحوه وسماه العقدة وباعها بخفيفة
 فشاع اكلها وفسا في كثير من الناس مدة اعوام فلما كان في سنة
 خمس عشرة وثمانائة شاع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر امرها واشتهر
 اكلها وارتفع الاحشام من الكلام بها حتى لقد كادت ان تكون
 من تحف المترفين وبهذا السبب غلبت السفالة على الاخلاق
 وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس وجهروا بالسوء من

ولا اثبت النعمان نفيس عينها

فخذها بحمد المشرقي المهندي

قال المقرئ في الكلام عليها دع نزاهة القوم فما بلي
 الناس بافسد من هذه الشجرة لاخلاتهم ولقد حدثني القاضي
 الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومي
 قبل اخلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس انه سئل
 عن هذه الحشيشة فقال اعنيتمها فوجدتها تورث السفالة
 والردالة وكذلك جربنا في طول عمرنا من عاناها فانه يخط
 في سائر اخلاقه الى ما لا يكاد ان يبق له من الانسانية شيئاً
 وقد قال ابن البيطار في كتاب المفردات ومن القنب نوع ثالث
 يقال له القنب الهندي ولم أره بغير مصر ويزرع في البساتين
 ويقال له الحشيشة عندهم ايضاً وهو يسكر جداً اذا تناول منه
 الانسان قدر درهم او درهين حتى ان من اكثر منه يخرج الى
 حد الرعونة وقد استعمله قوم فاخذت عقولهم وقد ادى بهم الحال
 الى الجنون وربما قتلت ورايت الفقراء يستعملونها على انحاء شتى
 فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً ويدعكه باليد دعكاً جيداً حتى
 يتعجن ويعمل منه اقراصاً ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمسه ويفرجه
 باليد ويخلط به قليل سمس مشوروسكر ويستفه ويطيل مضغه
 فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً وربما اسكرهم فيخرجون به الى
 الجنون او قريب منه وهذا ما شاهدته من فعلها قال فانظر كلام

الدين بن يغموران يمنع من يزرع في الكافوري من الحشيشة
شيئاً فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً كثيراً فامر بان يجمع
فجمع واحرق فنظم في ذلك ابو العباس احمد بن يوسف ابياتا
مطلعها

صرف الزمان وحادث المتدور

تركا نكير الخطب غير نكير

وكان ذلك في سنة ثلاث واربعين وستمائة فهذا وجه
تلقبها بالكافورية وقد عرفت اصل تلقبها بالهندية والحيدرية
والصحيح ان هذا النبات قديم معروف من قبل الشيخ حيدر
المتقدم ذكره بازمان طويلة يدل على ذلك ما نقله الاطباء في
كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذه العقار وخواصها واما
حكما في الشرع فهو التحريم لما يجدر العقل منها قال بعضهم شر
سكر سكر الحشيشة وان قال من غلب على عقله هؤاه وهوى
به الفساد الى مضيق مهواه

هي البكر لم تنك بباء سخابة

ولا عصرت يوماً برجل ولا يد

ولا عبس القسيس يوماً بكاستها

ولا قربوا من دنيا كل متعدي

ولا نص في تحريمها عند مالك

ولا حمد عند الشافعي واحمد

المجرية والعزيرية به اصطبلات وأزيلت أشجاره قال ولعمري ان
خراجه كان بحق فانه كان عرف بالحشيشة التي يتناولها القراء
والتي تطلع به يضرب بها المثل في الحسن قال شاعرهم ابو الحسن
علي بن عبد الله النبي

رب ليل قطعته وندي

شاهدي وهو مسمي وسهيري

مجلسي مسجد وشربي من خضراء -

- تزهو بحسن لون نصير

قال لي صاحبي وقد فاح منها -

نشرها مزرياً بنشر العبير

أمن المسك قلت آيست من المسك -

- ولكنها من الكافور

فلم يرد انها من الكافور وإنما اراد انها من البستان المذكور

ومن ذلك قول ابي المعز بن ابي الحسن بن احمد الصائغ

المغربي

قم عاطني خضراء كافورية

قامت مقام سلافة الصبأ

يغدو القبير اذا تناول درها

منها له تبه على الامراء

وامر السلطان الملك الصالح نعم الدين ايوب الامير جمال

بهندية في اصل اظهار اكلمها

الى الناس لاهندية اللون كالسمر

وقد قيل في هذه الشجرة الملعونة كثير من الشعر وان لم يبلغ

ما قيل في اختها الخمر ويقال ان اول ما نظم فيها من الشعر قول

ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الحنفي

وخضراء كافورية بات فعلها * بالبانافعل الرحيق المعتق

اذا نفخنا من شذاها بنفحة * تدب لنا في كل عضو ومنطق

غنيت بها عن شرب خمر معتق

وبالدلق عن لبس الحديد المزوق

فقال الانكليزي ما المناسبة في نسبتها الى الكافور في قوله

وخضراء كافورية

فقال الشيخ ليس المراد نسبتها الى الكافور المشهور وانما اراد

نسبتها الى بستان كافور وكان مشهوراً به وكان هذا البستان

موجوداً بمصر قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر

انشأه الامير ابو بكر محمد بن طنج الملقب بالاخشيدي فلما قدم

جوهر القائد الى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة

وعرف ببستان كافور وقيل له في الدولة الفاطمية البستان

الكافوري قال بن عبد الظاهر البستان الكافوري هو الذي

كان بستاناً لكافور الاخشيدي وكان كثيراً ما يتنزه به وبنيت

القاهرة عنده ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستائة فاخذت

بن الاعمى الدمشقي في قوله من ابيات

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر

معبرة خضراء مثل الزبرجد

يعاطيكها ظبي من الترك اغيد

يميس على غصن من البان املد

فحسبها في كفه اذ يديرها

كرقم عذار فوق خد مورد

وقال الشيخ محمد الشيرازي القلندري لم ياكل الشيخ حيدر

المحشيشة في عمره البتة وإنما عامة اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار

اصحابه بها وكان اظهارها قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه

كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو اول من اظهر لاهل الهند اكلها

ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع

خبرها ببلاد اليمن وما جاورها ثم فشا الى اهل فارس ثم ورد

خبرها الى اهل العراق والروم والشام ومصر في السنة

التي تقدم ذكرها وبيررطن هذا يزعمون انه كان في زمن

الاكاسرة وادرك الاسلام واسلم وعاش بعد ذلك طويلاً وذلك ما

لا اصل له وقد نسب اظهارها للناس الى اهل الهند علي بن مكى

في ابيات له يقول فيها

فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا

بهندية امضى من البيض والسمير

فرايته في تلك الحال يمس ويتحرك بلطف كالثلث النشوان فجعلت
 اقطف منه اوراقا واكلها فحصل عندي من الارتفاع ما شاهدتموه
 فقوموا بنا حتى اوفقكم عليه لتعرفوا شكله قال فخرجنا الى الصحراء
 فاوقفنا على النبات فلما رايناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب فامرنا
 ان نأخذ من ورقه وناكله ففعلنا فوجدنا في قلوبنا من السرور
 والفرح ما عجزنا عن كتابته فلما رأنا على الحالة التي وصفنا امرنا
 بصيانة هذه العقار واخذ علينا الايمان ان لانعلم بها احداً من عوام
 الناس واوصانا ان نخفيها عن الفقراء وقال ان الله تعالى قد
 خصكم بسر هذا الورق ليذهب باكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله
 افكاركم الشريفة فراقبوه بما اودعكم وراعوه فيما استرعاكم

وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشرين سنة ثم توفي سنة ثمانى
 عشرة بزاولته في الجبل وعظمه اهل خراسان وزاروه وكان
 قد اوصى اصحابه عند وفاته ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم
 على هذه العقار فاستعملوها فلم تزل هذه الشجرة شائعة ذائعة في بلاد
 خراسان وفارس ولم يكن يعرف اصلها اهل العراق حتى ورد اليها
 صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك
 سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك الامام المستنصر بالله
 وذلك في سنة ثمانى وعشرين وستائة فحملها اصحابها معهم واظهروا
 للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى اهل الشام
 ومصر والروم فاستعملوها وقد نسبها لحيدر المذكور محمد بن علي

المسامرة الحادية والثلاثون

الحشيش

فقال الشيخ انها لم تكن من مستنبات مصر واشتهرت نسبتها الى طائفة من الاعاجم تسمى الحيدرية نسبة الى رئيسهم حيدر قال الحسن بن محمد في كتاب السوانح الادبية سالت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري ببلدة (تستر) في سنة ثمان وخمسين وستائة عن السبب في الوقوف على هذه العقار يعني الحشيشة ووصوله الى القراء (يعني الدراويش) خاصة وتعيده الى العوام عامة فذكر لي ان شيخه حيدر طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه الى الصحراء ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله قبل فدخل محله واذن لاصحابه في الدخول عليه واخذ بمحادثهم ويوانسهم فلما راوه على هذه الحالة من الموانسة بعد اقامة المدة الطويلة في الخلوة والعزلة سالوه عن سبب ذلك فقال بينما انا في خلواني اذ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفرداً فخرجت فوجدت كل شي من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ومررت بنبات له ورق

تدریجاً فكلما ازدادت امة من الام تحولت عن حالتها الاصلية الى ما يقتضيه ما صارت اليه ولا يخفى عليك ان الانسان وان كان يصرف في القهوة هنا اضعاف ما يصرفه عندكم الا ان ذلك ليس لذات القهوة بل لها ولما يتبعها من نظافة المكان وما فيه من المحاسن التي رايتها فانكم تعلمون ان النظافة من ضرورات حفظ الصحة التي رعاها الشرع والعقل ولذلك يتعين على ضباط البلاد والقرى والمدن دوام تفقدها والتنبيه عليها حتي تصير عند الاهلين طبعاً وعادة من جملة العادات المألوفة كما انهم يلزمهم زيادة عن ذلك شدة التضييق على المواد المضرّة بالعقل والجسم كالحشيشة فيلزم مزيد التاكيد في ازالتها والتوعد بالعقاب الشديد على استعمالها وكثيراً ما سمعت عندكم بنشر اوامر من الحكومة بمنع تعاطيها وعدم زرع شجرتها في شي من ارض مصر ولكن لم تمتنع بالكلية وليت شعري من اين عرف المسلمون هذه الشجرة وكيف استعملوها ولم تكن مشهورة الاستعمال بين قدماء المصريين



شي فيها غير القهوه وتراها لضيقتها يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون وكذلك دخان النرجيلة والعود ونحو ذلك حتى يراهم من يربهم كأنهم في حريق او محل سجن مضيق فهي منبع لكثير من الامراض والعلل وماوى لاهل البطالة والكسل خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الخشيش فلا يسمع فيها الا الفاظ يعجبها السمع وينفر منها الطبع ولما خلت عن السب والضرب فهي بهذه الكيفية لا تليق بالامراء والاعيان والنضلاء

فقال الانكليزي ان اصل ما جعلت له هذه المحال عندنا وعندكم واحد ولكن بسبب ازدياد الثروة والتوسع والعمران اكتسبت هذه المحال عندنا هذه الهيئة شيئاً فشيئاً حتى صارت كما ترى يرد اليها جميع الناس من رجال ونساء وافاضل وامراء ومع هذا فما هنا ليس شيئاً بالنسبة لما في مدينة باريس كما ستراه فليس الخبر كالعيان وقد رايت عندكم بالموسكي وجهة الازبكية والاسكندرية بعض محلات للقهوه تشبهها وان كان غالب المترددين اليها من الاوروبويين فهذا ربما يشعر بان قطركم قد اخذ في مبادي التوسع في العمارة والرفاهية فيوشك ان تكثر به هذه المحلات ويزداد اتقانها وتحسينها. أما رايت في ازقة مرسيليا القديمة محلات للقهوه لا فرق بينها وبين ما في القاهرة فهذا ما يدل على ان هذه الحالة لم تكن في القرون السابقة كما هي الان ولكن لا تكون الامور الا

الباقيتين حسب له واحد في اللعب ولعب ثانياً فاذا لم يصب
 كليهما لم يحسب له شي ويلعب قرينه وهكذا حتى يستكمل احدها
 العدد المتفق عليه بينهما فتكون له الغلبة ثم خرج من ذلك
 المكان الى حجرة اخرى فوجد بها قوماً جلوساً وامامهم طرايزات
 عليها الصحف الخيرية واوراق الحوادث الشريفة وهم يقرأون فيها
 وفي غيرها واخرين يأكلون ووجد محلات القهوة والمشروبات في
 غاية النظافة والظرف والخدمة في هيئة الكمال واللطف ووجد
 شابة ظريفة الملبس جميلة الصورة امامها مكتبة ودفتري تكتب فيه
 ما يطلب فرجع وذكر ما راى لوالده وكان قد راى هو ايضاً قريباً
 من المحل الذي هم به اناساً يلعبون القمار واخرين يلعبون بالنرد
 وهو المعروف بالطاولة واخرين يلعبون بالشطرنج والدومينو

فقال الشيخ تنبيهاً لولده واحكاماً لرشده قد رايت مما بهذا
 المكان من بديع الاتقان وغريب الاحسان ما يدللك على تسابق
 الافكار في توصل بني نوعك الى محاسن الآثار فهذا الموضع كما
 تراه يبلغ كل داخل فيه مناه فالتاس ما بين اكل وشارب ومتفرج
 وللاعب ومطلع على الاخبار الوقتية وسائل ومحيب عن الاحوال
 التجارية والناس مع اختلاف هذه الشؤون على اكل هده واجل
 سكون الى سلامة ابدان ولطافة اذهان ونظافة ثياب وملاحة
 ذهاب واباب فاين من هذا غالب محلات القهوة في مصر حيث
 يجمع الموقفة من الناس ولا يرمى ما يهر الناظر ويسر الخاطر ولا

ومن عادتهم التفسح في هذا الوقت فمنهم من يأوي الى محلات
 القهوة ليطلع على الاخبار او ليتسلى مع بعض الاخوان ومنهم من
 يذهب الى خارج المدينة للفسحة والتروض ومنهم من يمشي مع بعض
 حرمه من النساء فكان في محل القهوة في هذا الوقت زحام كثير
 يدخلها فوج من الناس ويخرج اخر والجميع في هيئة تدل على
 الثروة فاستغرب الشيخ هذا المحل واستعظم امره وراى فيه عدة
 محلات متداخلة وراى الناس تخرج من محل الى اخر بدون مانع
 ينعم وراى في المحل كثيراً من الكراسي المحسنة والترايزات الثينة
 وكثرة المرايا وتقابلها ببعضها كانت صور الجالسين والمخرجين
 والداخلين تنعكس فيها وتضاعف مراراً فكان يترآى في المحل
 سعة اكبر واكثر مما هو عليه في نفس الامر وكان المنظر الحادث
 من هذا التكرار غريباً يلذ الناظر ويسر الخاطر فرغب برهان في
 التفسح في ارجاء المكان فقال له الانكليزي قم ولا حرج وانظر الى
 ما تحب وتفرج فراى مكاناً كبيراً فدخله فوجد في وسطه ترايزة
 كبيرة عليها ثلاث كرات من سن الفيل وحوها ناس من جملتهم
 اثنان بيد كل واحد منها عصا يضرب بها احدى الكرات الثلاث
 المذكورة فتضرب احدى الكرتين الاخرتين او كليهما وربما ضرب
 بها حافة الترايزة فتنعكس عنها الى الكرة الثانية ثم الى الثالثة
 وربما لم تصب الا واحدة وفهم من الناس ان هذه اللعبة تعرف
 بالبلارد وان الواحد اذا اصاب بالكرة التي يضربها كلتا الكرتين

يوافق احوالهم بالنسبة لهذه البقعة ومن ثم كانت الطباع والاخلاق
والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة واما ما زاد فطاري من
اخلاط سكان كل بقعة بمن جاورها



المسامرة الثلاثون

القهوة

وهكذا كان يتكلم مع برهان والشيخ يسمع الى ان وصلوا الى
محل قهوة يزيل الاتراح ويحلب الافراح للطافته وحسن زخرفته
وكثرة ما به من المرايا وسائر المزايا والتقوش اللطيفة والاشكال
الظريفة والادوات النظيفة والآلات المطربة والمحلات المعجبة
فدخلوا بقصد الاستراحة فاخاروا ركناً بعيداً عن الزحام فقعدوا
حول طرايزة فحضر الخادم فامر الانكليزي بقهوة للشيخ ولولده
وبليمونية لنفسه فذهب واتي له بما طلب ثم اخذ ورقة من اوراق
الحوادث ليطلع على ما فيها من الاخبار وكان الوقت اخيراً النهار

الارياض وكالمجبة والتفطان عند اهل المدن واما البلاد الباردة فيطلب فيها ضيق الملابس لتكون ماسية للجسد لاصقة به لان الجسد له درجة في الحرارة لها مع حرارة الجو نسبة تتعادل معها بحسب الفصول فهما كان الثوب محكما على الجسد حفظ حرارته ولو نظرت الى تفصيل المنازل عندنا وعندكم وتاملت صورتها الخارجة والداخلة لرايت ان القطرلة دخل عظيم في اختلافها مثلا سطوح المنازل عندكم مستوية وفي بلادنا لا يناسب هذا الوضع لان المطر عندنا كثير وفي بعض الاحيان يتجمد فيكون ثلجا فلو كان السطح مستويا لتسارع اليه الخلل خصوصا لطول مدة الامطار وكثرتها فيسري الخلل الى المنازل وتمتنع راحة سكانها وتكلف امتعتهم ويؤدي ذلك الى ضرر عظيم لتراكم الثلج فوق الاسطحة واذا ابتدا الجو في الحرارة ائناع وسال وبسيلانه يفسد بناء المنازل ولذلك تجد جميع سقف المنازل عندنا عبارة عن سطحين يرتفع طرفاها عند التقاها على الهيئة المعبر عنها في اصطلاح المصريين بالجمالون فهذا الشكل من ضروريات قطرنا لما علمت بخلاف ما عندكم فان الامطار في الاقاليم الشمالية المعروفة بالجهة البحرية في مصر قليلة جدا وفي الجهة الجنوبية منها المعروفة بالقبلية نادرة ولا ضرورة للاحتراس من شيء لو وقع كان قليلا او نادرا او غير مضر وهذا قانون عام في جميع جهات الارض فكل سكان بقعة من مبداء اتخاذهم لها مقرا ووطنا قد تخيلوا حتى اهتدوا الى ما

زيادة في المصرف ولذا اضطر الناس عندنا الى تقليل ارتفاع
 الحجرات فكثرت الطبقات في الدور مع كون الدار لا يزيد
 ارتفاعها عن ارتفاع دوركم الا بشيء يسير بل ربما كان ارتفاعها
 سواء الا انها عندنا منقسمة الى عدة طبقات تسكنها عائلات
 متعددة اذ كانت العادة عندنا ان لا ينفرد صاحب الدار بسكنائها
 بل يسكن منها فيما يكفي عائلته ويؤجر باقيها بخلاف ما عدكم
 من تعود كثير من الناس ان ينفرد صاحب الدار بسكنائها مستقبلاً
 ان يسأكه غيره ولو كان من اقاربه فلما ذكر من الاسباب
 اخفاقت اوضاع المنازل عندنا وعندكم وكما اقتضى اختلاف احوال
 الاقطار اختلاف اوضاع المساكن كذلك اقتضى اختلاف هيئات
 الملابس وتنوع المآكل والمشارب وعلى ذلك جرت عادتهم ووقع
 عليه استحسانهم حيث كان مرجعه الى اقتضاء الطباع الا ترى
 العرب في البادية يكفي الواحد منهم بقميص واحد ورداء ابيض
 من الصوف وهو المعروف بالحرام وما ذاك الا لان حرارة قطرهم
 تمنعهم من الزيادة على ذلك فالثوب لستر العورة والحرام لزينته
 النهار وغطاء الليل ولم يكن اختيار اللون الابيض خالياً عن
 الحكمة بل لانه الموافق للاقطار الحارة فيرد الحرارة عن البدن
 بخلاف باقي الالوان فانها تجذب حرارة الجوالها ومن اجل
 ذلك اعتاد الناس لبس الابيض في الصيف وغيره في الشتاء
 وكذلك يستحب في البلاد الحارة الثياب الواسعة كملابس اهل

وكان غالب نظر الشيخ منعطفاً الى عادات الناس وادابهم في معاملاتهم وسائر حالاتهم وما يراه بهم من علائم الغنى والفقر والراحة والتعب وكثرة الكسب وقلته وسهولة امر المعاش وصعوبته ونحو ذلك من الاحوال واسبابها وكان نظر برهان الدين كعادة غيره من الشبان قاصراً على المناظر والظواهر فنظر في مباني المدينة وتأمل فيها فراها مرتفعة ورأى غالب البيوت من اربع طبقات الى سبع بعضها فوق بعض فتعجب من وضع المباني وكثرة تغدد طبقات المنازل مع ان اعظم بيوت مصر في العلو طبقتان خلاف الطبقة الارضية بل الكثير منها طبقة واحدة فوق الارضية

فقال له الانكليزي اراك تردد النظر الى هذه المباني والتأمل في ارتفاعها وارك كالتعجب من كثرة طبقاتها : فقال نعم . قال الانكليزي لا غرابة في ذلك فهذا كله ناشيء من امور طبيعية واسباب جوية لان هذه البلاد باردة فلا يناسبها الغرف الواسعة ولا المرتفعة وإنما يناسبها القليلة السعة والارتفاع فاذا لزم عندكم ارتفاع الطبقة ستة امتار مثلاً كفى عندنا نصفها لان غالب اوقات السنة عندنا باردة فمحتاج اصحاب المساكن لاستعمال الة مخصوصة لتولد الحرارة ودفع البرودة كأفران من حديد توضع في المحلات وقت الشتاء وحمامات تعمل داخل البناء كما رأيت في محلات اللوكاندة فكلمنا كبر المحل اخراج لزيادة الوقود في الفرن وفي ذلك

بامر نفسه سائر في طريقه محترز من اضرار غيره او تغيير خاطره
ومع تنوع الاشغال والاعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب
فكانهم اجتمعوا للصلاة او لسماع منشور من احد الولاة فلا يسمع
بينهم الا الفاظ لا بد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ
حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بازقة القاهرة والاسكندرية ونحوها
من مدن الممالك المشرقية فانا نرى الناس بها سيما في الموالد
والمواسم والمحافل لا تكاد تمر بهم ساعة من الساعات الا ويحصل
فيها تشويش خاطر المارين وازعاجهم من كثرة الصياح والصراخ
والسب وسماع الالفاظ الفظيعة ثم تأمل في اصل ذلك وسببه
فوجده ناشئا من قوانين الضبط الابتدائية وطرق التربية الاولية
فتعود كل على ما نشأ عليه ثم انهم بعد الاطلاع على المينا وما بها
من المباني والغرائب دخلوا المدينة فبدؤوا بالجزء القديم منها
فوجدوا بناءه وحرارته وطرقه مثل ما يوجد في المدن المشرقية
سواء بسواء الا ان طرقه مبلطة وغالب حرارته يخرج منها روائح
كريمة وما بها من الدكاكين والمخانات ليس كالذي رأوه في
الشوارع الجديدة الموصلة الى اللوكاندة حيث هم نازلون ووجدوا
المارة قليلة بالنسبة لما رأوه في تلك الشوارع وما زالوا سائرين
من محلة الى محلة ومن جهة الى غيرها والشيخ وابنه يتاملان فيما
يبران به ويقع تحت نظرها ويقابلان حاله بحال ما في مصر
وجهاتها من نوعه وينظران في الفرق بين المحليين والترجيج بين

ويرى كيف تتغير احوال البلدان بتغير اهلها واستحسن الشيخ
الذهاب على القديم وان كان اكبر الثلاثة سنًا ليمكن مزيد تمكن
من الاطلاع على ما بها من الاماكن والبقاع والاحوال والطباع
فاخذ بعضهم بيد بعض وابتدأوا من المينا (اي المرسى) فداروا
حولها وراوا بها مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومحلات
الكهرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع اشكالها
واجناس ملاحيها وملابسهم والوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة
في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر الى جهات مختلفة
ووجد المرور بالطرق عسرًا جدًا لكثرة العربات المعروفة في
مصر بعربات الكرو ومقابلتها العربات الركوب والحمالين والمارين
فكان سيرهم متقطعًا غير مستمر وظهر للشيخ وولده عظم تمول الامة
الفرنساوية واتساع ثروتها ومعرفتها بطريق الاسباب المعاشية
ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر واهلها
وثغر الاسكندرية وحالها فوجد بينها وبين مرسيليا فرقا كبيرًا وان
ذلك ليس الا من تفاوت احوال التقدم ونظر الى المارين بالطرق
وقارن احوالهم بما يعلم من احوال اهل بلاده فوجد ان لا نسبة
بينهما الا في الصورة فقط لانه رأى الكلك يسعى مع الاجتهاد
والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعلمهم اثار اليسار والثروة
والنعمة وما زاده تعجبًا ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسع لهم
صوتًا ولغظًا كما هي عادة المضيرين واهل المشرق بل كل مشغول

بكون التعظيم الاخير الف قطراً اي مليون سطح كما اذا كان
 التعظيم من الشخصية مائة ومن العينية عشرة او من الشخصية
 اربعين ومن العينية خمسة وعشرين. مثلاً وسأطلعك على هذا
 كله واريك بعض غرائب الصور التي تراها بها اذا دخلنا المدينة
 فان بها دكاكين مخصوصة ببيع النظارات لانها على البحر وجميع
 القباطين لا بد لهم منها فلا تسير سفينة الا وبها عدة منها اما بيد
 القباطين او بيد البحرية



المسامرة التاسعة والعشرون

العادات

ثم امر الانكليزي باحضار الفطور فاكلوا على العادة ثم قاموا
 يفرجون على المدينة ولاجل وقوف الشيخ على كيفية المدينة واهلها
 استحسنوا ان يبدأوا بالفرج على اصلها القديم ثم على الجديد وفي
 اليوم الاخير يذهبون الى خارجها ليطلع الشيخ على اطرافها
 وضواحيها ويقارن احوال الزمن الماضي باحوال الزمن الحالي

نافعة لجميع الناس لسهولة تقيص الطول وزيادته على حسب قوة الرائي وفي هذا النوع اذا كانت العدسات من جنس واحد اي محدبة فقط او مقعرة فقط تكون الصورة المرئية مقلوبة اي ان المرئي لو كان رجلاً مثلاً لنظرت صورته منعكسة رأسه لجهة اسفل ورجلاه الى اعلى فان كانت العدسات مختلفة بان كان بعضها محدباً والاخر مقعراً رؤيت الصورة كما هي واما النظارات التي يستعملها العميون فيوجد بها عدسات اخرى بين الباصرة والشبكية (اي الشخصية) موضوعة بقوانين حسابية وبسبب ما علم من فوائد هذه الالات لم يزل اهل الفن مشغولين بها حتى توصلوا الى عمل نظارات تكبر الصورة عن اصلها الف مرة والفين وثلاثة الاف واكثر والى عمل نظارات لنظر الاشياء الدقيقة جداً كاعضاء بعض الحشرات كالنمل والذباب والبراغيث ونحو ذلك مما لا يمكن رؤيته بدونها وهذه ايضا اما بسيطة كالتى عند الساعاتية والجوهرية واما مركبة في قضبان تتداخل في بعضها وتكون عادة موضوعة راسية مثبتة في قائم من معدن لتسهيل الاعمال اللازمة ويكون التعظيم المحاصل منها حينئذ محصل ضرب تعظيم كل من هذه العدسات في الاخر فاذا كانت العدسة الشخصية او الشبكية تعظم قطر الجسم خمس مرات والعينية عشر مرات كان التعظيم الاخير خمسين قطراً اي الفين وخمسة مائة سطح حاصلة من ضرب الخمسين قطراً في نفسها وقد

بالنسبة لمحسن المعدن والمادة الداخلة في تركيبها ولاختلاف شكل اعين الناس اخلف تركيبها فان من الناس من لا يرى الاشياء الا اذا كانت على بعد منه ومنهم من لا يراها الا اذا كانت قريبة جدا فما يوافق الاولين لا يوافق الاخرين وبالعكس والغالب ان من يرى الاشياء على بعد يكون شكل عينه مقعرا فيناسبه نظارات محدبة وان من يراها من قرب يكون شكل عينه محدبا فيناسبه نظارات مقعرة وتفاوت اعين الناس في التحديق والتعير كانت العدسات ايضا متفاوتة فيها وبالتجارب وجدوا التفاوت لا يزيد عن اثنتين وعشرين درجة واكبرها قوة الدرجة الاولى فلا يستعملها الا من كان بصره ضعيفا جدا كالهرم ومن اضر ببصره المرض فسبحان من علم الانسان من مكنون علمه ما اودع في مخلوقاته من الحكم الربانية حتى استعاض ما ضاع من قوة ابصاره التي هي اصل لتلذذ حواسه وغذاء افكاره

والمركبة هي التي تشتمل على عدستين فاكثر مثبتة في قضيب اسطواني فتوضع احدى العدسات في نهايته مما يلي الرائي وتسمى الباصرة او العينية والثانية في النهاية الاخرى وتسمى الشبكية او الشخصية لانها في جهة الشيء المرئي وشخصه وقد يكون القضيب مركبا من قضيبين او قضبان يدخل بعضها في بعض لسهولة الاستعمال وتقرّب الاشياء وزيادة ظهورها للعين فتكون خيئذ

اتفق ان بعض اطفال الصناع من اهالي هولاندة في بعض العاهم
 قربوا عدستين من الزجاج الى بعضها وكانتا من جنسين مختلفين
 ثم نظروا من خلفها فوجدوا الاشياء الصغيرة البعيدة كأنها قريبة
 كبيرة فاخبروا معلمهم بذلك فامتنحه فوجده حتمًا فاخذ في عمل
 نظارات بعدسات من اجناس مختلفة بعد ان كان يجعلها من
 جنس واحد فكانت تسمى هذه النظارات بالهولاندية نسبة الى
 ذلك المعلم وكانت ترى بها الصور غير تامة الوضوح بسبب ما
 كان يرى فيها من التلون بالوان العدسات فاشتغل اهل الفن
 بازالة هذا الامر وذلك ان احد الفرنسيين ادخل مادة جديدة
 في المواد التي تتركب منها العدسات فامتنع ظهور الالوان
 المذكورة وكان ذلك في القرن السابع عشر من الميلاد
 وهو القرن المحادي عشر من الهجرة فمن ذلك الوقت صارت
 الصور ترى بلونها الاصلي وبحسب تقدم الناس في المعلومات
 الفكرية واتساع دائرة العلم والصنائع العملية تحسن امرها
 شيئًا فشيئًا حتى تنوعت الى انواع كثيرة وصلت في الاتقان الى
 غاية كبيرة

وجميع النظارات المستعملة الان بين الناس بالنسبة لتعدد
 العدسات الزجاجية وعدمه منحصرة في قسمين بسيطة ومركبة
 البسيطة هي التي تشتمل على عدسة واحدة كالتى
 تمسك باليد او توضع على الانف وهي مختلفة الشكل والقيمة

المعامرة الثامنة والعشرون

النظارات

قال الانكليزي العلم بحقيقة ذلك متوقف على قواعد علمية
 مذكورة في علم الطبيعة في باب الضوء وستقف عليه ان شاء الله
 عند تلقي هذا العلم بالمدارس وبعض هذه الخواص قائم بشكل
 الزجاج الموضوع في النظارة وبعضها ناشئ من تعددها وبعدها
 عن بعضها فلا ندخل في ذلك الآن ويكفينا الاستدلال بها
 على استكشاف الانسان لامور اتسعت بها دائرة معلوماته وقد
 زعم بعض المؤرخين من الاورباويين انها لم تكن موجودة الى
 القرن الثالث عشر من الميلاد وانما اخترعت بعده على يد رجل
 تلياني وليس كذلك لانه تحقق لنا الان ان استعمالها سابق على
 هذا التاريخ وان هذا التلياني انما احدث فيها بعض تحسينات
 فقط ومع ذلك كله فاطن ان استعمالها بالديار الاروفاوية لم
 يكن الا بعد استعمالها بالمشرق فان ابتداء علمي الملاحظة ورصد
 الكواكب اللذين هما اشد احتياجاً اليها من غيرها كان بتلك
 الديار وقد نسب المؤرخون اختراعها الى المصادفة حيث قالوا

والوقائع المحرّبة العظيمة حيث يرى القتلى صفوفاً والمدرجين
في دماهم الوقاً والمقطعين أرباً أرباً والمدبرين عن القتال رهباً
وهرباً

فقال برهان اعوذ بالله من ذلك لست ممن يميل لرؤية
هذه الامور وإنما اميل لما يجلب الى النفس السرور ومالي ولما يورث
الحزن ويبعث على الشجن

فقال الانكليزي الشيء لا يعرف الاً بضده ولا تخلو روبة هذه
الامور من فائدة

قال برهان ولكن هذا امر لم تألفه طباعتنا ولم تسبق لنا به
عادة واذا رايت شيئاً من ذلك تكلمت فيه بما اراه والذي ارجوه
منك الان ان تعرفني كيفية هذه النظارة ولاي شيء يرى البعيد
بها قريباً والصغير كبيراً فلا بد لذلك من حكمة



ولدها . فقال كرم الله وجهه اعنبره في الاكل فان اكل لحمًا
فكلب وان اكل علفًا فشاة . فقال الاعرابي رايته يفعل هذا
تارةً وهذا اخرى . فقال اعنبره في الشرب فان كرع فهو شاة
وان ولغ فهو كلب . فقال الاعرابي وجدته يبلغ مرة ويكرع اخرى
فقال اعنبره في المشي مع الماشية فان تاخر عنها فكلب وان
تقدم او توسط فهو شاة . فقال وجدته مرة هكذا ومرة هكذا فقال
اعنبره في الجلوس فان برك فشاة وان اقعى فكلب فقال يفعل
هذا مرة وهذا اخرى . قال اذبحه فان وجدت له كرشا فهو شاة
وان وجدت له امعاء فكلب وما ذاك الا من سعة علم الامام
كرم الله وجهه ومعرفته بالطبائع

قال الانكليزي اظن ان الذي جر هذا الكلام بينكما حكاية
ما رآه برهان من امر التياتر فاني اظنه حدثك بما كان
فقال الشيخ نعم شرح لي صورة الحال وكيف قتلت البنت
وحكى لي انه تأثر من معاينته ذلك حتى كأن الامر حقيقي لا مجرد
تصوير وتمثيل

فقال الانكليزي ما كنت اظن هذا الامر يوثر في برهان
حتى رأيت في اثناء الواقعة بيكي فحملت ذلك على رقة قلبه
فقال الشيخ هذا لا يستغرب من مثله فانه صغير السن قليل
الممارسة للامور فهو سريع التأثر بعيد عن القسوة
قال الانكليزي فكيف به لو رأى تصوير الحوادث المجسمة

الحقناه بعالم الاسود فخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد
 واذا رأينا انسانا خبيثا كثير الروغان الحقناه بعالم الثعالب لان
 العرب ضربت به المثل فقالت اروع من ثعلب واذا رأينا من
 يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة الحقناه بعالم الظربان
 وهي دويبة قدر الهرة منتنة تقول العرب عند تفرق الجماعة
 مشى بينهم الظربان اي تفرقوا واذا رأينا انسانا لا يصغي الى
 الحكمة والعلم وينفر عن مجالس العلماء ويألف اخبار اهل الدنيا
 الحقناه بعالم الخنافس فانه يعجبها اكل القاذورات وملامسة
 النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذا اشتمت ربيعة الطيب
 ماتت لوقتها واذا راينا الرجل يصنع بنفسه ما تصنع المرأة لبعلمها
 فيبالغ في التزين وينظر في عطفه الحقناه بعالم الطواويس لان
 العرب ضربت به المثل فقالت ازهي من طاووس واذا راينا انسانا
 حقودا لا ينسى المفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات
 الحقناه بعالم الجمال فتجنبنا قربه لان العرب تقول احقد من
 جل فخذ من الناس حذرك وجد فيما تحسن به امرك

النصح احرص ما باع الرجال فلا

تردد على ناصح نصحا ولا تلم

ولقد ذكرت بما انساق اليه الكلام من طبائع الحيوان نادرة
 لطيفة عن الامام علي رضي الله عنه وكرم وجهه حكي انه دخل
 عليه اعرابي فقال له اني رأيت كلبا وطىء شاة فولدت فيا تقول في

(قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم)

وبينا هما في هذا الكلام دخل الانكليزي عليها واخذ يسمع
نصائح الشيخ لولده فاتم الشيخ كلامه وقال . واعلم يا ولدي ان
لكل امة من الناس عادات الفوها واستمروا عليها لا يتحولون عنها
بل لكل واحد من الامة عادات واخلاقاً تخص به ويتميز بها
وقد قلت لك فيما سلف ان الخلق وان كانوا من نفس واحدة
الآن ان اخلاقهم وطباعهم متغايرة وعاداتهم واوضاعهم منفرقة فمنهم
من اعتاد حجب النساء وحجزهن في المنازل ومنهم من اعتاد
ابرازهن واخلاقهن بالرجال وكذلك منهم النخيل والسخي والشجاع
والجبان والغبي والزكي والصالح والطالح الى غير ذلك كما ان
منهم الاسود والاشقر والابيض والاشقر ومنهم من لغته العربية
وغيرها وليس من نوع الانسان الا وفيه خلق من اخلاق غيره
من الحيوان فاذا رأينا الرجل جاهلاً في خلائقه غليظاً في طباعه
قويّاً في بدنه لا تومن ضغائنه الحفناه بعالم النور لان العرب
ضربت بالنمر المثل فقالت اجهل من نمر واذا رأينا الرجل هجماً
على اعراض الناس الحفناه بعالم الكلاب فان داب الكلب ان يجفوا
من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذيه واذا رأينا انساناً جيل على الخلاف
ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم الحفناه بعالم الحمير
فان دأب الحمار ان ادنيت به بعد وان ابعده قرب فلا تتفع به
ولا يمكنك مفارقتة وان رأينا انساناً يهجم على الاموال والارواح

وسكنى حاضرتهم وإنما اظهرهم مدة يسيرة وترحل عنهم فما
علينا من اخلاقهم وعاداتهم مليحة كانت او قبيحة وإنما علينا اذا راينا
في اوضاعهم وطباعهم واحكامهم ومبانيهم وغير ذلك شيئاً فيه لبلادنا
مزية ومنفعة احصيناه وحفظناه حتى نجتهد في نقله الى جهتنا
بالتنويه به بين اهل ملتنا واظهار محاسنه وبيان منافعه وترغيب
الناس فيه بشرط ان يكون هذا مع التحقق من نفعه بعد امعان
النظر وجودة التامل ومراجعة اهل النظر والبصيرة فيه لا باديء
الراي والنظرة الحمقاء فقد راينا كثيراً من الاغرار الحمقاء حين
يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة ويرون ما فيها من الزخرفة
والزينة والابهة وعلامم العز والثروة واليسار ما لا يجدون نظيره في
بلادهم تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر
المعجبة على ان يستحسنوا كل ما راوه ما يخالف ما عندهم ويظنوا
انه سبب الغنى والثروة لاهل تلك المدينة مع انه ربما كان في
نفس الامر قبيحاً مضرراً وإنما غطي على ضرره انه مصحوب بامور
نافعة غيره وربما ظهرت مضراته بعد حين فعلى العاقل ان لا
يتسرع الى الحكم بل يتثبت ويتامل حتى تظهر له حقيقة الشيء على
ما هو عليه ويجتهد في نقل النافع لاهل وطنه وملتة والكف
عن غيره وإما ما ذكرت من خوف الفتنة من تكشف النساء كما
رايت بالامس فكان عليك يا بني ان تغض البصر عما لا تحل
لك رؤيته وما يخاف عليك تبعته وقد قال الله جلث كلمته

قال الحاكي لهذه الحكاية فلما وصلا الى محلها دخل الانكليزي
 مخدعه وتوجه برهان الدين الى والده فوجده قد نام فنام هو ايضاً
 وعند الصباح قام على حسب عادته وتوضأ وادى ما عليه من
 فريضة ثم ذهب الى والده فقبل يده وقعد بجانبه فسأله عما رأى في
 ليلته فذكر له الواقعة واطنب وبين له ما كرهه من ذلك وما
 احب ووصف ما عاينه من الزخرفة والزينة وآلات الطرب
 والتصوير والتمثيل واللهو واللعب وقال لقد رايت الليلة ما فيه
 العجب العجيب ولكن ليترك يا والدي ما اذنت لي في الذهاب قال
 ولم ذلك فذكر له ما رأى من حال النساء واختلاطن بالرجال
 وكشفن لوجوههن وصدورهن ونهوهن اظهاراً للجمال وانه رأى
 ذلك مبيناً للحياء والكمال ومضراً بحال النساء والرجال وداعياً
 الى تعلق البعض ببعض لسهولة الاختلاط المؤدي الى الميل
 واشتغال البال وترك الانسان ما يجب عليه من الاعمال اذ لا
 يخفى ان اول الحب نظرة كما ان اول الحريق الشرر فما اسواء هذه
 العادة في هذه البلاد وما اضرها على العباد

فقال الشيخ يابني لكل بلاد عادة يستحسنها اهلها ويستقبحون
 ما يخالفها وان كان غيرهم على عكس ذلك ولن تستطيع تغيير
 عادة جارية في مدينة كبيرة مثل هذه بازرائك عليها وانتفاصك لها
 فلا يحصل من الاعتراض عليهم غير التعرض لمعاداتهم على اننا لا
 نأفدنا في تغيير عاداتهم واستمراهم عليها اذ لساننا بصلاد معاشرتهم

واجتهدت في صرف صورتها عن وهي فما استطعت وامرني
 أمر الورع والتقوى بسلوانها فما اطعت
 وقد كنت من قبل الهوى انني الهوى
 زماناً ولكن الهوى غلب التقوى

فبقي خيالها نصب ناظري وجهالها قيد خاطري حتى انصرفت
 مع الانكليزي بعد ما تم اللعب وانقضى وبقي من فراقها جمر
 الغضا واما ما كان من حوادث اللعب وقتل البنت لنفسها
 فجدير بان يذهل نفس من رآها عن حسها وذلك لان اللعب
 كان مستوفياً شروط التقليد وكان الواقعة حقيقية وان ما بها من
 البكاء والاقوال والحوادث والافعال صادر من نفس اصحاب
 الواقعة فكان قلبي يتنقل على حسب تنقلات الحوادث حتى بكيت
 وسقطت من عيني العبرات وما افقت من ذلك الا بانقضاء اللعب
 وكانت النظارة التي اهداها الي الخوجا هي المعينة على انكشاف
 ذلك كله فمع ان محل اللعب كان بعيداً عنا فكنت ارى حركة
 شفاهم وكاني في وسط المكان فعميت لهذه الآلة وانتظرت الفرصة
 في سوال الانكليزي عنها وفي اثناء الطريو سألني عن حال
 التياتر فذكرت له جميع ما خطري من الخواطر وما تأثرت به من
 الحوادث فضحك وقال ايها الطف وادق التياتر ام اولاد رابيه
 فقلت له شتان ما بين ذا وذاك واين الثرى من الثريا والتقدم من
 المحيا

لم اتمالك ان وجهت نظار في نحوها فكنت كما قيل
 لم يكن المجنون في حالة * الاّ وقد كنت كما كانا
 لكنه باح بسر الهوى * وانني قد ذبت كتمانا
 فاشتغل فكري بها وقصرت نظري عليها وتوجهت بكليتي
 اليها وقام لي من الشوق ما لا اقدر على دفعه ولا حيلة لي في رفعه
 فهاجت ضمائري واضطربت سرائري واشتغلت بها عن رؤيّة حوادث
 التياتر وغيرها حيث وجدتها تفوق الجميع حسناً ودلالاً وظرفاً
 ولطفاً وكالاً وكان يظهر لي انها تهتف باسمي وتشير بطرفها الى
 رسي وكثيراً ما رايتها تشير اليّ بالبنان اشارة متم بالحب ولهان
 فكان بصري مراقباً جميع حركاتها وقلبي مشغولاً بحمائل صفاتها
 وغرقت في بحار الافكار لكئي كتبت عن الحاضرين تلك الاسرار
 وخشيت هتك الاسرار وهمت من حبها وجداً ولا هيام عاشق ليلي
 وسعدى فما راغني الاّ سرعة قيامها والنفاتها اليّ بحسن قوامها
 وكانها تقول

بنا فوق ما تشكون نصيراً لعلنا * نرى فرجا يشفي السقام قريباً
 فغشيني من المم ما غشي فرعون من اليمّ فا نظرت اليّ
 نظرة الاّ اورثت قلبي الف حسرة فذهبت وذهب قلبي معها
 وكدت ما بي اقوم كي اودعها وصرت اردد في نفسي عندما
 غاب شخصها الجميل عني

يارائحاً بعد ما سباني * حسبك رب السما تعالى

طرفي في حسنهن وتذكرت قول من قال

يا دمية شرعها ضرب النواقيسـ

ما بين قرب مزارى والنوى قيسي

هذي ثناياك قد لاحت بوارقها

ام اشرفت في الدجى انوار برجيسـ

ام ثغر كأس الطلا يفتر عن حبيبـ

ام ذا ضياء نبي الله جرجيسـ

وعذرت من هام بحب الغواني واباح التمتع بروية الوجوه

الحسان وتمثلت بقول من قال

ايها العاشق المعذب صبيرا

فخطايا اخي الهوى مغنوره

زفرة في الهوى احط لذنب

من غزاة وحجة مبروره

وما رايت واحدة منهن الا ويدها مروحة تروح بها على

نفسها وتوجه نظارتها الى غيرها وتامل في ملابسها وكانت

الرجال ايضا تفعل ذلك وبينما نحن واذا بالفتاة التي كانت

معنا على السفرة قد برزت!

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

فتشاغلت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واخلاف

الصور لكن لما وقع بصري عليها ووجدتها موجهة نظارتها نحوي

المحاضرين كان يسأل هذه الاسئلة بعد ان رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها فلا يكتفي بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً ويسمع الجواب ثانياً

واما النساء فكانت الواحدة تكرر السؤال المرة بعد المرة فعبئت غاية العجب من ميل اهل هذه الملة اليّ وسؤالهم عني ثم سمعت ضرب ناقوس فقام الجميع فعلمت انه علامة على الرجوع فعدنا الى موضعنا وبعد برهة رفعت الستارة فرأيت الصورة تغيرت ولم أر اشجاراً ولا انهاراً ولا غيرها مما كان سابقاً بل رأيت منزلاً صغيراً من داخله حجرة فيها طرايزة وكراسٍ ورأيت الشاب مع البنت يتكلمان ويبيكان ويتناشدان الاشعار في الوجد والاشتياق ويتشاكيان الأمر الفراق والزفات متصاعدة والعبرات منحدرة والانفاس مترددة والعيون شاخصة وعلائم الوجد والوله بادية فعلمت انها حالة وداع ثم ارخيت الستارة فخرج الناس كالاول وهكذا الى ان انتهت اللعبة وكان ذلك في اربع ساعات ونصف قريباً من نصف الليل وفي اثناء الفصول كانت تتجه نحوي من جميع جهات التياتر ابصار المحاضرين من النساء والرجال والكثير كان يستعمل النظارة وتكرر ذلك منهم مرارا وكنت انا كذلك انظر اليهم بنظارتني فارى انهم بالقرب مني وارى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والراس والذراعين وارى نصف نهديها من الاعلى فلم اتمالك ان نظرت اليهن ونزهت

ولا حيلة في رد القضاء المبرم ثم انهم وجدوا مجلها طفلاً صغيراً ملفوفاً في بعض خرق ومعه ورقة مضمونها انها على ما هي عليه من الحب والشوق اليه لا تغيرها حوادث الزمن ولا يثنيتها ترادف المحن لكن اهله لشدة باسهم وغنائم وانتسابهم لاضول عريقة خوفوها بانواع العذاب ونسبوا اليها ما يشين عرضها بين الاهل والاصحاب وانها قدمته على نفسها وتركت له الدنيا بتعييمها حتى لا تكون سبباً لتنغيص معيسته وقله صفاء فكرته

هذا ملخص اللعبة فالبيت الصغير هو بيت الشابة واهلها والمرأة والدتها وهذه البنت التي تراها اختها وسترى الشاب العاشق وتنظر جميع هذه التقلبات مفصلة وفي اثناء الكلام روءي الغلام العاشق آتياً من وسط الاشجار يتكلم مع البنت واهلها وبعد قليل انفصلت الام وبناتها الصغيرة وبقي هو مع معشوقته يتكلمان ويتناشدان الاشعار على عادة العشاق ثم ارخيت ستارة حجبته جهة الملعب عن اعين المتفرجين فخرج اكثر الناس من محلاتهم قال برهان الدين وخرج الانكليزي وانا معه فدخلنا ديواناً كبيراً فوجدنا الناس مجنحين فيه من نساء ورجال منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك وكانت النساء مختلطة بالرجال البعض في مسامرة والبعض في تروض بالمشي فاحاط بنا اناس كثيرون فما من احد الا سال عني وعن بلدي وسبب هجبي ونحو ذلك ومن الغريب ان كثيراً من

يعيش في اسواء الاحوال وانه لو كان حبك له صحيحاً لم ترضي له
لانا لامحالة مصممون على حرمانه من ميراثنا واخراجه من دفتر
عائلتنا فانتهى بها الحال من اللوم والتعنيف الى ان قبلت منهم ما
قيل لها فاخذوا عليها الموائيق على ذلك حتى انها لما تقابلت مع
معشوقها على حسب عاداتها خاطبته مع التأسف وتكلف الاعراض
عنه بسبب ما خوفوها به ولم تملك نفسها من كثرة البكاء فتركته
وحضرايه فاخذه ولامه على ذلك وبعد محاورات بينهما انتهى
الامر بان وعد اباه بالتسلي عنها وانه متقاد لامره راض بما يرضى
به فخطب له بنت امير معروف كان الشاب يعرفها حق
المعرفة ومع كثرة مالها كان لا يميل اليها اصلاً لتجردها عن الجمال
لكنه وعد بالامثال فلما كان يوم الزفاف دخلت البنت الفقيرة
الدار مخفية في ملبس غيرها من دون ان يشعر بها احد وكان
هناك جمع عظيم من الناس فدخلت في غارهم واستترت في زاوية من
بستان الدار واقامت تنتظر الفرصة في اجزاء ما هي عازمة عليه
واذا بالشاب قد مرو بيده عروسه وخلفه اناس كثيرون فنهضت
من مكانها وقبضت بيده وقالت له ان كان ما فعله اهلك لي من
حق الاغنياء فحق على الفقراء ان تصنع بنفسها ما تخلص به من
سوء معاملتهم واخرجت مدية ضربت بها نفسها فوقعت في الارض
ميتة من وقتها فصاح الشاب وطلب الحكيم وهاج الحاضرون
واجتمع كل من بالمنزل من الاهل وغيرهم ولكن مضى الامر وتم.

صار يخال انه حقيقي كما تراه والذي يراد تمثيله الليلة في الملعب
 هو واقعة تعشق شاب من ذوي البيوتات الشهيرة لبنت فقيرة
 ليس لها حسب ولا نسب وقد اخذ جمالها بلبه فتعلق بها وتعلقت
 به وقد اراد ذلك الشاب التوجه للحرب فاتي اليها ليودعها وتحالفا
 على ان يبقى معها على الحب وتبقى هي معه عليه الى ان يعود فيتزوج
 بها واخذها بذلك على بعضها العهود والمواثيق ثم افترقا ولما انقضى
 زمن الحرب وعاد الشاب سالماً طلب اهله ان يزوجه فاني فاغلاظ
 عليه والده وساله عن اسباب تمنعه والح عليه فاخبره بجلي امره وما
 وقع بينه وبين معشوقته من الايمان والمواثيق فغضب عليه ابوه
 لخروجه عن طاعته وميله لواحدة من رعا الخلق غير مستقيمة
 الاحوال ونصحته فلم يقبل فبلغ امه عدم امثاله ثم توعداه على حرمانه
 من ميراثها ان لم يمتثل فلم يرتدع فعلا عليه حيلة وهي ان يتما
 البنت بعشقتها لغيره فلم يصدق ذلك واراد ان يعلم ذلك بنفسه
 فاحضر اهله البنت خفية وخوفوها بالتعذيب وهددوها واعلموها
 مقصدهم فصارت تضطرب وتبكي وتتحب واخبرتهم انها اتت منه
 بمولود فكيف تكون لها المعيشة بين اقرانها فتعهد لها ابوه بان
 يزوجهما بغيره ويهرها من عنده ويهب لولدها مبلغاً من ماله
 لتربيته به واكثروا عليها اللوم والتدح والذم ونسبوا اليها سبب
 خروج ولدهم عن طاعتهم وترك ما يجب عليه لنفسه ولاهله
 وانها هي السبب في سوء محظه وعدم استقامة حاله وانه بذلك

لنورها كثير من الاضواء موزعة في دوائر المحل وظرفه وسائر
مرافقه ووجد المحل المخصص لجلوس المتفرجين منقسماً الى عدة
ادوار يعلو بعضها بعضاً وبكل دور سلم يتوصل به الى ما هو اعلى
منه وبين كل دور والذي فوقه دائرة وباب الى الدرجة الاخرى
وفي الارض دكك منفصلة عن بعضها لسهولة المرور بينها وخلف
الدكك محال صغيرة مفتوحة بقدر عرضها والدور الاول عبارة
عن مدرج بثلاث درج يفصل كل واحد منها طرقة صغيرة
عرضها ثلثا ذراع للمرور يعلوه حاجز يشبه الدرابزين وفي هذا
الدور محال صغيرة كما في الدور الارضي المتقدم وجميع سطح
الدور الارضي مكسو من الداخل وبه كراسي للجلوس ورأى امام
الدكك الموجودة بالارض كراسي مرتفعة للجلوس رجال الموسيقى
وامامهم شموعاً مصفوفة على خط مستقيم ورأى بعد هذه الدكك
محالاً مستديراً وهو محل اللعب وفي كل من طرفيه محال صغيرة
بعضها فوق بعض ورأى اشجاراً بكثرة يرى من خلالها ما يشبه
الجبال والوهاد وفوق الجميع السماء والسحاب وكأن المطر ينظر
ورأى في زاوية من هذا المحل مكاناً شبيهاً ببيت صغير وفيه امرأة
وبنتان فسمعتهن يتكلمن مع بعضهن فظن ان المحل متصل بالفضاء
فتعجب من ذلك فقال له الانكليزي لا تظن ان هذا الذي تراه
فضاء وان هذا الذي يعلوه سماء ولا ان هذه الاشجار حقيقية وانما
كل ذلك رسم وتصوير اعطى حقه من الائتقان والاجادة حتى

قد ينعش العطشان بلة ريقه

ويغص بالماء الكثير ويشرق

ثم انه بعد تناول القهوة قام وركب مع الانكليزي في العربة وتوجها الى التياتر فوجدا على التذاكر ازدحاما كبيرا وخلقاً كثيراً من نساء ورجال فقال له الانكليزي لو كنت اعلم حصول هذا الازدحام لارسلت من ياخذ لنا التذاكر من قبل فالأوفق لنا الان ان نقف خلف الناس في اخر الصف فوقنا وصارا يتقدمان شيئاً فشيئاً خلف السابقين الى ان وصلا الى الطاقة التي تفرق منها التذاكر فاخذنا تذكريتين من بعد دفع ثمنهما ثم سارا الى باب التياتر فاظهراهما للحاجب ودخلا فوصلا الى فسحة مزينة في جميع جهاتها وبها جماعة يودع الناس عندهم ما يستغنون عنه داخل المحل من عصي وملابس زائدة كالتى تعرف بالساكو وكذلك فعل الانكليزي وبرهان الدين واخذنا ورقة عليها علامة سنداً على ما سلماهم اياه كما هي العادة ثم صعدا من سلم الى اول دور فوجدا هناك نساء تدل على المحال بحسب الدرجات فاجلستهما احدهن في بعض مدرجات الدرجة الاولى وقد شغل برهان الدين منظر المحل لهيجنه ورونته وحسن زخرفته فصار يسرح نظره الى جميع جهاته ويتامل شكله وزينته فوجده في غاية من الطرافة والاعتنان ووجد في سطح قبته صوراً مختلفة ورسوماً متنوعة وقد علق في وسط القبة نجفة (ثريا) عظيمة ملأت المحل انواراً وصيرت ليله نهراً وانضم

لكن في الاشارة ما يعني عن الكلم فكان بين قلميها مسامرات خفية
 نمت بها بين المحاضرين وجنات الحدود ونطقت بها من قرائن
 المحال الشهود وكان برهان الدين قد بلغ حد التكلم بالانكليزي
 في الجملة فكان يتكلم مع الخواجا تارة بالعربية وتارة باللسان
 الانكليزي ولما لم تعلم الفتاة هاتين اللغتين كانت تتكلم مع الخواجا
 باللغة الفرنسية فكان غالب كلامها السؤال عن برهان الدين
 وبلده واهله وعمره وما اشبه ذلك وكان برهان الدين يرى ذلك
 ويلحظه ويتمنى معرفة لغتها ليتكلم معها لانها ملأت فواده وملكت
 قياده وفهم الانكليزي ذلك لكنه اخفاه لئلا يخجلها وانما كان تارة
 يترجم له ما تقول وتارة يترجم لها ما يقول وكان برهان الدين
 متوجهاً بكليته لحسن صفاتها وشائلها ويتمنى ان لا يفارقها لكونه
 انقضى وقت الطعام فقامت وقام فكانت عند نهوضها تعتدل
 وتميل كانها المعنية بما قيل

وتيس بين مزعفر ومعصر * ومعبر وممسك ومصنل
 هيفاء ان قال الشباب لها انهضي * قالت روادفها اقعدى وتملي
 فما زال يتبعها بصره حتى غابت عن عينه وفي قلبه من فراقها
 حسرة لكنه تحايل على اخفاء هذا الامر واقضى بقول من وجد
 سبيلا الى الصبر

ولقد قنعت من اللقاء بساعة

اذ لم يكن لي للدوام تطرق

آفة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لا سيما بؤركم الصايف
 الأبريز وجوه لفظكم النفيس العزيز فلا تقترح على الدهر غير
 صحتكم وقطع حاضر الوقت في صحتكم ولا نعد ايامنا معكم الا مفتاح
 السرور ومطالع السعود والحبور . فشكره الانكليزي على ثنائه
 واثني على حسن وفائه ثم قام واخرج علبة لطيفة وقال له اني
 قد اعددت لك هذه الهدية من وقت خروجنا من القاهرة فتقبلها
 مني تزدني سروراً لقبيلها منه برهان الدين شاكرًا مسروراً وفتح
 العلبة فاذا فيها ساعة ظريفة لها ظروف وعلاقة من
 الذهب فوضع برهان الدين الساعة في جيبه واظهر علاقتهما
 الذهبية على العادة فكملت خيلته وتمت زيتته ثم اخذه الانكليزي
 من يده ودخل به محل الطعام واجلسه بازائه وقد سبق لبرهان
 الدين تناول الطعام على السفرة العامة مراراً فكان عارفاً بجميع
 الرسوم المعتادة فاكل بالشوكة والسكينة مع غاية اللطافة والكمال
 بسهولة وكان الى جانبه فتاة افرنكية بارعة الجمال قد كساها المحسن
 والدلال ما تفتن به الرجال تشفي السقيم بكلامها الرخيم فاترة
 الطرف لينة العطف كحيلة العين حمراء الوجنتين
 بيضاء فيها اذا استقبلتها دحج * كأنها فضة قد شابها ذهب
 قال اليها برهان الدين واخذت بلبه واستولت على مجامع
 قلبه فكان نظره اليها يتردد ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد
 وكذلك هي كانت تسارق برهان الدين النظر فها وان لم يكلمها

وإذا رأيت من صاحبك امرأً تكروهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع
 حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وأبقه وإبراء من
 عمله قال تعالى (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يؤمر
 بقطعهم وإنما امر بالبراءة من عملهم وهكذا صار يعظه بامثال هذه الكلم
 النافعة وينشر عليه لأبي المحكم حتى حضر الخادم يدعوها الى
 الطعام فاعنذر الشيخ بانحراف المزاج وطلب لنفسه بعض المرق
 والزيتون والمرببات وأمر برهان الدين ان يذهب الى الانكليزي
 ليتوجه معه الى السفرة ثم الى التياتر ففعل فلما رآه الانكليزي
 اعجبه شكله وهيئته ورآه قد ازداد لطفًا وظرفًا وبهجةً وحسنًا
 وكان برهان الدين جميل الصورة حسن المنظر متناسب الاعضاء
 حلو الشمائل معتدل القد اسيل الخد ادعج العين قمي اللون
 مقرون الحاجبين قد اظهر تورده خديه بياض العمامة وبرز حسن
 شمائله اعتدال القامة وفرح به الانكليزي وقال هلم بنا يا بني
 وأحلفني اليوم محل والدك وسلني عن كل ما كنت تسأله عنه
 ولا تكتم عني امرأً تريده وكن معي كما تكون معه فان لم تفعل
 كان نقصاً في حبك وخللاً في ادبك فقال سمعاً وطاعة وشكرًا
 لله فقد اوليتنا مننًا لا نخصيها فشكرنا لك غير منقطع وحبنا لك
 في قلوبنا منطبع كيف لا وقد اصبحتم في وجه الزمان خدًا
 وامسيتم في خده وردًا فكتمت حسنة من حسنات دهرنا لا نحكي
 بمرور الايام من صدرنا وقد طلعت لنا بكم طواع السرور وكانت

له يا بني قد حسنت هيئتك وثيابك فحسن ايضاً شمائلك
 واذابك واذا سرت مع صاحبنا هذا فمازجه وسأيره واستجلب حبه
 واجذب قلبه فاناً في دار غربة ليس لنا من اهلها غيره فضلاً عن
 كونه قد ابدى لنا من المجاملة وحسن المعاملة ما يستوجب ان
 نجاريه فيه وانت تعلم انك تمضي معه الى محل لم يسبق لك
 بمثله عادة ولا باحواله معرفة فانظر لما يعمل وافعل كما يفعل
 تسلم من الوقوع فيما يوجب الانتقاد عليك وتوجه اللوم اليك
 واستعمل الوقار والسكينة واذا نظرت الى شيء فانظر اليه بشوذة
 وكمال واذا سألت عن امر شيء فاسأل عنه بلطف وادب وخالق
 الناس بخلق حسن وايدل وسعك في ارضاء من صحبتك لكن بما
 لا يسخط ربك وتجاوز عن الهفوة واقل العثرة واقبل المعذرة
 بحبك اصحابك ويكثر احبابك

فقد سئل بعضهم اي اخوانك احب اليك قال الذي يسد
 خلتي ويغفر زلتي ويقل عثرتي واعلم ان من لا يواخي الامن لا عيب
 فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بائثاره على نفسه
 دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عنه وكثر تبعه
 اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مراراً على الاذى

ظمت اوي الناس تصفو مشاره

فلا تواخذني ان سالتك عما يلزم لذلك وما يقتضيه الحال والمحل فقال
لا يخفى عليك ان التياتر محل جامع فيطلب فيه النظافة والتجمل
كما في سائر المجامع وعادة رجال الافرنج في الملبس الانفاق على
هيئة واحدة واما نسائهم فملاسنهن قد تختلف في اللون وان
كانت في الكيفية متحدة وسترى ذلك ثم انفصلا وصار برهان
الدين يتردد فيما يلبس ولحظ والده منه ذلك فقال له فيما تفكر
قال قد ذكر الانكليزي ان من عادة الافرنج التجمل في الملابس
فانا افتكر فيما البسه فقال له اختر ما في صندوقك احسن ملبس
لتظهر في هيئتك بزي اهل بلدك وملتك . فذلك بك البق
وفيه لك زيادة رونق وهو يميزك من بينهم ويدل عليك ويجذب
اعينهم وقلوبهم اليك وانما يلزمك ان تجعل الادب لحنك طرزا
والوقار لهيئتك حصنا وحرزا فتكسى حلة فوق حلة وتحترمك
الاصاغر والاجلة واحذر من الاعجاب بنفسك والتغالي في لبسك
فاحسن الملابس واعظمها التنظيف الطاهر الزكي الرائحة
وعندك اربع بدل جديدة كلها لائقة فاختر منها ما تحب فقام
ودخل حجرتة واخرج صرة فتحها فاذا فيها جبة نينه وقفطان
شاهي مقلم وزبون ابيض وقميص ولباس وعمامة بيضاء معلمة
بطراز اصفر وطربوش مغربي وحزام حرير طرابلس محبوك فلبسها
واصلح عمامته وارخى لها عذبة حجازية ونظر في المرأة ثم توجه الى
والده فلما نظره في هذه الهيئة المحسنة سر به وشكر الله سبحانه وقال

اذ زاد بعدها عن حد النظر فعند ذلك تستعمل هذه الآلات
 المعروفة بالنظارات تقرب البعيد وتساعد النظر وقد اتيت لكما
 بهاتين النظارتين على حسب قوة بصر كل انسان فشكراه على
 ذلك وفرح برهان الدين بالنظارة فرحاً شديداً وصار ينظر بها
 من شبابيك المحل تارة الى المدينة فيرى البيوت والمحارات والمارين
 في الطرقات كأنهم تحت قدميه وتارة الى المينا والمراكب فيرى
 الملاحين والوان ملابسهم وما يتقلونه من البضاعة كأنهم بين
 يديه فيتعجب ويستغرب لانه كان لا يرى ذلك بغير تلك الآلة
 ولو امكن النظر وكان اذا نظر بها الى البحر يلوح له فيه صنادل
 وزوارق للصيادين يرى فيها ما اصطادوه من السمك فاذا نظر
 بدونها لا يرى من ذلك شيئاً فكانت عنده اجل شيء اهدي له
 واحب شي اليه وصار يقلبها ويتامل في تركيبها ويحاول الوقوف
 على كيفيةها فعلم الانكليزي منه ذلك فقال اراك متحيراً في شأنها
 قال نعم اريد ان اعلم حقيقتها فقال يكفى في هذه الليلة بمعرفة
 فائدة استعمالها في التياتر فننظر بها الى صورة الالهاب فتحققها
 وتنظر الى ملابس اللاعبين وان شئت نظرت بها الى المتفرجين
 وفي غد ان شاء الله اصف لك كيفيةها وباقى فوائدها فقال
 برهان الدين ومتى يكون الذهاب قال بعد ساعتين من غروب
 الشمس حيث تكون الساعة ثمانية بالاعتبار الافرنكي . فقال
 برهان الدين ان بكل قوم عادة في مجالسهم ورسماً في ملابسهم

او كانت منكرة او مجهولة بالكلية وبعذر ان كان سلطان الوهم متحكماً عليهم تتخلص من ربقته رفاهم وينكشف ستر الجهل عن بصائرهم فيرتفع حجاب الغفلة عن ابصارهم فينظرون في حوادث الايام الخالية والام الماضية فتبدو لهم اسباب السعادة والشقاوة والتقدم والتأخر والعز والذل والحراب والعمارة ويقفون على اصل ذلك وكيفيته وحقيقته فيأخذون ما ينفع ويتركون ما يضر ويسعون سعي من فازوا في ايامهم بالخير والسعادة ويقفون اثرهم فيحظون بالخيرات والمبرات ويفوزون بالنعم والمسرات

فكان التيار قناة ممتدة بين افراد الامة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الاعلى الى الادنى ومن العلماء والجواص الى الجهال والعوام فتزداد العلائق التانسية وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتعم الفائدة فاذا كان التيار بهذه المثابة فهو احسن المتبذعات البشرية واجملها واعظمها فائدة واكملها

وقد اطلنا الكلام في هذا المعرض حتى كدنا نخرج فيه عن الغرض وفي المثل الحديث شجون والكلام يجرب بعضه بعضاً وكنت ظننت اننا تتوجه جميعاً الى التيار فاستحضرت لكما هديتين يتفجع بهما فيه احداها سيدنا الاستاذ والثانية لبرهان الدين ثم انه اخرج من صندوقه علتين اعطى احداها للشيخ علم الدين والثانية لبرهان الدين وقال انه يحتاج الى مساعدة النظر في تحقيق الاشياء البعيدة خصوصاً في التيارات لانها تكون غير تامة الانكشاف

نصبر حتى يخلصنا الله منها ويعوضنا الخير والراحة عنها ومتى
 نظرنا الى الفقراء والمساكين وتقلبهم في الفقر والقلة والجوع والذلة
 نجذب قلوبنا اليهم وتمتليء بالرافة والشفقة عليهم وتأخذنا الرحمة
 والرفقة لاقبل مشقة وشدة تحصل لواحد من خلق الله تعالى
 فيمكن من طباعتنا الرفق بالناس ومواساة الفقراء ومساعدة الضعفاء
 واعانة المضطر واغاثة الملهوف وبذل البر والمعروف والرغبة في
 العدل والانصاف وليس باقل ما ذكرناه تأثير التياتر في توسيع دائرة
 المعلومات البشرية والاعمال الفكرية فان اصحاب العقول الفاتحة
 والاذهان الرائقة يتسابقون في مضماره ويتبارزون في ميدانه
 يتفاخرون بتأخر افكارهم ويتظاهرون بمحاسن اثارهم من محاسن
 الثبر ولطائف الشعر فتدب فيهم نار الغيرة والحمية فتذكو القرائح
 وتوقد الاذهان وتسيل الخواطر وتوسع دائرة الاطلاع غاية
 الاتساع فتحيط بجميع الاعمال البشرية والاحوال السرية والجهرية
 فلا تذر عظيمة ولا حقيرة ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة حتى تنزها
 منزلها وتحلها محلها وتفرغها في قلبها وتكسوها من الثياب ما لاق
 بها وكل ذلك من بواعث الاجتهاد في طلب العلم وكشف
 الحقائق واظهار الخفايا وازالة اللبس وابرار الشيء من عالم الخيال
 الى عالم المحس حتى يدركه قليل الادراك وكثيره وناقص التأمل
 وكامله فتنتفع اذهان الناس وتنفع بصائرهم وتستنير ضمائرهم ويرون
 في حيز العيان والمشاهدة اموراً كانت في عالم الوهم والخيال

وتحرق حتى يصبحوا بسوء فعلهم بين الناس اضحوكه ومهزاة
وسخرية وربما انتهى بهم ما يلتونونه من الخزي والفضيحة والذل
والمهانة الى ان يرتدعوا ويتوبوا لله ويرجعوا فتلخص الامة من
شرهم وسوء كيدهم ومكرهم

وكما ان التيار يشتغل باحوال الخلق وصفاتهم وسرائرهم
ونياتهم يشتغل ايضا بتبثيل سعد الطالع ونحسه وحسن البخت
وسوءه ونعيم العيش وبؤسه فيرشدنا للصبر والتجلد على ما يكون
من سوء البخت وقلة الحظ وللشكر على مقابله من حسن البخت
وسعادة الطالع وانت تعلم ان كل ما يقع فيه الانسان اما ان
يكون مسببا عن تدبيره وعمله او لا يكون مسببا عن شيء
من ذلك فالاول ينسب اليه ويذم او يحمده عليه والثاني هو
الذي ينسب في متعارف العامة للبخت والطالع والدهر وهذا
ليس له فيه شيء فلا يتجه عليه فيه ذم ولا مدح ولا شكر ولا لوم
فيلزمنا الاستعداد لتلقي ضربات البخت ونكبات الدهر لتجد في
انفسنا ما يساعدنا على التجلد لها والصبر عليها من دون ضجر
ولا جزع والتيار يصور لنا انواع الاحوال الدهرية والاحطار
الملازمة للجمعية البشرية فنعتمد عليها ونستعد لهجومها وتدرع لها
بدروع التجلد حتى نكون في حصن من الصبر والثبات يقينا من
سطواتها ولا نكون عرضة للفرع والروع والجزع بل تقويننا
التجربة والدربة وتحملنا على ان لا نكل ولا نمل ولا نضجر بل

الاستقبال

وعلى كل حال فله تأثير عظيم في عقول الشبان من الرجال والنساء فيكشف لهم عن حقائق الامور فيتمخرون من الوقوع في شباك الغي ومهاوي الغرور واقل فضائله الكشف عن العيوب والمساوي وتمييزها من الفضائل والمحاسن وهو بتخييره للاولى وتزييفها وتعظيمه للثانية وتشريفها بجهلنا لا بحالة على توجيه انظارنا وازدياد ميلنا للحسن المدوح واعراضنا وازدياد نفرتنا عن السيء المذموم فتتسع دائرة معلوماتنا وتستقيم طرق فهمنا وترسخ الامور في نفوسنا بصورها الحقيقية وهبئتها الصحيحة فتتميز عن اضدادها ولا تلتبس بغيرها فتمت وقعت تحت حواسنا عرفناها وعرفنا اصحابها فناخذ ما يوافق لحالنا بالنظر لتحصيل المنافع ودفع المضار وتتباعد عن الاشقياء والمفسدين او ندارهم باللسان على قدر الامكان ونتقرب من الافاضل والصالحين بحسن المعاملة والود والمجاملة ونعرف ايضاً المنافقين والكذابين والناميين والخائنين والمخادعين وطرق حيلهم وكيفيات خداعهم ومكرهم ومداهنتهم فلا يغرنا حالهم وفعالهم ولا يروج علينا غشهم وحيلهم بل نضحك من افعالهم ولا نقع في شرك احتيالهم فان التياتر يرسم لنا في وجوههم وعلى سيماهم صورة ضمائرهم وهيئة سرائرهم فنضحك من خداعهم ونهزأ بمكرهم ونبطل بقوة خيال سحرهم ونسلط عليهم وعلى شياطينهم نور العلم والمعرفة ونار الانتقاد فتسود وجوههم

الغرض معيناً لها على تكميل الجمعية البشرية بهذه الصورة أيضاً
كما هو مساعد لها بغير ذلك

وللتياتر غير ما ذكر مزية كبرى قد اخص بها دون غيره
وهو انه مدرسة علمية لجميع الاحوال السوية ومصباح يستضاء
به في الاحوال الباطنة ومفتاح يفتح به جميع الخفايا الكامنة حتى
تظهر خطرات السرائر واوهام الظنون واحاديث النفوس فتبدو
من خلال ستورها ويطلع الناس على خفيها ومستورها مفرغة
في قوالها موضوعة في مواضعها منزلة منازلها

فان لم يحصل منه تهذيب جميع المحاضرين فلا اقل من
كونه في كل مرة يؤثر في بعض افراد منهم فمع التدرج والاستمرار
في الازمان المتوالية تهذب اخلاق الجميع او الاغلب وتحسن
احوالهم فان قيل انا نرى كثيراً من يحضر التياتر لا تتجه افكارهم
الى تحسين امورهم وتهذيب نفوسهم بل تشتغل حواسهم بما يرونه
من المناظر الظاهرة من غير ان تتأثر نفوسهم باثر يوجب لهم ان
يرجعوا عن فساد نياتهم ومساوي افعالهم بل ربما كان ذلك
موجباً لازديادهم في الشر واقتباسهم بعض وسائله للتمكن من
الفساد واضرار العباد

قلنا ان كان ذلك فانما يكون للبعض لا للجميع ومن لم
يتأثر من صورة فلا بد ان يتأثر من غيرها ومن لم يرجع من مرة
فربما يرجع من مرتين ومن لم يهتدي في الحال لا بد ان يهتدي في

ثم لا شك في ان مصائب الامم ليست كلها حاصلة من
 المساوي والكبائر فقط بل كثير منها ينشأ عن خلل العقل ونقص
 الادراك وسوء التدبير وتعلق النفس بما لا ينفع او بما يضر ومن
 تأمل في حال كل امة وما حل بها من المحوادث سابقها ولاحقها
 ونظر في اسبابها وحقائقها علم ان معظم الاسباب التي اودت بها
 وادت الى خرابها سوء التدبير ومتابعة هوى النفس والغرور
 الحاصل عن الجهل

ولذلك قل ان نجد في كل عشر حوادث يضحك منها
 حادثة يهيننا اصلها او تهولنا صورتها ومن يقارن بين عدد
 اصحاب الكبائر والجرائم من امة من الامم وبين عدد من لحقهم
 الخرف او الذهول او الجنون منها كان كمن يقارن بين حبة
 رمل صغيرة وصخرة كبيرة ومن الغريب انك ترى الناس كلما
 زادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدد اهل الطيش والسفه
 والجنون فلا ينفع في مداواة دائهم واستئصال شافة اهوائهم
 وردعهم عن شرورهم وتجريدهم من ثياب غرورهم الا بالاسهم ثياب
 الهزل وتأديتهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الالهانة ليفيقوا
 من غفلتهم ويهبوا من رقدتهم ويتخلص الخلق من مضرتهم اذ لا
 عقوبة على الانسان اشد من عرضه في ميدان الهزل والسخرية
 وجعله للناس اضحوكه ومثلا وعبرة ولما كان حكم القوانين الدينية
 والديوية لا يدخل هذا المدخل كان التياتر بسبب تأديته لهذا

يليق بها من ثياب المحسن والكرامة والنعمة او التمجع والمهانة والنعمة حتى يرى الرائي حالة العظماء المتكبرين والاشقياء المتخبرين والكبراء المشهورين كيف تغلبت بهم حادثات الليالي وتصرفت بهم صرف الاليام وكيف طحتهم رحى الدهر ودارت عليهم دوائر القهر وما الذي اورثهم مساويء افعالهم ومفاسد احوالهم وكيف استنزلتهم عن درجاتهم الشامخة وحطتهم عن رفعتهم الباذخة وجردتهم من قدرتهم القاهرة فاصبحوا بعد قوتهم مستضعفين وبعد قهرهم مهورين ويرى اصحاب الهمم العالية والافكار الشريفة والافعال المحسنة والاحوال المستقيمة كيف توصلوا الى طرق المجد وارتقوا درج العز وركبوا صهوة الشرف وتسموا ذروة الفخر

لاجرم ان كل ذلك يوسع دائرة العقل ويقوي ملكة الفهم ويوجه النفس الى طرق الخير ثم لا يخفى ان كثيراً من امور الناس واحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيئات الناس ويخلو عن المكافأة كثير من حسناتهم ومن شأن النيات ان يستخوذ على كل ذلك فيدخله في بابه وينظمه في سلك العابه ويكشف عن قبح الشر وشوئه لتتكف عنه نفوس اربابه ويظهر فضل الخير وينوه به لتقوى فيه رغبة طلابه فهو بهذه الحالة اعظم باعث يبعث على الخير والصلاح والرشد والفلاح ويحث على التحلي من ذميم الافعال والتخلي بصفات الكمال

الذين كانوا آفة أيامهم وداهية أزمانهم ببغيم وعدوانهم وظلمهم
 وطغيانهم بل ينظّمهم في سلكه ويجرهم في قبضة ملكه ويجرهم في
 ميدانه تحت نظر الناظرين من اهل العصر الحاضرين ليروا
 بابصارهم كيف تزول عظيمة العطاء الطاغين وكيف يفعل الله
 جل جلاله بالمجاربة الباغين الذين ضلوا واضلوا غيرهم عن
 مسالك الرشد والهدى ووقعوا واقعوا من تبعهم في مهالك الردى
 فيأخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة
 والعبرة على قدر استعداده وقابليته فنضعف وتسكن عند كثير من
 الناس شهوة الشر وتقوى وتتحرك رغبة الخير والبر

فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى
 فعل قاتل النفس عند القتل واي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك
 وجلد لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول على
 بعض الاغراض والمفاسد واي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل
 كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله واي عقل لا يستفزه
 حب الفضل واهله وكل متمسك بجملة عند مشاهدة تجرد الافاضل
 من الرجال من حياتهم ومالم وعيالهم لتخليص وطنهم واهله من
 سطوة الاعداء المفسدين وقهر المجاربة المتمردين

كل هذه الاحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس
 وليس لها غير التياتر ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها فانه هو
 الذي يضعها موضعها وينزلها منزلها ويوفئها حقها ويكسوها ما

الناس وفعل في عقولهم يعارض به قوة القوانين الموضوعية والاحكام
المشروعة ولذلك ترى كثيراً من اصحاب الثروة والمال من اهل
البغي والزيف يستميلون قلوب القضاة والحكام الى ما يخالف
مقتضيات الشرع والقانون فيردعهم التياتر بروادعه ويقرعهم بقوارعه
فانه يضع يده على المتمردين واهل الفسق والفجور من الخلق
ويكلمهم في قيوده ويعرضهم على الاعين في ميدان حكمة الضنك
ويفضحهم على رؤوس الاشهاد ويجعلهم عبرة للمعتبرين وتبصرة
للمتبصرين ثم لا يقتصر حكمه على الوقت الحاضر بل يسري ايضاً
الى الزمن الغابر فيجول في تواريخ الامم الماضية ويستخرج منهم من
ذكروا بفعل قبيح او حسن فيستحوذ عليهم ويكلمهم لرجل من رجاله
يكسوهم ملابسهم ويبرزهم في صورهم ويهيمهم بهيئاتهم التي كانوا
عليها واسمائهم التي كانوا يذكرون بها حتى كانهم نشروا من
قبورهم قبل اوان نشورهم فيعرضهم كذلك على اعين الناس مع
ما كانوا عليه في زمنهم من فعل خير مدوح او عمل شر مذموم
ومكرمة تبقى اثارها وافتخارها او معرة يخلد عارها وشنارها فيكون
ذلك من اعظم البواعث على تربية النفس وتاديبها وحسن
تهذيبها

لا سيما ان التياتر لا يقتصر على امر من الامور ونوع من
الافعال وطائفة مخصوصة من الناس بل يستحوذ على جميع
الامور وكل اجناس الناس فلا يخرج من قبضته الجبابرة المتمردون

فهذا من جملة خدمة الشياطين للديانة وتأبيده لها وإعاقته على مقاصدها

فقال الشيخ من اين لم صورة الجنة والنار والثواب والعقاب ولم يروا شيئاً من ذلك وكيف يصورون ما لم يروه وكيف يصدقهم الناس

قال الانكليزي انما يصورون ذلك على وجه التخيل والتفرض وعلى حسب ما ورد في الكتب المقدسة وسائر كتب الديانة من الاوصاف تقريباً للاذهان واخراجاً للشيء المعلوم من صورته الذهنية الى الصورة الوجودية

فقال الشيخ نحن لا حاجة لنا بهذه الصور فان ما عندنا من اليقين باحوال الآخرة يغنينا عن هذه الصور والتماثيل خصوصاً ونحن نعلم ان جهد الادمي ووسعه لا يمكن ان يصل الى محاكاة ما يكون في اليوم الآخر من الاحوال والاهوال بل لا يمكن ان يصل الى ما يصل اليه الوصف الوارد فيه فهل يبلغ التصوير والتثيل مبلغ قوله تعالى في صفة النار انها ترمي بشرر كالقصر كانه جمالات صفرويل يومئذ للمكذبين . فقال الانكليزي ليس كل الناس في ذلك سواء

وعلى الجملة والتفصيل فللشياطين في تأديب النفوس ومهذيب الاخلاق وتربية الامة مدخل عظيم وانت تعلم ان سلطان الدرهم والدينار له قوة عظيمة عند

للعيان ويخرجها من قوة التخيل الى حيز المحسوس المشاهد فيمثل
 للرأي النار مثلاً في صورة هائلة وهيئة مزججة ولهب ساطع مرتفع
 وشرر كبير منتشر الى غير ذلك من احوالها وسلاسلها واغلالها
 وافاعيها وحشراتهما وعظائم آفاتهما وهو يراها ويرى المجرمين فيها
 تلغهم نارها وتنشم افاعيها ويقاسون انواع العذاب الاليم والعقاب
 الشديد مما ترق لرويته الاكباد القاسية وتضطرب لهول منظره
 القلوب الساكنة فما ظنك بمن قرأ اوصاف تلك الاحوال في
 كتب الديانة وتخيلها في ذهنه ثم رآها في التياتر على تلك الحالة
 المنكرة والمنظر الفظيع وهو يعلم ان التي تكون في الاخرة اكبر
 واخطر وادهي وامر لما يعرفه من انه لا يمكن مضاهاة افعال الحق
 جل جلاله بافعال الخلق وتمثيلها للعين الا بوجه التقريب وعلى
 قدر الامكان فاذا انتقل ذهنه من تلك الصورة المشاهدة له الى
 تلك الهيئة المطبوعة في مخيلته وتصورها في نفسه بما لها من الهول
 العظيم والخطب الجسم افلا يرق قلبه ويقشع جلدته ويتمكن
 خوف العذاب منه بما يحمله على ان يتباعد عن موجباته واسبابه
 من الظلم والعدوان والفجور والشور وكذلك اذا رأى تمثال
 الجنة بما يكون فيها من الانهار والاشجار والازهار والثمار والقصور
 والديار وسائر المستلذات والمشتهيات افلا تحرك رغبته وتميل
 نفسه اليها بما يحمله على ما يقربه لهذا النعيم من فعل الخير وانواع
 البر

عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرّة يتعسروا يتعذر فاخثار وان يستخوذوا
على تلك الشهوات والمستلذات ويتخذوها كآلات تستعمل فيما يراد
من الامور النافعة المحمودة في الشرع والعقل ويفرغوها في قالب
تصير به من اسباب الفوز والسعادة فلم يجدوا احسن من التياتر
للوصول الى هذا المقصد فانه مع موافقته للاغراض والذات
والشهوآت هيئ النفس للتخلي بحسن الثمائل وصفات الكمال
والاستكثار منها والتمكن فيها والتباعد عن ذميم الاخلاق وردية
الطباع فهو بهذه الحالة كالخادم للشرعية التي تامر بالخير وتنهى
عن الشر

ومن المعلوم ان اقوى شي تمسك به الامة وتقوم عليه هو امر
دينها اذ بدونها لا تنجح القوانين البشرية ولا تظهر اثارها ونتائجها
فاذا كان التياتر خادماً للشرعية كما ذكرناه مرغباً فيما تدعو اليه
وتامر به منفراً عما تنهى عنه كان بذلك من اعظم الملاحم بل من
اهم الامور واولاها بالاعناء والرعاية

وانت تعلم ان كثيراً من الناس انما يمثلون امر الشرعية
ويتبعون احكامها خوفاً من الآخرة وما يكون فيها من الاهوال
والامور المخيفة والسؤال والحساب والنار والعذاب فهذه الاهوال
والمخاوف متصورة في اذهانهم منطبعة في مخيلاتهم وان لم يروها
بالفعل ومن اعظم ما يقوي ذلك في اذهانهم ويمكن تأثيره من
قلوبهم هذا التياتر لانه يصور جميع تلك الصور للعين ويجلوها

وتروج المخاطر بتسريح الناظر في المرئي المختلفة والمناظر المحسنة اللطيفة والأشكال المتنوعة والأوضاع المتغيرة فان الانسان يميل بطبعه الى المستغرب والمستحدث من الاشياء والمستطرف المستظرف منها ومعلوم ان الانسان اذا طال اشتغاله بالتفكر في الامور العقلية وانها كما في الاعمال الشاقة البدنية فترت قوته وضعفت همته وكلت فكرته فيحتاج ان يتخلى عن ذلك في بعض اوقاته ريثما يستريح ويحجم نشاطه وتراجع اليه قوته فاذا طال في النهار كده وجده وجهده وانها كما في الاعمال البدنية والاشغال الذهنية لم يات عليه الليل الا وقد كل بدنه وملت نفسه وفتر ذهنه فاذا مضى الى التياتر واشتغل بصره وفكره بما يراه وما يسمعه به تحول ذهنه عما كان فيه واستراح ما يعاينه وتسلي بما يتقلب عليه من الاشكال المتنوعة والأوضاع المختلفة وطابت نفسه بما يراه من الصور المحسنة والمناظر الجميلة فاذا عاد في غده الى اعماله الذهنية والبدنية عاد بنشاط جديد ونفس مقبلة وهمة متوفرة

ثم هو في اثناء تسريح طرفه فيما يروقه من تلك المناظر ونفسه في مستلذاتها من تلك الهيات والكيفيات يستفيد كثيراً من الفوائد العلمية والاخلاق المرضية فيكون ما في التياتر من الاحوال لذة في الحال وثمره في الاستقبال وهذا هو السر الذي جعل عقلاء الملوك والحكام ونبلائهم على اتخاذ التياتر فانهم رأوا ان النفوس بالطبع مائلة الى اللذات منجذبة لجانب الشهوات ورأوا ان صدها

مستحبة ولا يفعل ولا يقال ما ينحل بالادب والكمال وإن الجأت
الضرورة في بعض العبارات الى وصف حادثة من الحوادث
السرية تخاليل المؤلف او اللاعب في القائها والتعبير عنها بكناية
لطيفة لا يشعر بها إلا الحاذق المتيقظ العازف بما للحادثة من

الاحوال

واما الاغاني عندنا فهي في الاغلب عبارة عن واقعة مخصوصة
وحادثة معلومة يراد تذكراها ويستجد تكرارها وقد يكون المراد بها
تهيج سورة الحماس وتحزب الناس الى غير ذلك من الاحوال
وقد تكون عبارة عن غراميات واغزال وربما لا يقصد من السماع
في بعض الاحيان غير جودة الاداء وحسن الالقاء وموافقة قواعد
الموسيقى وممازجة ما يكون موجوداً من آلات الطرب من غير
نظر الى الالفاظ والمعاني فقد يكون الغناء بغير لغة السامع وهو
يطرب منه لمكان الصنعة وحسن الالقاء كما يطرب من تغريد
الطيور وآلات الطرب وعلى كل حال فالاغاني في التياتر انما
تكون بحسبما تتظم في سلكه من محاكاة واقعة او تصوير حادثة او
غير ذلك وعلى الجملة فليس التياتر عندنا من قبيل ما ذكرت من
العاب اولاد رابية ونحوها بل هو كما ذكرناه عبارة عن امثال
علمية على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية وهو بهذه
الكيفية ما يساعد على تقدم الامة وتمدينها ويوسع دائرة فجزها وثرورها
وفوائده كبيرة ومزاياه كثيرة منها اجتلاب الانس وتنشيط النفس

عن معاني الكلام حتى اننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغني ولا السامع بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها وترى المغني يعيد الكلمة الواحدة مثل ياليل يا عين مرات كثيرة يكررها من تلقاء نفسه او باستعادة من السامع لا لاجل لفظها ولا لمعناها ولكن استجابة للحن واستحساناً للنغمة وما تتأسف عليه انا نرى فيما نقل الينا من اغاني القدماء في كتب الادب كلمات تحث على الكرم والفتوة والنخوة ولا نرى الاغاني عندنا في هذه الاعصار الا مقصورة على العشق واللذة والشهوة فلا نرى لها اثرًا يحمي في التربية وتهذيب الاخلاق بل ربما كانت في بعض الاحوال ما يضر بذلك كما قلناه في لعب اولاد راييه والذي اظنه بحسبنا سمعته منك ان ما وصفته من التياتر ليس بهذه المثابة

فقال الانكليزي لا مناسبة بين الامرين فان الجماعة المعروفين عندكم باولاد راييه انما هم اشخاص مجردون من حسن الخصال والعلم والكمال مجنمون من طعام الخلق وعوام الناس لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً بخلاف طائفة التياتر عندنا فاكثرتهم ممن تعلم وتادب وترني وتهذب وحصل على فنون كثيرة ومن آداب التياتر ان لا يقال في مجامعهم الا ما يؤخذ من تأليفات متفق على موافقتها لتهذيب الاخلاق والطباع والعادات والتمييز بين الحسن منها والقبيح والفاسد والصحيح للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها وكل ذلك بانفاذ عذبة وعبارات رقيقة

عنها فهذه غاية ما يلتمس لهم من المزية والفائدة الا انه قليل نادر
 كالمعدوم وغالب احوالهم على ما سمعته عنهم ورايته في بعض
 الاحيان منهم مبني على الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس
 وتجه الطباع من الافعال الفظيعة والاقوال الشنيعة التي ينفر
 منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء
 والحشمة وقد يطلع على هذه الاقوال والافعال بعض الاغرار
 من الرجال والصبيان والاطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد
 اخلاقهم وتغيير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا يعزل
 عنه من فحش القول وشنيع الفعل وقد قال الله سبحانه وتعالى
 (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) فلو خلا اللعب عن هذه
 القبائح لكان ما لا ضير فيه اما على تلك الصورة فهو مذموم منكر
 مضر ولهذا ترى اهل الورع والتقوى عندنا يتحامون مواضع هؤلاء
 الجماعة ويكرهون غشيانها وقد رايتهم انا عند بعض الجيران
 فنفر منهم طبعي ومجهم بصري وسمعي

واما الغناء عندنا سواء كان من الرجال او من النساء فلا
 يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة وانما هي في الغالب
 كلمات غرامية من الشعر او غيره من الفنون يرددها المغني ويترجم
 بها مع رعاية تحسين الصوت واجادة الاداء والاتيان بما يستعذب
 من الالحان علي قدر الامكان فيقصد فيها الى رخاوة الصوت
 ورخامته وجودة الاداء وحسن الانغام وقد يقطع النظر بالكلية

المحجرات المخصوصة دفع أكثر من على الدكات وتفاوت الاجرة
على حسب تفاوت الدرجات من نصف فرنك الى عشرين فرنكاً
فقال الشيخ لولا ما ذكرت من كمال انتظام التياتر وحسن
احواله وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق لخطر
في البال ان ما يحصل به من التقليد والتثيل والالعاب المتنوعة
من قبيل ما يكون في بلادنا من العاب الطائفة المعروفة باولاد
رايه وما يكون فيه من الاعاني والالحان ايضاً من قبيل ما يكون
عندنا من غناء المغنين والمغنيات فاما اولاد رايه فانهم يدخلون
في تقليد بعض احوال حاضرة او امور ماضية ياخذون في تمثيلها
وتصويرها وبرزها في معرض المحسوس المشاهد سواء كانت اموراً
اختراعية وهمية لا مستند لها سوى الخيلة ام كانت اموراً حقيقية
حصلت في الواقع ونفس الامر وقد يكون لهذه التقليدات في
بعض الاحيان نفع في الجملة بان يدخل فيها تبيج واقعة سيئة
حصلت في الزمن الحاضر او الغابر من بعض الناس فيبرزونها في
معرض التشنيع والتفضيع مفرغة في قوالب الهزل والسخرية فيضحك
منها من يراها وقد يراها من كانت حصلت منه او من هو على
حال مثلها فيستنكف ان يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت
مثلاً واضحوكة لاعالي الناس واسافلهم وتكره نفسه بالضرورة ان
يكون معروض تقليد هؤلاء القوم وموضوع اضاحيكم فيكيف عن
تلك الحالة القبيحة ويرجع عن معاودتها وياخذ نفسه بالاقلاع

عشر من الميلااد وبسبب ما وجد فيه من اللذة للإمراء وعموم
الناس مالت اليه الملل الاوروبية كل الميل واحدثوا فيه انواعاً
مختلفة حتى تقدم تقدماً عظيماً وصار من ضمن اسباب الرزق لكثير
من العلماء والشعراء والمشتغلين بتركيب الحكايات والنوادر
والامثال ومن مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق والطباع
وعلى حسب درجة التياتر وعظمه يزداد عدد الموظفين به فيكونون
قريباً من مائتين وخمسين نفساً من النساء والرجال وذلك كما في
الاوبره واقل من ذلك في غيره واذا توقفت ادارة المشهور منها على
المساعدة ساعدت الحكومة اربابه على حسب ما يلزم من الهيئة
والابهة باموال عظيمة ربما تبلغ نحو الالف كيس سنوياً فترتب على
ادارته والاعناء به اشتغال افكارهم حتى كاد ما اخترع والف في
هذا المعنى من الكتب والحكايات يزيد على ما هو مكتوب في باقي
العلوم والفنون وكما يوجد من التياتر عدد كثير في المدن الكبيرة
كذلك يوجد في المدن الصغيرة وفي قرى الارياف خصوصاً
البلاد المعتاد بها نصب اسواق او ما يوجب اجتماع الكثير من
الناس كالاعياد والموالد وقد تكون في القرى داخل خيم او في
محلات مستورة بالاخشاب ولا يمنع احد من دخول التياترات
فيدخل الغني والفقير والعظيم والحقير وانما يدفع كل انسان مبلغاً
مقدراً على حسب الدرجة التي يرغب فيها فان رغب في الدور
الاول دفع اكثر من الثاني او في الثاني اكثر من الثالث او في

وكان التياتر عند المتقدمين عبارة عن ارض متسعة يحيط
 بها درابزين وعمد وهي مسقوفة بأقمشة للوقاية من العوارض الجوية
 وكان يسع نحو عشرين الف نفس يجلسون على درج يعلو بعضها
 بعضاً منفصلة عن بعضها لسهولة المارين من بينها وبها سلام
 للعود والهبوط وشكله عبارة عن جزئين جزء مستطيل يجلس
 عليه ارباب الموسيقى وجزء مستدير وهو المخصص باللعب وكان
 يشتمل على بعض محلات لتغيير اللاعبين ملابسهم وتحضير ما
 يلزم للعب

وفي هذه الاعصار المتاخرة زاد الاعناء بمحلات التياتر ودخل
 فيها كثير من التحسين والزخرفة والتزيين حتى صارت معدودة
 من العمارات الشهيرة في الرونق والزينة والزخرفة واللطافة
 والظرافة داخلاً وخارجاً ولذلك عدة مبان شهيرة صرف على بنائها
 وزخرفتها اموال كثيرة فمنها ما صرف في انشائه قريب من مائتي
 الف كيس كالأوبره بباريس ومنها ما صرف عليه اقل من
 ذلك وكانت عادة اللعب عند المتقدمين مدة النهار فقط وقد
 غيرت تلك العادة الان وجعلت في الليل وهو اوفق لانه وقت
 التفرغ من الاشغال العمومية والاسباب المعاشية فيجب الانسان
 ان يتروح بالتلذذات الدنيوية والملاهي ليستريح من الآلام التي
 اعترته نهاراً من الاشغال الضرورية ولم يكن اوفق لذلك من
 الليل ولم يشتهر امر التياتر ببلادنا الا من ابتداء القرن السادس

نظير وتارةً تنغطي بأذيال الدخان او سنور السحاب وتارة
تظهر الكواكب بها للعيان وتارة تتوارى بالحجاب وينظرون
الى ارض الملعب فيرونها في بعض المواضع غاصة بالشجر
والغابات وغير ذلك من الهيئات والمخلوق في خلالها بين قتيل
وجريح ومتماسك وطربح الى غير ذلك ما تتضمنه حال الوقائع
وتستدعيه محاكاة صورة الواقع

فقال الشيخ الى اي وقت يمتد اللعب في التياتر . قال
يمتد في العادة الى نصف الليل ومن العادة ان يكون اللعب
على عدة فصول تفصل عن بعضها ببرهة خفيفة تتخلل بين كل
فصلين منها لاجل استراحة اللاعبين وتجدد نشاط المتفرجين
وعلاوة ذلك الانفصال سقوط ستارة تحول بين اللاعبين
والمفرجين وهناك محلات للاستراحة وشرب القهوة والدخان
وغير ما ذكر وفي اثناء ذلك يستعد اللاعبون للفصل اللاحق
فان كان هناك لعبة جديدة هيئوها وهيئوا ادواتها واستعدوا
واعدوا المحل لها وفي تلك المدة ايضاً يذهب كل من المتفرجين
الى ما احب فمنهم من يذهب الى محل الشرب ومنهم من يقوم
للمحادثة مع بعض الاحباب ومنهم من يخرج ثم يعود اذا كان معه
ورقة الباب وعلامة الاجتماع ضرب جرس يسمعه المتفرجون
فيعودون لمحلاتهم ويجتمعون فترفع الستارة فيرون المحل على
الهيئة التي يراد تصويرها

والانفاظ المعتادة وفي بعضها يستعمل النثر مع الشعر وفي البعض لا يستعمل الا الشعر وتارة يكون النفاذ الكلام فيها على وجه التغني مع موافقة اصوات الآلات الموسيقية وتارة يكون على وجه النفاذ المخطبة او على هيئة المخاطبة والمحاورة واذا كان للعبة احوال جعلوا لها فصولاً بقدر الاحوال التي تعترها وتراهم يصورون الملعب في كل حالة وواقعة بهيئة تناسبها وتليق بها على وجه المحاكاة لمحل وقوعها فان كانت الواقعة في ارض ذات انهار واشجار وبيوت وقناطر مثلاً صوروا المحل بهذه الهيئة بعينها وهكذا اذا كانت في صحراء بها جبال وصخور ووحوش وطيور او في بحر له امواج كثيرة وسفن صغيرة وكبيرة او في وادٍ كثير المسالك وهلم جراً الى غير ذلك وفي كل نوع يظهر اللاعبون بالهيئة التي كان عليها الناس حين كانت المحادثة من ذكور واناث وصغار وكبار بملابسهم وهيئاتهم واحوالهم وكنفياتهم واشكالهم فان كانت الواقعة حربية مثلاً هيئوا احوال الحرب والضرب والقتال والنزال وصوروا الكر والفر والاقدام والاحجام والزحف والادبار والغلبة والفرار واشهروا السلاح وهزوا الرماح وصفوا الصفوف وضربوا بالسيوف ورموا بالمدافع والبنادق كما شال الصواعق وزفَعوا البيارق والسناجق وعبروا الخنادق حتى يتخيل المحاضرون من حسن السبك ان ذلك حقيقة بلا شك اذ يرون الخيل وهيئاتها والرجال وكنفياتها وينظرون فيرون سماء تارة

ونشاط ولأن اذالم تردان تكون معنا فارجوك ان تاذن لبرهان
الدين ان يكون بصحبي ليتفرج على التياتر وكيفيته
قال الشيخ ذلك اليك ولكن احب منك ان تصف لي
بعض امر هذا التياتر

فقال الانكليزي التياتر عندنا عبارة عن محل تجمع فيه
جملة من الخلق مختلفة في الثروة والافتقار لاجل التفرج على
انواع مختلفة من العاب منتخبة من آثار بعض المشهورين من
العلماء والشعراء والعقلاء والبلغاء فيتشكل بحسب الالعب التي
يراد اجراؤها فتارة تكون عبارة عن تصوير بعض وقائع حربية
ومبارزات شخصية وفتن ملية وتارة تكون عبارة عن عوارض
حدثت في بعض الجهات او لبعض الناس من الامراء والملوك
وغيرهم كالعشق والفرق والفقر ونحو ذلك مما يحدثه الزمان في
القلباته وقد تكون هذه الالعب مؤسسة على تمثيل بعض امور
وردت في الكتب الدينية كوصف يوم القيامة وما يكون فيه
من الاحوال ووصف الطوفان وما جرى فيه على الوجه المذكور
في الكتب المقدسة وتارة تكون مخصصة بالصفات النفسية والشهوات
الذاتية كالكرم والنجل والحلم والعدوان والكبر وما اشبه ذلك
وقد يتعاقب في بعضها جملة من انواع الالعب كالمجد والهزل
والفرح وغير المفرح وقد يكون مخصصاً بنوع واحد ولكل علامة
يعرف بها وفي بعض الالعب لا يستعمل الا اللسان المتعارف



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والعشرون

التيارات

ثم قام برهان الدين وتوجه الى والده فوجده استيقظ
من النوم فاخبره بما كان فقام وتوضأ وادى الفرض كعادته ثم
توجه الى الانكليزي فحياه وبالسلامة هناء وقال له كان توجهي
لجنابكم لادعوكم في هذه الليلة الى التفرج في التيارات
فقال الشيخ كان بودي ان ارافقك ولا افارقك ولكني ارى
ان لا اخرج في هذه الليلة فاني اجد في جسمي بعض فتور
فقال الانكليزي لا باس عليك واطن ذلك من اثر مشقة
السفر فاذا نمت الليلة واسترحت اصبت ان شاء الله في عافية

DT
70

A597

1882

v. 2





Alam

عَلَمُ الدِّينِ

لمحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثاني

! طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢



**PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET**

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

